أبعاد المؤثر الإسلامي
في
القصيدة العربية

تأليف

د. / عبد الله التطاوي
كلية الآداب - جامعة القاهرة

دار الثقافة للنشر والتوزيع
٢ ش سيف الدين المهراني - الفجالة
ت : ٩٠٤٦٩٦

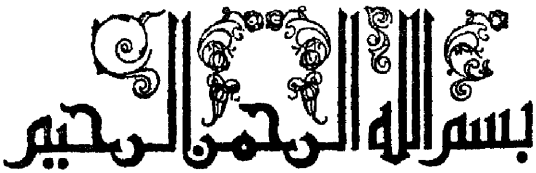
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء من الخليل إلى الدكتور
مصطفى الدين
مع ودي واعتزازي وتقديري
٩٢/٢/١١

أبعاد المؤثر الإسلامي
في
القصيدة العربية

831.710
0928247
T216

تأليف
د. / عبد الله التطاوي
كلية الآداب - جامعة القاهرة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية
كتب عربي
(إهداء)
رقم التسجيل ٤٢١٩٦

دار الثقافة للنشر والتوزيع
٤ شارع سيف الدين المهراني - القاهرة
ت / ٩٠٤٦٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بلغت القصيدة العربية مرحلة من النضج الفنى ودرجة عالية من الاكتمال قبل مجيء الدين الإسلامى ، فقد حفظ أبناء مجتمع الجاهلية جل — أو كل — ما نظمه شعراؤه من معلقات ، أو قصائد ، أو مقطوعات وظلو يتوارثون ما يحفظون خلفا عن سلف ، واستمرت ظاهرة الحفظ هذه أساسا لضمان بقاء هذا الشعر إلى أن جاء عصر التدوين ، ووقف الرواة عند جمع هذا الشعر من مظانه الأولى لدى أبناء القبائل البدوية ، وراحوا يدونونه ويوثقونه على نحو ما كان من المفضل الضبى ، والأصمعى ، وحماد الرواية ، وخلف الأحمر وغيرهم من الرواة ، على اختلاف درجات الثقة فى كل واحد منهم على حدة .

ولعل أهم ظاهرة تميزت بها القصيدة العربية الجاهلية أنها ظلت متوارثة عبر الشكل أو القالب الفنى ، فى الوقت الذى شهدت فيه تغايرات وتحولا طبقا لطبيعة الموضوعات المختلفة التى عالجها الشعراء ، فكان من أكثرها بروزا شعر المدح والفخر والهجاء والرثاء ، وكذا شعر المعارك والحماسات مما صور أيام العرب الطوال ، وأبرز شريعة الغزو التى سادت بين القبائل حتى كادت تهدد بعضها وتنذر بالفناء .

ومما لا شك فيه أن الشاعر الجاهلى قد وعى حقيقة موقفه حين عكس موضوعات البيئة ، فصورها فى أى من موضوعات الشعر ، مستغلا بذلك ما هيىء له من حرية الاختيار التى ارتبطت بطبيعة المعطيات التى ألفها الشاعر فى بيئته البدوية ، فكان أمينا فى صدوره عن معجمها حتى فى أشد لحظات تمرده عليها ، ولذا كان المعجم

الجاهلى هو المصدر الوحيد لأولئك الشعراء ، كما كانت البيئة بكل معالمها المرئية والمسموعة والمحسوسة مصدرا للتصوير ، والتقاط المشاهد التى استوقفت الشاعر لكى يصورها ، ويتخذ منها مادة لفنه .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذه المقدمة ان استمد شعراء الجاهلية مادتهم اللغوية والتصويرية من أصل واحد مشترك ، التقت فيه اتجاهات الشعراء سواء منهم من كان قبليا أو متمردا على نظام القبيلة ، ذلك أن نظرة سريعة إلى ديوان شاعر مثل طرفة بن العبد الذى ضاقت به القبيلة لإسرافه فى السكر وانصرافه إلى حانات الخمر ، لم يستطع أن يصدر شعره إلا من منطق قبلى لغة وصورة ، وكأن أحادية المصدر قد فرضت نفسها على شعراء العصر فرضا ، الأمر الذى قد نلتمس له نظيرا آخر عند صعاليك العصر الجاهلى ممن تمردوا على النظام القبلى ، وحاولوا الخروج على المنهج العام للقصيدة ، ولكن ذلك الخروج على المنهج العام بدا شيئا ، وارتباطهم باللغة والصورة ومعطيات معجم القصيدة ظل موقفا آخر مختلفا تماما .

وحين نقول بأحادية المصدر فليس معناه أن ثمة انغلاقا فرض نفسه على الشعراء ، ولكنهم بدوا شديدى الاعتزاز بمعجم البداوة من منطق الولاء له ، وشدة الحرص على الانتماء إليه ، ولذا يبقى استثناء لابد من التنبيه إليه ، يتعلق بشعراء قبليين كانت لهم صلات حضارية بحكم زياراتهم للإمارات المجاورة ، فالتمسوا من مظاهرها وصور الحياة فيها بعضا من صورهم الشعرية ، ولكنهم لم يأخذوا من لغتها بشىء يستحق الذكر أو التسجيل ، على نحو ما كان من صلات النابغة الذبيانى بالمناذرة ، وحسان بالغساسنة ، وكذلك ما كان من اتصالات حضارية للأعشى وعدى بن زيد اللذين عرفا بصلاتهما الحضارية العميقة بإمارة الحيرة .

وهكذا ظل المعجم البدوى مسيطرا على ذاكرة الشاعر ، وكأنه المحيار الأوحد للأصالة ، والضمان الوحيد لعدم وقوع الشاعر فى

براثن الزيف الفنى التى أنف منها شاعر العصر فى ظلال وحدة الثقافة التى غلبت عليه .

وعلى هـذا بدا الاتجاه العام للموقف من قبل شعراء العصر متجها إلى الإغراق فى حس البداوة والانخراط فى ظلال صوره باعتباره تراثا خالدا وواقعا معاشا ، وكأن الشاعر يخشى أن يبدأ من فراغ ، فإذا هو يسند ما يأتى به فى معجمه من صورة أو معنى إلى شاعر سابق ، يجد فيه سنده التراثى على نحو ما عرضه قول امرىء القيس فى بيته المشهور :

عوجا على الطل المحيل لأننا
نبكى الديار كما بكى ابن حذام

أو قول عنترة فى بيته المعروف فى مطلع معلقته :

هل غادر الشعراء من متردم
أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

وكذا ما ذهب إليه كعب بن زهير دون حرج أو وجل فى تصوره لهيمنة التراث ، وكأن الأول لم يترك للآخر شيئا :

ما أرانا نقول إلا معارا أو معادا من لفظنا مكرورا

والشاعر يرتضى لنفسه ذلك ولا يأنف منه ، فلا مانع لديه من أن يكرر نفسه ويكرر آباه وغيره من شعراء العصر ، ألم يسلم بأن المصدر واحد مما يجعل من حقه وحق غيره أن يأخذ منه ، ومع اتفاق المصدر يزداد احتمال هذا التكرار فى الفن .

ويظل المعجم الجاهلى مسيطرا على ذاكرة الشاعر لا تكاد تتجاوزه أو تجور عليه إلى أن يأتى المصدر الإسلامى مع انتشار الدين الجديد ، وأفول نجم الجاهلية ، ومع هذا المعجم يبدأ الشاعر المسلم يتوقف ، وكأنه استيقظ لأول مرة أمام ثنائية لا ينتطلع اغفال

جانب منها ، فهناك تراث جاهلي كامن في أعماقه ولاوعيه لا يستطيع — بالطبع — أن يتخلص منه بين يوم وليلة ، ولا يستطيع — أيضا — أن ينتكر له أو يرفع في وجهه راية العصيان ، وأمامه أيضا معجم إسلامي جديد بدأ يردد ألفاظه ويتردد على ضوره ويستمد من معجمه ولا يستطيع أيضا إغفاله لأنه يمثل الجانب العقائدي الذي يشغل فكره بنفس العمق بل ربما أخذ بعدا خاصا أشد عمقا وأكثر ظهورا وتأثيرا .

من هنا كان سعي هذه الدراسة الى التعرف على المؤثرات الإسلامية التي تركت آثارها في موضوعات الشعر العربي القديم . حيث تتوقف عند ملامح هذه المؤثرات من منطق التحليل والتعليل ، ومحاولة كشف الأبعاد المتنوعة لها . وبذا فهي لا تقف عند حدود شعر الدعوة الإسلامية ، فلهذا النمط من الشعر ظروفه ومواصفاته ، وموضوعاته ، وحدوده ، وسماته الفنية الخاصة التي تميزه . ولكن هذا الدرس ينحو منحى خاصا يحاول فيه رصد معالم المعجم الإسلامي كما استوحتها القصيدة العربية ، واستوعبها شعراؤها ، وكيف استقرت هذه المعالم في أذهان الشعراء على مدار الحركة الأدبية في عصورها المختلفة . كما يحاول هذا الدرس أن يكشف ما أصاب القصيدة من تحول تحت وطأة هذه المؤثرات ، وكيف أثرت فيها طبيعة المادة التي حدث فيها التحول ، وقد التقطها الشعراء ، فراحوا يعالجون القصيدة من خلالها بما يفي بوظائف الشعر كما فهموها وصدروا عنها .

ولعل كثيرا من الدراسات الأدبية قد توقفت أمام التيار الإسلامي ، وكيف استطاع توجيه حركة القصيدة العربية على سبيل التوظيف من أجل الدفاع عن قضايا الدين ، أو تبني الدعاية له ، والانتصار لقيمه ومبادئه ، وظهرت الموسوعات الأدبية التي احتوت رصيداً طيبا من هذا الشعر على نحو ما رصدته موسوعة أدب الدعوة الإسلامية[1] ،

---

(١) جمع وتحقيق عبد العزيز بن محمد الزير ومحمد بن عبد الله الأطرم بإشراف الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا .

وما ظهر فى مدرسة الدراسات الأدبية من محاولات للتوقف عند تلك الأنماط التى وظفت فى خدمة الدعوة الإسلامية • ولعل ما اتسمت به هذه الدراسات من الجدة والكثرة ، قد يدفع إلى ضرورة عرض هذه المحاولة استكمالا لاستكشاف جوانب التأثير الإسلامى فى كل موضوعات الشعر ، ولدى عديد من الشعراء من ذوى الاتجاهات المختلفة سواء منهم من قصد إلى الدفاع عن موقف دينى ، أو من سار فى سبل أخرى شغلته فيها الحياة ، أو قضايا مجتمعه ، أو مشكلاته الخاصة ، على أن يكون المؤثر الإسلامى بمثابة الموجه لحركته ، أو المنعطف الذى يلجأ إليه فى فنه ، ومن ثم تبرز اتجاهات هذه الدراسة حول طبيعة المادة التى تعامل معها الشاعر ، وكيف استطاع المعجم الإسلامى أن يفرض عليها من مؤثراته ما يسهم فى توجيهها طبقا لطبيعة الموضوع الذى يعرضها من خلاله ، واتساقا مع طبيعة المواقف التى يعيشها الشاعر ، وتناغما مع ظروف العصر وحس الحضارة ، أو ألوان السياسة التى تعرفها البيئة فى زحام التيارات المتجددة تجدد الحياة الأدبية ذاتها •

من هنا يبقى لهذه الدراسة حجمها المحدود من خلال هذا التناول وذلك الرصد لتحول المؤثر الإسلامى وتجدده عبر العصور القديمة والوسيطة علها تضيف جديدا إلى هذا المجال ، وإلا ظلت خطوة على الطريق ترشد إلى استكماله وتتبع المسيرة من خلاله •

نسأل الله التوفيق والسداد

« ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا »

صدق الله العظيم

عبد الله النطاوى

القاهرة ١٩٨٩

الفصل الأول

المؤثرات الإسلامية فى عصر صدر الإسلام

١ ــ مصادر التأثير ومقوماته ٠

(أ) فى عصر الرسول ٠

(ب) فى عصر الراشدين ٠

٢ ــ سمات المعجم فى هذا العصر ٠

بدأت المزاوجة المعجمية تفرض نفسها على الشعراء المخضرمين ، وبدأت الألفاظ الإسلامية والصور تتناثر بين الأبيات في شعر هذا العصر ، ولكنها بدت ذا طبيعة خاصة تميز بها شعر تلك الفترة خاصة لدى شعراء المدينة ، إذ غلب على معظمها عنصر التقرير أكثر من التصوير ، وبذلك كثرت الصياغة المباشرة في شعر شعراء عصر صدر الإسلام ، وكأنما جاءت هذه التقارير ضرورة تتسق مع طبيعة تلقي الشعراء للفكر الديني الجديد ، فإذا بالشاعر يدير حواره حول قضايا الرسالة ، فيذكر رسول الله ﷺ ورسالته ، وجبريل كواسطة للوحي بين الله سبحانه وتعالى وبين رسوله عليه الصلاة والسلام ، وما يعرفه عن القرآن الكريم أو إعجازه أو تشريعه ، وصورة النبي عليه السلام وغزواته ، وموقف المسلمين من الأنصار أو المهاجرين ممن امنوا به وآزروه أو موقف كفار مكة ممن عاندوه وحاربوه ، وبذا أدخل الشاعر من معجم الإسلام ما يتعلق بقضايا العقيدة دون أن يتوقف عند فلسفتها ، أو تلمس ما وراءها من أبعاد جدلية يناقشها أو يحللها أو يتخذها مادة لمناظرة أو حوار ، ذلك أن أبناء ذلك الجيل قد تحولوا عقائديا من وثنية غائمة أغرقهم ضلالها في تيه عميق من الجهل إلى ما أنقذهم به الدين الجديد منذ سلم به منهم فريق ، فآمن ونضر الرسول ﷺ ، ولم يشغل أبناؤه من أمرهم بجدل ، أو فلسفة ، على نحو ما تشغل به المشركون على نحو ما عرضه القرآن الكريم فيما يتعلق بأسلوبه عليه السلام في نشر الدعوة طبقا للمبدأ الإسلامي الذي هداه إليه الله سبحانه وتعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)[1] وما شهد له به الله سبحانه من كرم الخلق وسماحته (وإنك لعلى خلق عظيم)[2] ومن وداعة القلب ولطف المعشر في التعامل مع جمهور البشر عامة من حوله (ولو كنت فظا غليظ القلب

---

(١) سورة النحل : ١٢٥ .

(٢) سورة القلم : ٤ .

لانفضوا من حولك)[٣] أو من شدة حرصه عليه السلام على المسلمين ممن ناصروا دعوته ونصروه فكانوا (أشداء على الكفار رحماء بينهم)[٤] ، وما كان منه عليه السلام فى شدة رحمته بهم (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم)[٥] .

ومن هذا المنطق بأبعاده المختلفة تبدو انعكاسات المعجم الإسلامى من خلال شعراء تلك الفترة ، فإذا بالشاعر فى المدائح النبوية يتجاوز الملامح التقليدية التى رصدت فى صورة البطولة الجاهلية ، على ما قد يشوبها من طيش أو حماقة أو عنف ، لتتحول على يديه إلى صورة مهذبة ينبثق منها الحس الإسلامى الجديد ، وينسبها الشاعر دائما إلى الله سبحانه وتعالى ، ويعرض من خلالها موقف فريق المسلمين والمشركين ، فإذا بملامح البطولة تتراءى مجسدة فى مكانة رسول الله عليه السلام كهاد للأمة وبشير بالحق على حد قول حسان بن ثابت الأنصارى :

وقال الله قد أرسلت عبدا
يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به فقوموا صدقوه
فقلتم : لا نقوم ولا نشاء[٦]

إذ يبدو الممدوح هنا بطلا من طراز خاص فهو عبد لله ، لا يقول إلا حقا ، أتى قومه اختبارا لهم فشهد به فريق وكذبه آخرون ، وهى ملامح تبدو جديدة تماما فى عالم الفضيلة الذى رسمها المادح لممدوحه .

---

(٣) سورة آل عمران : ١٥٩ .
(٤) سورة الفتح : ٢٩ .
(٥) سورة التوبة : ١٢٨ .
(٦) ديوان حسان : ١٧ .

وعلى حد تعبير كعب بن مالك الأنصارى أيضا :

وكان لنا النبى وزير صدق
به نهدى البرية أجمعينا(٧)

وقول كعب بن زهير بن أبى سلمى :

إن الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول(٨)

إذ تبدو البطولة رهنا بعموم الدلالة على صدق رسالة البطل التى يحرص الشاعر على التصديق بها ، حتى ليبدو البطل هاديا لأمة بأكملها ، يساعده من صدق به ويرتدى معه درع البطولة ، ولكن بطولته المطلقة تظل سائدة متميزة ففيها نور اليقين والهداية ، وفيها قوة البطل على نشر الدعوة المسندة إليه .

ويشتد حرص الشاعر على تسجيل إيمانه بالرسول ﷺ من منطق الحس الغيبى ، حين يسلم بالمبادىء العقائدية حول صدق الرسالة ، والإيمان بمصدرها واليقين بواسطتها ، يقول حسان :

وجبريل رسول الله فينا
وروح القدس ليس له كفاء

ومن ثم راح شاعر العصر يسجل ما يستطيع من ملامح إيمانه بالدعوة من منطق الاقتناع بها من جانب ، والخوف من عقاب الله سبحانه من جانب آخر صوره قول النابغة الجعدى :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى
ويتلو كتابا كالمجرة نيرا

---

(٧) ديوان كعب بن مالك : ١٨٨ .

(٨) ديوان كعب بن زهير ١٥٠ .

أقيم على التقوى وأرضى بفعلها
وكنت من النار المخوفة أحذرا (٩)

إذ يتخذ الشاعر مادته اللفظية من : رسول الله — الهدى — الكتاب — النور — التقوى — الرضى — الحذر من النار ، فجعل الصياغة إسلامية تماما سواء دخلت بالأبيات إلى عالم المدح أو الفخر .

ومن منطلق الإيمان بأصول الدعوة الإسلامية على هذا النحو راح بعض الشعراء يعرض من الجوانب الدينية ما حاول طرحه في شعره ، وهو في ذلك لا يستوحى المعانى أو الصور من معجم الجاهلية الموروث فحسب ، بل بدا المعجم الإسلامى أساسا جديدا لهذا التصوير على النحو الذى صوره النابغة الجعدى أيضا فى قوله وقد أسقط معجمه الجاهلى تماما هنا :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

الولج الليل فى النهار وفى الليل نهارا يفرج الظلما

الخافض الرافع السماء على الأرض ولم يبن تحتها دعما

الخالق البارىء المصور فى الـ أرحام ماء حتى يصير دما

من نطفة قدرها مقدرها يخلق منها الأبشار والنسما

ثم عظاما أقامها عصب ثمت لحما كساه فالتأما (١٠)

فهو يستوحى من الدلالات القرآنية ضرورة حمد الله سبحانه وتعالى ومع الحمد يرصد مبدأ التوحيد وعدم الشرك بالخالق مما يقترب من كثير من معانى الآيات « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك

(٩) شعر النابغة الجعدى ٥٧ .
(١٠) الشعر والشعراء ٢٥٣ .

بعبادة ربه أحـدا »[11] . وكذا من قوله تعالى « تولج الليـل فى النهار وتولج النهار فى الليـل ، وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى »[12] .

ومن الآية الكـريمة « رفع سـمكها فسواها »[13] ، و « رفع السـماوات بغير عمد ترونها »[14] .

« هو الله الخالق البارىء المصور »[15] .

ومن الآيات التى تحكى مراحل خلق الإنسان فى قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين »[16] ومن قوله تعالى « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين »[17] .

وعلى هـذا النحو كانت روح الوضوح والإبانة أشـدة سيطرة على أذهان شـعراء ذلك الجيل فظهروا شـديدى التأثر بقيم الدين الجـديد واتجاهاته ، شـديدى الالتزام بمبادئه ، حتى جعـلوا من شـعرهم معرضـا طيبـا للقيم الدينيـة الجديدة ، صحيح أنهم ظلوا على صلة وثيقة بالشـكل الفنى للقصـيدة الجاهليـة ، ولكنهم لم يعجزوا عن طرح القيم الجديدة من خلال ذلك الشكل على تنوع مستوياته بين قصائد طوال أو قصار أو مقطوعات أو حتى رجز ، وفى غير حاجة إلى تعليق تلك التقـريرية والمباشرة فى الأداء بما يتسق مع إيقاع الحياة الجديدة وطبيعة الموضوعات المعالجة .

---

(١٢) سورة آل عمران : ٢٧ . (١١) سورة الكهف : ١١٠

(١٣) سورة النازعات : ٢٨ .

(١٤) سورة الرعد : ٢ . (١٥) سورة الحشر : ٢٤ .

(١٦) سورة المؤمنون : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

(١٧) سورة يس : ٧٧ .

فثمة فروق مؤكدة بين موضوعات كالمدح أو الهجاء مما يتطلب إعدادا خاصا يعمل فيه الشاعر ألف حساب للمتلقى ، وبين حديث الشاعر هنا حول دينه كما لو كان ضربا من مناجاة الذات أو رغبة فى إفهام جمهوره ووعظه ، فلا يهمه هنا أن يقف طويلا عند ملكة خياله بقدر وقوفه عند مادة إسلامه .

كما يلاحظ أيضا على شعراء هذا الفريق أنهم بدوا شديدى الصلة بالمصدر القرآنى ، يأخذ الواحد منهم منه بحرص شديد ، حتى ليكاد يقترب من الصياغة اللفظية للآية ، ولا غرو فى ذلك فلم يكن مطلوبا من هؤلاء الشعراء ، ولا من المنتظر لديهم أن يفلسفوا قضايا العقيدة ، أو أن يشغلوا عن تفسير الآيات القرآنية إلى تأويلها ، خاصة أن تلك القضايا ظلت واضحة وضوح التساؤلات ، وما يليها من بيان الإجابات الشافية من قبل رسول الله ﷺ ، إلى جانب ما نص عليه من فتح باب الاجتهاد للعقل كمصدر ثالث للفهم العقيدة بعد الأخذ بكتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وقياس الأحكام على ضوئيهما .

وعلى هذا النحو بدا الشاعر المخضرم واضح العقيدة وضوح لغته وشعره ، فلم يشأ أن يصل بمبادئها إلى درجات من التعقيد ، بل اكتفى بما أخذه منها عن اقتناع ، مما دفعه إلى الجهاد فى سبيل الانتصار لدين الله ، وهو يصرح بذلك ويطرحه من منظور دينى محض ، يدحض به شريعة الغزو ولغة البطش التى شاعت فى الجاهلية ، فإذا بالنابغة الجعدى نفسه يرفض مطلب زوجته التى راحت تناشده البقاء خوفا عليه من الموت ، فيجيبها بأنه لا عذر له إن هو تقاعس عن الخروج مجاهدا فى سبيل الله ، ومنفذا تعاليم الكتاب الكريم ، يقول مبررا حتمية خروجه :

يا ابنة عمى كتاب الله أخرجنى
طوعا وهل أمنعن الله ما فعلا

فإن رجعت غرب الناس يرجعنـــى
وإن لحقت بربى فابتغي بـــدلا
ما كنت أعرج أو أعمى فيعذرنى
أو ضارعا من ضنى لم يستطع حولا[١٨]

وكأنا به يردد من ملامح الجهـــاد دعوة القرآن الكريم إليـــه « الذين يقاتلون فى ســـبيل الله فيقتلون ويقتلون »[١٩] .

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم »[٢٠] .
« وجاهدوا فى الله حق جهاده »[٢١] .
« ليس على الأعمى حرج »[٢٢] .

« وما لـــكم لا تقـــاتلون فى ســـبيل الله والمســـتضعفين من الرجال »[٢٣] .

فهو إنما يعكس معجمه اللفظى من خلال كتاب الله وقد أطاعه فعلا فى إصراره على الخروج ، كما أطاعه مرة أخرى حين استثنى منه مبرراته وإيمانه المطلق بقضاء الله وقدره .

ولا شك أن شاعر العصر بدا قانعا بما التقطه من هذا المعجم الإســـلامى ، فكان امتداداً لسعادته باعتباره مسلما ، على النحو الذى صاغه لبيد فى قوله شـــاكرا الله على نعمة الإســـلام وقد طال به الأجل حتى أســـلم :

---

(١٨) ديوان النابغة : ١٦٨ .
(١٩) سورة التوبة : ١١١ .
(٢٠) سورة البقرة : ٢١٦ .
(٢١) سورة الفتح : ٧٨ .
(٢٢) سورة النور : ٦١ .
(٢٣) سورة النساء : ٧٥ .

الحمـــد لله إذ لم يأتنى أجلى
حتى كسانى من الإســـلام سربالا[٢٤]

على ما فى البيت من جمال التصوير الذى جسد فيه الشـــاعر الإســـلام وقد اكتسى سربال قبل وفاته .

وكذا ما سـجله عبد الله بن رواحة فى تحذيره لأبى سفيان بن الحارث من عدم إســـلامه ، وتهديده بصور العقاب الآجل والعاجل فى الدنيا والآخرة :

فابلغ أبا ســـفيان إما لقيتـــه
لئن أنت لم تخلص سجودا وتسلم

فنبشر بخزى فى الحيـــاة معجل
وسربال قار خالداً فى جهنم[٢٥]

فيأخـــذ مادته من مؤشرات الآيات القرآنية « فاســـجدوا لله واعبدوا »[٢٦] .

« بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه »[٢٧] .
« لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق »[٢٨] .
« سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النـــار »[٢٩] .

فكانت مادته موزعة بين الســـجود والتسليم والعقاب العاجل والآجل ومشاهد جهنم وكلها ـــ كما رأينا ـــ منتزع من المعجم الإسلامى .

---

(٢٤) ديوان لبيد .
(٢٥) ديوان عبد الله بن رواحة .
(٢٦) سورة النجم ٦٢ .
(٢٧) سورة البقرة : ١١٢ .
(٢٨) سورة الرعد : ٣٤ .
(٢٩) سورة إبراهيم : ٥٠

وعلى هـذا النحو بدا المعجم الإسـلامى معينا للشـاعر على عرض القيم أو تصويرها سواء فى فخره أو هجائه ، وقد تكرر الإلحاح على تصوير مبادىء العقيدة من منطق التأثر بالآيات القرآنية أيضا ، على النحو الذى رصده ابن رواحة أيضا فى قوله :

شـهدت بأن وعـد اللـه حـق
وأن النـار مثوى الكافرينـا

وأن العـرش فوق المـاء طاف
وفوق العـرش رب العالمينـا

وتحمـله ملائكـة كـرام
ملائكـة الإلـه مقربيتـا[٣٠]

إذ يردد معانى الآيات القرآنية « الا إن وعد الله حق »[٣١] .

« ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية .. »[٣٢] .

« وكان عرشه على المـاء ليبلوكم أيكم أحسن عمـلا »[٣٣] .

« ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته »[٣٤] .

« عليها ملائكة غلاظ شـداد لا يعصون الله ما أمرهم »[٣٥] .

فكانت منطقة الغيبيات أشد سيطرة على الأبيات بين حديث الجنة والنار ومشاهد القيامة ، وصورة العرش ورب العرش والعالمين جميعا ، ومن حولها صورة الملائكة المقربين من خالقهم سبحانه وتعالى .

---

(٣٠)
(٣١) سورة يونس : ٥٥ .
(٣٢) سورة الحاقة : ١٧ .
(٣٣) سورة هود : ٧ .
(٣٤) سورة الأعراف : ٢٠٦ .
(٣٥) سورة التحريم : ٦ .

وبذا يبدو المعجم الإسلامى وقد عرف طريقه عبر موضوعات كثيرة ، فإذا به يسود وينتشر ، لينسج خيوطه من خلال كل الموضوعات التى طرقها شعراء العصر تقريبا ، ففى غير لوحات المديح أو الفخر أو الرثاء تأتى المعانى الإسلامية بصورة مكثفة ، ففى رثاء الشعراء لرسول الله ﷺ ، وكذلك فى رثاء الراشدين رضوان الله عليهم تلقانا هذه الملامح المتميزة • فعند حسان نجد رثائيته فى رسول الله ﷺ التى يقول فيها مستلهما معظم معانيه من المعجم الإسلامى :

بطيبة رسم للنبى ومعهد
منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولا تنمحى الآيات من دار حرمة
بها منبر الهادى الذى كان يصعد
وواضح آيات وباقى معالم
وربع له فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها
من الله نور يستضاء ويوقد
مفجعة قد شفها فقد أحمد
فظلت لآلاء الرسول تعدد
فبوركت يانور الرسول وبوركت
بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وهل عدلت يوما رزية هالك
رزية يوم مات فيه محمد
تقطع فيه منزل الوحى عنهم
وقد كان ذا نور يفور وينجد
عزيز عليه أن يجور عن الهدى
حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
وما فقد الماضون مثل محمد
ولا مثله حتى القيامة يفقد

نبى أتانا بعد يأس وفترة
من الرسل والأوثان فى الأرض تعبد

فأمسى سراجا مستنيرا وهاديا
يلوح كما لاح الصقيل المهند

وأنذرنا ناراً وبشر جنة
وعلمنا الإسلام فالله نحمد

تعاليت رب الناس عن قول من دعا
سواك إلها أنت أعلى وأمجد

لك الخلق والنعماء والأمر كله
فإياك نستهدى وإياك نعبد(٣٦)

فقد بدا حسان فيها صادق الانفعال واضحه فى حزنه على وفاة نبى الأمة عليه السلام ، فكانت هذه البكائية صوتا عاما شاع بين المسلمين ، وبدا فيه الشاعر محتسبا الأجر عند الله تعالى من هذا المنطلق الدينى ، فبدأ اللوحة بعرض جغرافى له قداسته من ذلك الرسم والمعهد الدينى بطيبة وما كان من منبر الهادى عليه السلام وصعوده عليه ، وما كان من المصلى ، والمسجد ، والحجرات التى عاش فيها النبى عليه السلام يتدارس القرآن ويتلقى دستور المسلمين ويلقنهم إياه ، فما كان لحسان أن يعرض الصورة إلا من خلال هذه المقومات الإسلامية التى رمز بها إلى العبادات وشعائر الدين ، يوم أن كان يقوم عليها رسول الله ﷺ ، ليبدأ فى البكاء على ما فقده المسلمون من ذلك النور الذى أرسله الله إليهم جميعا ، ولكنه استغرق فى نمط من التفجع الدينى الذى أسرع منه إلى طرح صيغ الدعاء الإسلامى وما تستكمل به اللوحة من دلالات إسلامية محضة من الدعاء بالبركة لنور الرسول ولبلاده ﷺ ، وحديثه عن منزل الوحى ، وأثره فى هداية المسلمين مستلهما معانيه من دلالات الآيات الكريمة

(٣٦) ديوان حسان : ٧٤

« يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا »[٣٧]
« واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم »[٣٨]
« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم »[٣٩] . « وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا »[٤٠] « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا »[٤١] .

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل »[٤٢] « إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا »[٤٣] « وأنذر عشيرتك الأقربين »[٤٤] ، « وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب »[٤٥] .

« لله الأمر من قبل ومن بعد »[٤٦] .

« إياك نعبد وإياك نستعين »[٤٧] .

« وما بكم من نعمة فمن الله »[٤٨] .

وهكذا ينتشر رصيد من معانى هذه الآيات بين أبيات الشاعر الذى حرص على انتقاء الألفاظ الجديدة التى تكشف عن القيم الإسلامية المستحدثة فى العصر ، ولم يكن للجاهلية بها عهد إلا فيما يتعلق بالأوثان وعبادتها فى الأرض ؛ أما بقية المعانى والقيم فقد طرحت من منطق الحس الغيبى والتسليم بالجنة والنار والقيامة .

---

(٣٧) سورة النساء ١٧٤
(٣٨) سورة الحجرات ٤٩
(٣٩) سورة التوبة ١٢٨
(٤٠) سورة الأحزاب ٤٦
(٤١) سورة الأحزاب ٣٣
(٤٢) سورة المائدة ٥
(٤٣) سورة العنكبوت ٢٩
(٤٤) سورة الشعراء ٢٦
(٤٥) سورة ابراهيم ١٤
(٤٦) سورة الروم ٣٠
(٤٧) سورة الفاتحة ٤
(٤٨) سورة النحل ٥٣

وكذا من المنطق العقائدى حول تعاليم الإسـلام والاعتراف بنعم الله تعالى وحمده عليها ، وكذا ما كان من أمر الوحى ونور الهدى إلى غير ذلك من المعانى الدينية التى عرضها حول العبادات فى مجمل الأبيات من الآيات ، الحرمة ، الهادى ، المنبر ، المصلى ، المسجد ، الحجرات ، نور الله ، الرسول ، النبى ، الرشيد ، الوحى ، الهدى ، الاستقامة ، الرسل ، الأوثان ، التوحيد ، العبادة ، الجنة ، النار ، الإسـلام ، الحمد ، تنزيه الخالق وعلو شأنه ، الاستعانة به ، وقصر العبادة على توحيده والاعتراف بنعمه وفضله ... فهل بقى شىء فى بقية الأبيات خارج هـذا المعجم الجديد ؟

ولعل « حسان » قد أدرك طابع المعجم وما أصبح فيه من القاسم المشترك الشائع بين شعراء العصر ، فلم يتورع أن يشترك مع كعب ابن زهير من قوله :

فأمسى سراجـا مستنيرا وهاديـا
يلوح كما لاح الصقيل المهنـد

مما يقترب من بيت كعب فى لاميته :

إن الرسـول لنور يستضاء به
مهند من سـيوف الله مسلول

وكذا فى حديثه عن عبادة الأوثان مما يكاد يشترك فيه مع كعب أيضـا فى قوله :

إلى الله لا العزى ولا اللات وحده
فتنجو إذا كان النجـاء وتسـلم

إذ يدور الحوار حول التوحيد النجاة والإسلام والتنفير من الأصنام وتذكر يوم الحساب ومشاهد الجنة والنار ، وإفلات المسلم من الجحيم الى الجنة استعانة بقول خليل الله عليه السلام كما ترويه الآية الكريمة « ولا تخزنى يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » .

لدى يوم لاينجو وليس بمفلت
من النار إلا طاهر القلب مسلم

وما شهده المدح والرثاء تكرر فى أحاديث الاعتذار التى عدد فيها شعراؤه ما يعرفونه من صفات الرسول عليه السلام ، ومن الإيمان بقدر الله تعالى على النحو الذى صوره كعب بن زهير حين جاء مسلما طالبا الأمان بين يدى رسول الله ﷺ ، فيعرض إيمانه بقدر الله تعالى :

فقلت خلوا سبيلى لا أبا لكم
فكل ما قدر الرحمن مفعول

ثم يعرض مبررات اطمئنانه بين يديه عليه السلام :

نبئت أن رسول الله أوعدنى
والعفو عند رسول الله مأمول

وهو اطمئنان لا يتعارض مع قوة رسول الله أيضا :

حتى وضعت يمينى لا أنازعه
فى كف ذى نقمات قيله القيل

فإذا بالشاعر ينطلق صراحة من إيمانه بقدره من ناحية ، وثقته فى الفضائل الإسلامية فى شخص رسول الله ﷺ من ناحية أخرى .

فالحقيقة التى لا تخفى إذن أن شعراء هذا العصر قد استلهموا كما هائلا من التأثيرات الإسلامية ، أفسحوا له مجالات متعددة فى

كل موضوعاتهم الشعرية تقريبا ، فلم تعرف محدودية ولاضيقا ، بل اتسعت مجالاتها وتنوعت مما كشف عن استيعاب الشعراء لقضايا التوحيد والعقيدة ، وقيامهم على العبادات واستكشافهم ما كان فيه الآباء ومن اتبع سلوكهم من ضلال وغى فكان الشعر آنذاك صدى لانتشار العقيدة والرغبة فى ترسيخها من جانب ، كما كان وسيلة لاستمرار الدعوة لهذا الانتشار من جانب آخر .

ومن الطرافة بمكان أن يجد المؤثر الإسلامى وسائله إلى الانتشار على ألسنة كل فئات الشعراء ، حتى من تخلف منهم عن الدخول فى الإسلام ، على نحو ما رأينا عند كعب بن زهير فى اعتذاره واعترافه بالعقيدة والرسالة ، وثنائه على الرسول عليه السلام ، وما كان من دعائه الدينى المرتبط بإيمانه :

مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ
قرآن فيه مواعيظ وتفصيل

وكذا ما صنعه فى تصوير أحداث الهجرة المقدسة فرارا بدين الإسلام ، وحرصا عليه :

فى فتية من قريش قال قائلهم
ببطن مكة لما أسلموا : زولوا

فإذا بأولئك الفتية يسلكون سلوكا إسلاميا لا يغرهم فيه انتصار، ولا يجزعون من هزيمة ، إيمانا منهم بقدر الله تعالى فى كل الأحوال :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم
قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

وعلى هذا المستوى أيضا ما كان من أبى سفيان بن الحارث الذى تمادى فى غيه فى جاهليته ، وأسرف فى هجائه رسول الله ﷺ وتعدى على دعوته ، حتى إذا ما دخل فى الإسلام اعتذر عما كان منه فى وثنيته ، ويقال أنه أنشد أبياتا فى فتح مكة قال فيها :

لعمـرك إنى يوم أحمل رايـة
لتغلب خيل اللات خيل محمـد
لكالمدلـج الحيران أظلم ليلـه
فهذا أوانى حين أهدى وأهتدى
هـدانى هاد غير نفسى ونالنى
مع الله من طردت كل مطـرد
أصـد وأنأى جاهـدا عن محمـد
وأدعى وإن لم أنتسب من محمد
هم ما هـم من لم يقل بهواهـم
وإن كان ذا رأى يلم ويفتـد
فقـل لثقيف لا أريـد قتالهـا
وقـل لثقيف تلك غيرى أو عـدى
فما كنت فى الجيش الذى نال عامرا
وما كان عن جرى لسـانى ولا يدى
قبـائل جاءت من بلاد بعيـدة
نزائع جاءت من سهام وسردد(٤٩)

ففى أبياته تقل ــ بشكل واضح ــ كثافة الحس الإسـلامى فى فترة بدا فيها الشـاعر حديث عهد بالإسلام بعد أن أسرف على نفسه فى معاداته وهجائه ، ولكنه تحول فى سلوكه عما عرف عليه قبل الفتح ، إذ يصور حيرته فى المـاضى فى مقابل رشده وهدايته التى يرددها فى حاضره ، مع ما عرضـه أيضا من طابع جهاده الدينى فى سبيل الله ودفاعه عن الرسـول عليه السـلام ، واعتزازه بأن ينتسب إليه متمنيا التنصل من كل ما نسب إليه فى ماضيه المظلم • مركزا مادته الشعرية حول محورين أساسيين : محمد ﷺ والهداية ، على ما كرره من ألفاظ حول كل منها بين خيل محمد ، وجهاده عن محمد ، وانتسـابه إلى محمد (وقد كان أخاه فى الرضاعة) ، ثم يهـدى

(٤٩) السيرة ابن هشام ٤/٤٠١

ويهتدى ، وهداه هاد من الله ، وفيما عدا المحورين تراه أمام حديث قبلى جاهلية مادته تماما .

ومما لا شك فيه أن كعبا أو أبا سفيان أو غيرهما من شعراء الجاهلية ممن دخلوا فى الإسلام لم يلجأوا إلى التملق أو التزلف بشكل يخل بقيمة الشعر لديهم أو يهدر مقياس الصدق الفنى أو الأخلاقى فى أشعارهم ، بل استطاع هؤلاء أن يتنكبوا سبلا جديدة قادهم صدق النوايا إلى سلوكها ، على نحو ما انتهى اليه الدكتور زكى المحاسنى فى قوله « كانت الشعراء عند العرب فى الجاهلية بمنزلة الأنبياء فى الأمم ، حتى خالطهم أهل الخضر ، فاكتسبوا بالشعر فنزلوا عن رتبتهم ، ثم جاء الإسلام ونزل القرآن بتهجين الشعر وتكذيبه ، فنزلوا رتبة أخرى ، ثم استعملوا الملق والتضرع فقلوا واستهان بهم الناس »(٥٠) .

وهو بذلك يسجل هبوط الشعر واندحاره بعيدا عن المؤثرات الإسلامية ، وقريبا من عالم التكسب والاحتراف ، ولعله يشير بذلك إلى جودة شعر من نظموا استنادا إلى المعجم الإسلامى احتسابا من مدرسة المدينة ، واعتمادا على معانيه وألفاظه التى زادت ذلك الشعر غنى وثراء ، وحافظت على نقاء دوافعه ، وصدق مادته ومبدعه .

وتزداد الصورة وضوحا واشراقا من جانب المؤثرات الإسلامية مع شعر الفتوح الإسلامية بصفة خاصة ، حيث توقف الشعراء فيه يتأملون الواقع الجديد الذى يدافعون عنه من منطق روحى محض ، لا منطق العصبية ، ولا شريعة الغزو والبطش الجاهلية ، فكانت صورة شعر الفتوح وليدا شرعيا للمعجم الإسلامى شكلا ومحتوى ، فإذا بالمقطوعة تسود ويزداد انتشارها لتبدو أكثر تلاؤما مع إيقاع حركة الجهاد الدينى وميادين الحروب ، ولم يكن ثمة ما يبرر الشاعر أن يتمسك بالتقاليد الفنية التى رسخها أسلافه ، فليس لديه وقت يقف

---

(٥٠) الأدب الدينى ٤٧ ، أنظر كتاب الزينة للرازى ١/٩٥

فيه باكيا طللا ، ولا متغزلا أو مصورا ظعينة ، أو غير ذلك مما لا يتسق مع طبيعة الواقع النفسى فى خروجه غازيا فى سبيل الله ، لا يريد دنيا ولا يسعى إلى غنيمة أو جاه ، بل قد يندفع إلى الموت اندفاعا آملا فى النصر ، أو السبق إلى الشهادة على النحو الذى رصده كعب للمهاجرين حين صورهم :

لا يقسع الطعن إلا فى نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل

وإذا بالشاعر المسلم يبدو شديد الاعتزاز بحسه الجديد من خلال تلك الدوافع الجديدة التى تدفعه إلى التقدم فى القتال ، دون خشية الموت ، على النحو الذى صوره قول كعب بن مالك فى يوم خيبر :

عظيم رماد القدر فى كل شتوة
ضروب بنصل المشرفى المهند
يرى القتل مدحا إن أصاب شهادة
من الله يرجوها وفوزا بأحمد
يذود ويحمى عن ذمار محمد
ويدفع عنه باللسان وباليد(٥١)

فالسلوك القتالى يبدو جديدا فى تصوير هؤلاء من منطلق الدوافع، والممارسة العملية لحركة الجهاد الدينى، وإذا بالاعترافات تتدو مطروحة من قبل المسلمين جميعا ؛ بفضل المدد الإلهى الذى يضمن لهم الانتصار على أعدائهم ، وإذا بالشعراء يقدمون على تسجيل هذه الحقائق المؤكدة ففى يوم بدر تتزاحم على الشاعر من المعجم صورة الملائكة ونصر المولى لرسوله ﷺ :

بنصر الله روح القدس فيها
وميكال فيا طول الملاء
أأخفرت النبى وكنت قدما
إلى السوءات تجرى بالعراء(٥٢)

---

(٥١) الأدب الدينى ٤٧ ، انظر كتاب الزينة للرازى ١/٩٥
(٥٢) ديوان كعب بن مالك ١٩٣

وإذا بالشاعر يستشعر قوة المسلمين من خلال قوة الرسول عليه السلام وأنصاره :

وفينا رسول الله نتبع أمره
إذا قال فينا القول لا نتطلع
تدلى عليه الروح من عند ربه
ينزل من جو السماء ويرفع
وقال رسول الله لما بدوا لنا
إذا ما اشتهوا أنا نطيع ونسمع
وقال رسول الله لما بدوا لنا
ذروا عنكم هول المقات وأطمعوا(٥٣)

إذ بدت لوحة السماء منظومة دينية محورها رسول الله ﷺ وأوامره وأقواله ووجوه بينهم ، وهم — أى المسلمون — له طائعون سامعون مجيبون اطمئنانا منهم إلى نصر الله سبحانه ومشاركة الملائكة لهم معاركهم مع أهل الشرك وأنصاره .

وكثيرة هى الأشعار التى أخذت هذا المنحى فى تصوير طبيعة خروج المسلم مجاهدا فى سبيل الله ، وكيف يحرص على طاعة رسول الله ﷺ مما بدا فيه الشعراء أيضا شديدى القرب من المعجم الإسلامى وكثيرى الإفادة من معانيه وأساليبه وصيغه .

ويستمر المعجم الإسلامى فى سيادته وسيطرته على الشعراء أيضا طيلة عصر الراشدين ، ولم يشهد تحولا خطيرا ، فما زال الراشدون يسيرون على نهج القدوة الحسنة التى التمسوها فى سلوك رسول الله عليه السلام بينهم فى حياته قولا وعملا ، كل ما هنالك أن مدائح الشعراء ورثائياتهم قد تحولت إلى خلفاء المسلمين أو أمراء المؤمنين ، فلمع شخص الخليفة فى قصيدة المدح أو الرثاء ، كرجل

---

(٥٣) ديوان كعب بن مالك ٢٢٤

دين من الطراز الأول ، حتى يتخلص الشاعر بذلك من عقدة الموروث الجاهلى الذى لم يعرف — بالطبع — شيئا عن الفضائل الإسلامية الجديدة ، ففى معركة الردة فى عهد الخليفة الأول رضى الله عنه يتجه الحارث بن مرة واعظا بنى عامر بمعان دينية رقيقة يطرح عليهم فيها الموقف من منظور إسلامى ، أساسه الاختيار وكأنه يقترب بذلك من استلهام الحس الإسلامى الذى رسخ قاعدة نشر الدعوة ، وكأن الحارث يأخذ دلالة ما يقول من معنى الآية الكريمة (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)[٥٤] ، حين ينظم قوله :

بنى عامر إن تنصروا الله تنصروا
وإن تنصبوا لله والدين تخذلوا

وان تهزموا لا ينجكم منه مهرب
وإن تثبتوا للقوم والله تقتلوا[٥٥]

ولعله أيضا مما رسخ فى ذهنه من المعانى القرآنية التى حفزتها الآيات الكريمة (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم[٥٦] وكذا قوله تعالى (إن ينصركم الله فلا غالب لكم)[٥٧] .

وأيضا من دلالة الآية الكريمة (وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه)[٥٨] ، وبذا بدا الشاعر المسلم حريصا على الصدور فى فنه عن اختيار دقيق للفظ ، لا يلقى فيه الصور إلا بقدر ما يدقق فى اختيارها وعرضها مهما قلنا بتلقائية الأداء عند معظم أبناء ذلك الجيل،

---

(٥٤) سورة الكهف ٢٩
(٥٥) الإصابة لابن حجر ٢/٥٥
(٥٦) سورة محمد ٧
(٥٧) سورة آل عمران ١٦٠
(٥٨) سورة التوبة ١١٨

فقد ظهر الاتساق واضحا بين الصورة والمواقف ، فإذا ما كان أحدهم — أى الشعراء — بازاء غضبه من موقف المرتدين — مثلا — راح يهددهم ، ويقصد إلى ردعهم وزجرهم ، فاستخرج من ذاكرته ما ترسب فيها من صور العقاب التى أصابت أمما بائدة ، حين تمردت على أنبيائها فأذاقها الله وبال أمرها ، وكان عقابه سبحانه وتعالى لهم على النحو الذى يتراءى فى كثير من الآيات والقصص القرآنى على نحو قول تعالى فى قصة عاد « فصب عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك لبالمرصاد »[٥٩] إذ يلتقط الشاعر هذا المعنى ودلالة هذه القصة حيث يقول أوس بن بجير الطائى فى المرتدين :

ألم تر أن الله لا رب غيره
يصب على الكفار سوط عذاب[٦٠]

وفى غير حروب الردة تتكرر هذه المشاهد الدينية اقتباسا من المعجم الإسلامى ، ففى فن الرثاء لا يتوقف حسان بن ثابت عند حدود دائرة الفضائل الموروثة حين يرثى أبا بكر ، بل راح ينقب فى هذا المعجم ليقتبس منه الجديد الذى حمده له القرآن الكريم ، فإذا بحسان يعرضه فى قوله راثيا :

الثانى الثانى المحمود سيرته
وأول الناس منهم صدق الرسلا
وثانى اثنين فى الغار المنيف وقد
طاف العدو به إذ صعد الجبلا
وكان حب رسول الله قد علموا
خير البرية لم يعدل به رجلا[٦١]

فقد التقط حسان لب المشهد الرثائى من وقائع التاريخ ، كما صورها القرآن الكريم فى قوله تعالى « إذ أخرجه الذين كفروا ثانى

---

(٥٩) سورة الفجر ١٤ (٦٠) الإصابة ٢/٥٥
(٦١) ديوان حسان ٢٩

اثنين إذ هما فى الغار ، إذ قال لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها »[٦٢] .

فهو يجعل من تلك الصحبة الشريفة أساسا لثنائه على أبى بكر الصديق رضى الله عنه ومبعثا لبكائه على فقده ، وهنا التقت لديه الفضائل الإسلامية حول منطق العقيدة ، وربطا بهذا السلوك الدينى القويم الذى جعله محمود السير طيبها ، فكان أول من صدق الرسول عليه الصلاة والسلام ، وترجم تصديقه بفعله حين خرج بصحبته مهاجرا ، فلم يعدل به رسول الله عليه الصلاة والسلام رجلا آخر من المسلمين فكان شديد القرب إلى نفسه ، شديد الحب له .

وهكذا انتشرت الملامح الإسلامية ، وبدا المعجم يشق طريقه إلى الانتشار والذيوع والسيادة على ألسنة الشعراء فى جل موضوعات الشعر ، وإذا بالتحول الأخلاقى يصيب الشاعر المسلم حتى إذا ما أدرك هجم خطئه راح يستعطف خليفة المسلمين ، ليتبع ذلك بتسجيل سلوكه الدينى على نحو ما تسجله خطوات الخطيئة ، منذ هجائه الزبرقان ابن بدر فى قصيدته المشهورة التى قال فى واحد من أبياتها :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى[٦٣]

فكانت شدة عمر رضى الله عنه فى مؤاخذة الحطيئة حتى حبسه ليستنقذ من لسانه أعراض المسلمين وهو ترجمة فعلية للسلوك الدينى للخليفة الذى راح يخشى أن تكسر ساق شاة بالعراق لأن يسأل عنها عمر ، فكيف بأعراض المسلمين أو إشعال نيران عصبيات جاهلية أطفأ جذوتها الإسلام ، ثم كان أن نظم الحطيئة فى سجنه أبياتا يستعطف الخليفة ، ويطلب منه العفو ، داعيا له دعاء إسلاميا يقول فيه شاكيا حاله وحال أولاده :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ
زغب الحواصل لا ماء ولا شجر

---

(٦٢) سورة التوبة ٤٠ (٦٣) ديوان الحطيئة ٢٨٤

القيت كاسبهم فى قعر مظلمة
فاغفر عليك سلام الله يا عمر

فإذا بعمر يعفو عنه بشرط ألا يعود إلى فعلته وبذلك اشترى منه أعراض المسلمين .

وبعدها يتقدم الشاعر فى سلوكه خطوات كثيرة نحو الإسلام الذى حسن أسلوب تعامله من خلاله ، فصاغ من حكمه الكثير على نحو قوله من المنظور الإسلامى المحض :

من يفعل الخير لم يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله و الناس[٦٥]

أو مثل قوله :

ألم آك مسكينا إلى الله مسلما
على رأسه أن يظلم الناس زاجره[٦٦]

ولا يكاد المظهر السلوكى يتوقف على الحياة العامة أو الفنية كما عاشها الحطيئة أو غيره من شعراء العصر ممن تورطوا فى مزالق سلوكية أنقذهم الإسلام من خطرها ، بل يزداد الموقف اتساعا وعمقا حين يتعلق بطابع الخروج للدفاع عن الدين ، وتبنى قضايا الدعوة ، الأمر الذى يكشف حقيقة الدوافع الجديدة التى حدت بالشعراء إلى الخروج مجاهدين فى سبيل الله ، بدلا من تلك الدنيا التى كان يسعى إليها الجاهلى بحثا عن الغنى على المستويين القبلى أو مستوى الصعلكة ، مما بلور منه جانبا قول عروة لزوجته :

ذرينى للغنى أسعى فإنى
رأيت الناس شرهم الفقير

---

(٦٤) ديوان الحطيئة : ٢٠٨ .
(٦٥) نفسه : ٢٨٤ .
(٦٦) نفسه : ٤٥ .

وأدناهم وأهونهم عليهم
وإن أمسى له حسب وخير
يباعده القريب وتزدريه
حليلته ويقهره الصغير
ويلقى ذو الغنى وله جلال
يكاد فؤاد لاقيه يطير
قليل ذنبه والذنب جم
ولكن للغنى رب غفور (٦٧)

فقد تهاوت مثل هذه الفلسفات فى تبرير الخروج وإباحة اللصوصية ، لتأخذ بعدا روحيا جديدا ، لا علاقة له بأبعاد الفقر و الغنى ، بل تظهر الصورة الجديدة مطبوعة بالطابع الدينى المحض الذى يرضى فيه الإنسان المجاهد بالخروج لقضاء الله وقدره ، لا يهمه ما فيه من حلاوة أو مرارة ، على النحو الذى رأيناه فى صورة النابغة الجعدى فى حواره مع امرأته وهو خارج إلى غزوح فارس :

يا ابنة عمى كتاب الله أخرجنى
طوعا وهل أمنعن الله ما فعلا

وكأن النابغة يتخلى بذلك عن معجم الجاهلية ، ليكون سابقا إلى معجم الإسلام فيلتقط منه أبعاد الموقف الدينى برؤية المجاهد المسلم :

« اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله » (٦٨) .

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم » (٦٩) .

وبهذا تقوى صورة الموقف الدينى لدى الشاعر فى المظهر القتالى وفى طبيعة الدوافع على السواء ، وتفسح أمامه المجالات على مستوى

(٦٧) الروائع من الشعر العربى : ٤٩٨ .
(٦٨) سورة المائدة : ٣٥ .
(٦٩) سورة البقرة : ٢١٦ .

كل الموضوعات الذاتى منها والغيرى جميعا ، وإذا بألوان إسلامية جديدة تتدفق حول تأصيل شرف الأحساب والأنساب ، وتؤكد رفعة الأصل والمكانة على النحو الذى عرضه أبو الأسود الدؤلى فى مقتل عثمان بن عفان حين ارتآه :

لقد علمت قريش حيث حلت
بأنك خيرها حسبا ودينا (٧٠)

وإذا بصورة جبريل عليه السلام ومدد الله سبحانه وتعالى للمسلمين ، وتأييدهم بنصره عن طريق ملائكته ، ما زال يسيطر على أذهان الشعراء المسلمين ، حتى أواخر عصر الراشدين ، فبعد واقعة « صفين » راح خزيمة الأسدى يصف جيش معاوية من نفس المحور الدينى فى قوله :

ثمانون ألفا دين عثمان دينهم
كتائب فيها جبرئيل يقودها (٧١)

ولم يعرف شاعر عصر صدر الإسلام — ولم يكد — توقفا عند حدود بعينها ، بل أراد أن يعرض من المعجم الجديد ما استطاع وما كمن فى وجدانه ، فإذا هو يتجاوز الموضوعات التقليدية التى اقترنت بالشعر الجاهلى ، بل ربما تجاوز أيضا ما صوره من فتوح إسلامية فى شعره لينفذ إلى موضوع جديد تماما يدلى فيه بدلوه ، وكأنه جند نفسه داعية للإسلام ومحاميا يدفع عنه خصومه ، ويوجه إليه قومه ، ويتصح شبابهم وشيوخهم من خلال رصيد المعانى والقيم الإسلامية التى بدا بعضها واضحا فى قول عبدة بن الطبيب :

أوصيكم بتقى الإله فإنه
يعطى الرغائب من يشاء ويمنع
وببر والدكم وطاعة أمره
إن الأبر من البنين الأطوع

(٧٠) الطبرى : ٤/١١٦ .

واعصـــوا الذى يزجى النمائم بينكم
منتصحا ذاك الســـمام المنقع [٧٢]

فلم يستمد هـــذه المعانى إلا من المعجم الإسلامى على مستوى السلوك العملى فى حياة المسلم من ضرورة تقوى الله فى سره وعلنه :

« واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون » [٧٣] .

وفى التسليم الكامل بتوزيع الله سبحانه لمقدرات البشر وأرزاقهم فى الحياة . « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشـــاء وتنزع الملك ممن تشـــاء وتعز من تشـــاء وتزل من تشـــاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير [٧٤] .

وما أمر به ســـبحانه من بر الوالدين وطاعتهما إلا فى معصيته « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » [٧٥] .

« ووصينا الإنســـان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن » [٧٦] .

وعصيان من يأتى بالغيبة والنميمة حتى يستكشف حقيقة الموقف « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاســـق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » [٧٧] .

ويبقى فى تعدد المواقف التى استعان فيها شـــعراء العصر بالمعجم الإسلامى مؤشر هام يدل على رسوخ الكثير من المعانى والقيم الجديدة فى نفوس فريق من الشـــعراء الذين تثقفوا المعجم الجاهلى ووعوه وصدروا عنه ، ولكن كثيرا من قيمه راحت تتزلزل ، وتفسح المجال لتلك الصيغ الجديدة التى تعد ترجمة لســـلوك جديد ، وتصـــوير لأبعاده الدينيـــة الجوهرية .

---

(٧١) الأغانى : ١٥/١٤٩ . (٧٢) ديوان المفضليات : ١٤٦.
(٧٣) سورة البقرة : ٢٠٣ . (٧٤) سورة آل عمران : ٢٦
(٧٥) سورة الاسراء : ٢٣ . (٧٦) سورة لقمان : ١٤ .
(٧٧) سورة الحجرات : ٦ .

كما يبقى لهذه المواقف دلالتها كرافد طيب ثر أثرى عقلية شعراء العصر ، ووجه سلوكهم إلى حيث وجهوا الناس ، مما يجعلنا نكتفى منه بذلك ، دون أن نطمح إلى التماس أبعاد فلسفية عميقة وراء الفكر الدينى فى تلك الفترة بالذات ، فما زال المعجم الاسلامى واردا بين أيدى الشعراء فى عصر النبوة ، ومازال رسول الله عليه الصلاة والسلام قائما على شئون المسلمين ، يشرح لهم معالم المعجم فى مجمله وتفصيله ، ويكشف لهم ما غمض عليهم منه . وبعد انتقاله عليه السلام إلى الرفيق الأعلى يسير الراشدون رضوان الله عليهم على سنته الشريفة ، فكانوا شديدى الحرص على سياة هذا المعجم دون مزاحمة من معان جاهلية ، ولا حتى سلوك جاهلى على نحو ما تبينا من موقف عمر من الحطيئة أو أبى محجن الثقفى أو موقف عثمان من ضابىء بن الحارث البرجمى . ومازال المسلمون جميعا شديدى التمسك بالعقيدة ومبادئها ، على ما اتسمت به من الوضوح والبساطة ، مما طبع شعر الشعراء بنفس الدرجة من الوضوح الذى دفعهم إلى التقرير أكثر من التصوير ، وتجنب التعقيد أو الغموض أو العمق الفلسفى الذى يمكن أن يغلف المعانى أمام جمهور المتلقين ، الأمر الذى نشهده بعد ذلك فى عصر بنى أمية حين تتعقد الأمور وتصطرع القوى فى عصور الثورات وانتشار أدب الاحتجاج . وبناء على هذه الرؤية الموجزة للمؤثر الإسلامى فى عصر النبوة والراشدين نستطيع رصد الملامح الكبرى التى سيطرت على هذا المعجم من خلال معالجة الشعراء له فى قصائدهم على مستويين :

الأول : ذلك المستوى الشكلى للقصيدة وهو ما لم يستوعب منه الكثير ، ولم يكن المعجم الإسلامى مطالباً بهذا التحول ، إذ يلاحظ أن كثيرا من المعانى والصور قد أهملت عمدا مع تدهور القيم الجاهلية ، ولعل الشعراء المسلمين قصدوا إلى ذلك قصدا لكى يتسقوا نفسيا مع الواقع الجديد ، ففى المواقف الغزلية نجد احترازا واضحا من الخوض فى معانى الفحش أو الغزل المكشوف الذى غصت به دواوين الجاهليين ، وفى مواقف الهجاء انسحبت لوحات الاقذاع والفحش

لتترك لشعراء المسلمين مجالا جديدا يعبرون فيه عن القيم الجديدة من خلال السلوك الذى يبدو فيه الشاعر المسلم قويا حين يرد هجوم خصمه ، دون أن يبدأ بالعدوان ؛ ومن خلال فنه الذى يتخفف فيه من السب واللعن إشباعا لروح المعقيدة التى رسخت فى أعماقه .

وتفى موازاة اختفاء هذه القيم وحلول قيم إسلامية جديدة يظل الشكل الجاهلى للقصيدة قادرا على استيعابها جميعا مع هذا التعديل أو ذلك التخفف من الحس القديم ، كما يبقى للشعراء ما أكثروا من نظمه من المقطوعات وقصار القصائد اتساقا مع سرعة إيقاع الحياة من ناحية ، ورغبة فى تصوير مواقفهم الجديدة من خلال شكل جديد من ناحية أخرى .

الثانى : ذلك المستوى الموضوعى للقصيدة ، والذى بدا أكثر مرونة أمام شعراء العصر ممن طوعوا الشكل الفنى ليستوعب كل ما أرادوه له من تلك الموضوعات ، فقد عدل بعضها على نحو ما حدث فى فن المدح والهجاء والرثاء والغزل ، وما ورد منها بعد ذلك بدا جديدا على نحو ما كان من حرص الشعراء على تصوير الفتوح الإسلامية ، والتأصيل لدوافع المسلمين إلى الخروج إليها ، حتى كاد شعرهم فيها يختلف تماما عن صورة القصيدة الجاهلية التى استوقفتنا أيام العرب فى الجاهلية ، فصورت شريعة الغزو الغاشمة دون ضوابط ولا قوانين على النحو الذى ظهرت فيه قصائد الجهاد الإسلامية مع حركة الفتوح بمقوماتها الجديدة .

كما يبقى لشعراء العصر أنهم لم يعبأوا كثيرا بالإطار الفنى للقصيدة وكأن الشاعر أصبح مشغولا — بالدرجة الأولى — بصياغة موقفه الدينى بشكل واضح ؛ يرضى فيه نفسه وجمهوره الجديد ، دون توقف حتمى عند القيم الموروثة . كل ما هنالك أن ثمة ولاء عجز شعراء العصر عن التخلص منه إزاء الموروث الجاهلى ، فسجلوا ذلك الولاء من خلال تمسكهم بالشكل الفنى فى كثير من الأحيان ، ولكنهم

تنكروا له فى محتوى القصائد حين أخذت منحى إسلاميا جديدا أزاح الأثر السلوكى الجاهلى المستهجن أمام ما استحسنه الإسلام ودعا إليه على نهجه .

وعلى هذا النحو استطاعت القصيدة لدى شعراء عصر صدر الإسلام أن تستوعب من القيم الاجتماعية والسلوكية الأخلاقية ما أضاف إليها المجديد ؛ وما كشف عن صدق الشعراء فيما أخذوه من ذلك المعجم بدقة ظهر فيها طابع الحرص والتمكن ، مع صدق الولاء للدين الإسلامى على النحو الذى رأيناه فى دعوة الشعراء لمبادىء الدين ، ومحاولة نشرها بين أقوامهم شبابا وشيوخا ، وما طبع به شعر الكثيرين منهم من طابع حكمى عام استمدوا معطياته ومقوماته مما ثقفوه من هذا المعجم الإسلامى مضافا إلى خلاصته احتكاكهم بالحياة واستخلاصهم للتجارب .

وضمن خلاصة الموقف هنا حول رؤية جوانب هذا المعجم الإسلامى لهذا العصر بالتحديد ، نستطيع أن نناقش طبيعة المؤثرات من خلال كثرتها وشيوعها التى يسقط معها ما انتهى إليه جرونباوم فى قوله « الخطوة الحاسمة فى رسالة النبى هى نقض الأساس الاجتماعى الذى قام عليه الشعر الجاهلى مما أدى إلى إضعاف الكثير من حوافز الشعر إن لم نقل إلى ازالتها جملة »(٧٨) .

فليس من الدقة بمكان أن يربط المستشرق بين ثورة الإسلام على الكيان الاجتماعى للجاهلية ، وبين موقفه من الشعر على هذا النحو ، فهو يعرض مقدمة طيبة تقود إلى نتيجة ليست من جنسها ، بل تحتاج إلى مراجعة ومعاودة نظر ، وإلا فأين موقف هذا القول من رصيد شعراء عصر الإسلام مما امتلأت به دواوينهم فى

---

(٧٨) جرونباوم : نشأة الشعر العربى وتطوره ، نشر فى كتاب (دراسات فى الأدب العربى ، ترجمة د. كمال اليازجى ، بيروت ص ١٤١ — ١٤٢) .

موضوعات الشعر المختلفة ؟ وأين هو من تلك الروايات الكثيرة الموثقة حول إثبات الرؤية الإيجابية في موقف الإسلام من الشعر كفن جمالي ؟ وكيف يستطيع الزعم بأن الإسلام قد أزال دوافع الشعر جملة ؟ وأين نضع — آنذاك — ذلك الرصيد الضخم من القيم المعدلة والجديدة التي تقبلتها القصيدة العربية ؟ وأين يذهب شعر الفتوح وشعر الدعوة الإسلامية أمام هذا القول الغريب ؟! من هنا يصح اتهام هذه الرؤية الاستشراقية بعدم الدقة أو الموضوعية طالما عجزت عن طرح إجابات حول هذه التساؤلات ، ذلك أن الأدلة على نقضها تبدو أكثر منها إقناعا ، فقد كشف التأثير الإسلامي — الذي عرضنا منه صورا — عن كثير من القيم السلبية التي وقف منها الإسلام موقفا عدائيا في مجتمع الجاهلية ، حتى سار هذا الهجوم في خط متواز مع تشجيع الإسلام للقيم الموجبة في الحياة ، وطرح المزيد منها مما يتناغم مع الفطرة البشرية في حالة من سلامتها وصحتها • ومن هنا كان تنفير الإسلام مما يتناقض مع تلك الفطرة القديمة على نحو ما كان من تحريم الخمر التي تذهب بملكة العقل وتعطل الوعي البشري الذي لا تكتمل إنسانية الإنسان إلا به ، وكذلك تعطيل العاطفة البشرية في أسمى مظاهرها في علاقة الأبوة والبنوة من خلال ما ارتكبه بعض الجاهليين من وأد البنات بلا ذنب ، وكذا ضياع الكثير من القيم الاجتماعية في خضم اللهو والعربدة التي شاعت في مجالس المنادمة والمياسرة •• أليس من حق الإسلام أن يوقف هذا التيار السلبي ليعدل القيم ويزلزلها ، ولينتقي أفضل ما فيها دون أن يعني هذا بالضرورة إيقاف حركة الشعر أو حتى نموها ؟!

من هنا بدا قول جرونباوم — وإلى مثله ذهب آخرون — مجافيا للموضوعية لأنه تناسى واقعية الأحداث التي تعلق بها شعراء العصر ، ومن خلالها أضافوا الكثير إلى قيم الفن ، وعندئذ كان المعجم الإسلامي الرافد الأول لهذه الإضافات على مستوى اللفظ والصورة • ويبقى غير مفهوم طبيعة ذلك الأذى المزعوم الذي انتهى إليه المستشرق ،

فكيف نوفق بين ما أكده من إيذاء الشعر ، وبين إكثار الشعراء من النظم والتجديد تبعا لما أفادوه من ذلك المعجم الإسلامى الجديد ، وأين هذا كله من قول جرونباوم عن رسالة محمد ﷺ وقد أصابت نمو الشعر الطبيعى بشديد الأذى فى قوله « ومع أننا لا نستطيع أن نتجاهل أن الشعر التقليدى كاد يستكمل شوطه عند ظهور النبى محمد ، فإنه يتعذر علينا أن نتغاضى عن القول بأن رسالته الدينية قد أصابت الشعر الطبيعى بشديد الأذى »[٧٩] . فمع تطرف هذا القول وبعده عن موضوعية الرؤية ، يكاد جرونباوم يزداد تشبثا بموقفه ، حين يعاود عرضه بشكل أكثر عمومية ليقول « وقف الدين سدا دون الإيمان بقدرة الإنسان على الخلق ، ومما أيده فى ذلك عجز الناس عن أن يميزوا على وجه اليقين بين الخلق الفنى والعقلى والخلق من العدم »[٨٠] .

وهو تصور لا تصاحبه دقة أيضا ، فليس من البساطة بمكان أن يعجز فصحاء الجاهلية وبلغاؤها عن تبين حقيقة الخلق حين يرتبط بالذات الإلهية ، وبين طبيعة الإبداع حين ترتبط بتعاملهم مع لغة لها سياقها الاجتماعى العام من خلال تملك المجتمع البشرى لها كوسيلة للتفاهم ، وصورة من صور التفاصح ، لبيان الفروق الفردية بين المبدع حين يتخذها أداة له فى إبداعه ، كل ما هنالك أن الإبداع الفنى من خلال اللغة ينتهى إلى ذلك السياق الخاص المتميز حين يأتى عليه الشاعر بإلهامه وطاقاته الخاصة أو على أكثر تقدير ربطوا الظاهرة بما تصوروه فى وادى عبقر وشياطين الشعر التى تساعدهم على الإبداع على نحو ما عكسه قول جبلة بن الأيهم مفاخراً بشيطانه على شياطين غيره من الشعراء :

---

(٧٩) نشأة الشعر العربى وتطوره ١٤١ .

(٨٠) الأسس الجمالية فى الأدب العربى ، ترجمة البحث فى كتاب جرونباوم ، دراسات فى الأدب العربى ، بيروت ١٩٥٩ م (ترجمة إحسان عباس) .

إنى وكل شـــاعر من البشر
شـــيطانه أنثى وشـــيطانى ذكر

وقد أعجز القرآن الكريم الناس عن الخلق بالمعنى الدينى وما أكثر الأدلة فيه على ذلك ، ولكنه لم يعجزهم عن خلق الشـــعر ، ولم يحرمه عليهم ، وإلا ورد فى ذلك نص صريح ، ولكنه ترك للشـــعراء مجالات النظم مشروطة بالقيم الجديدة التى تقترب بهم من درجات الإيمان أو ـــ على الأقل ـــ لا تتنافر معه ، على النحو الذى ســـجله الاستثناء فى الآية الكريمة « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »(٨١) • فهذه إذن صفات فريق حسن إيمانه وحسن شعره فى آن واحـــد •

ولا شك أن تلك الفئة هى التى أضافت الكثير من معالم المعجم الإسلامى إلى القصيدة الموروثة مما زادها ثراء وغنى واتساقا مع روح العصر وقيمه ، وقد استغل شـــعراؤها رخصة الإســـلام فى ضرورة فتح باب الاجتهاد أمام العقل البشرى ، بل تكررت دعوة هذا العقل إلى مزيد من التأمل فى الكون ، والتدبر فى مقوماته وإعجاز خلقه لتنتهى الدعوة إلى تعريف البشر بمصادر الخير والجمال فى مخلوقات الله ، فهل كان الفن الشـــعرى إلا ترجمة لجوانب من هذا الجمال فى صياغة جمالية ؟ وهل كان الشـــعراء يستمدون صورهم ومعطيات فنهم إلا من معطيات ذلك الواقع الذى كثر عنه حديث القرآن الكريم ؟ فلا شك أن الموقف ـــ بهذا الشكل ـــ يسقط طبيعة الهجـــوم على الإســـلام من خلال القول بأنه أوقف حركة الشـــعر ، إذ كان طبيعيا أن تتحول قيم الفن تبعا لتحول قيم الحياة ودستورها ، ولا ندرى لمـــاذا يحجر على الشـــعر أو الشـــعراء بالذات إمكانية تبنى القيم الرفيعة من الحق والخير والجمال ، مما لا يتنافى ـــ مطلقا ـــ مع

---

(٨١) سورة الشعراء : ٢٢٧ •

المواقف الوجدانية ، بقدر ما يؤكدها ، ولماذا يتردد التأكيد على أن الشعر لا ينبث الا في النكد والشر وكأنه رمز شيء من رموز السلوك البشرى ؟ .

ولعل الاقتراب من الحقيقة هنا يدفع إلى القول بأن الإسلام قد تعمق حياة العربى شاعرا كان أو غير شاعر ، مما ينفى أيضا ما سجله قول بروكلمان من نفس المنطق الهجومى « لم يؤثر الإسلام تأثيراً عميقا في شعراء العرب كما يريد النقاد أن يقنعونا بذلك ، فقد سلك شعراء العصر الأموى دون مبالاة مسالك أسلافهم الجاهليين »(٨٢) وكأن بروكلمان ينسى ـ بدوره ـ الدوافع التى تكشف عن طابع المبالاة لدى الفريق الذى يقصده من شعراء بنى أمية ، ممن راحوا يلبون مطالب الخليفة على الصعيد السياسى ، ويسهمون فى تنفيذ خططه من خلال استعادة العصبية القبلية لإتخاذ موقف مضاد لتدخل الموالى ، وازدياد نفوذهم فى الدولة ، بالإضافة إلى تيار العنف الذى سارت فيه الدولة لضمان تأديب الأحزاب السياسية المناوئة لها . وثمة فروق مؤكدة بين المؤثر الإسلامى فى عصر المبعث وبينه فى عصر بنى أمية حين تتعقد مشكلات العصر ويكثر فيه الجدل وتتعدد الصراعات وتكاد المصلحة السياسية العليا للخليفة تطغى على كل ما حولها ، فهو عصر إحياء للتراث الجاهلى لا يصح للمستشرق أن يتخذ منه شاهداً ، وإلا كان نتيجة لغير المقدمة التى طرحها هنا .

ويستمر بروكلمان فى تبنى نظرته عبر وقائع التاريخ وعصوره المختلفة فيمتد عنده النظر لينفى سيادة روح الإسلام إلا بعد ظهور العباسيين « وهذه الروح الإسلامية لم تقصر اتجاهها ـ حينئذ ـ على محاربة تهاون العرب الدينى فحسب ، بل قاومت كذلك طبيعة العصبية القومية نفسها ، فإن العباسيين قد استعانوا على العرب بالموالى وخصوصا بمن أسلم من أهل خراسان ، واعتمدت

---

(٨٢) تاريخ الأدب العربى ١/١٥٦ .

دولتهم على العجم ، وإن استقامت نخرة العرب فى خراسان ، وهكذا نما فى عهد العباسيين أدب إسلامى بلسان عربى »(٨٣) •

وكان بروكلمان بمقولته هذه يتجاهل حقائق كثيرة جداً منها ما كان من انتشار التيار الإسلامى وسيادته فى الشعر الأموى ، ومن قبله — بالطبع — فى شعر صدر الإسلام بأفضل مما شهده العصر العباسى ، وكأنه تناقض مع نفسه حين أغفل ما سجله من إعجابه بشاعرية كعب بن زهير ، وما قدره من مكانة بردته المشهورة فى مدح رسول الله ﷺ ، ثم ما سجله من فضل انتشار شعر حسان شاعر النبى فى الأزمنة المتأخرة من بعده ؛ وما برر به ذلك من غرضه العظيم الأهمية وهو مدح النبى ﷺ •

ومع هذه التناقضات ينتاسى بروكلمان أيضا ما كان من أمر الزندقة فى العصر العباسى على مستوى الانتشار واشيوع إلى درجة الفساد الأخلاقى والدينى بشكل راح يمثل خطرا على شباب العصر • أضف إليها انتشار فلسفة الإرجاء وإباحة الفوضى السلوكية والانحلال الأخلاقى والمجاهرة بالآثام مما لا يساير روح الإسلام ، ولم يشهد العصر إلا قلة من الزهاد قبعوا فى المساجد يصوغون فلسفة للزهد الإسلامى ، ولا أظن المستشرق يضع هؤلاء الزهاد فى اعتباره وهو بصدد طرح مقولته الغريبة •

وصفوة الرؤية هنا أن طبيعة الشعر فى عصر صدر الإسلام أو ما تلاه من عصر الأمويين أو العباسيين إنما تكشف عن حقيقة هامة مؤداها أن المعجم الإسلامى بدا قويا وشديد التأثير والانتشار فى نفوس الشعراء ، ومن ثم فى شعرهم ، فلم نشهد له خفوتا ولا انسحابا إلا حين ينتكس الشاعر عقائديا ليتخلى عن أى من مقومات إسلامه فيبدو — حينذاك — قبيح المشهد فى البيئة ، ليدور فى عالم الزندقة أو الإلحاد • وباستثناء هذه المواقف تتأكد الحقيقة

---

(٨٣) تاريخ الأدب العربى ٣/١٥٦ •

ومعها يزداد حجم المؤثرات الإسلامية وضوحا وبروزا ، مما قد تكشفه الجوانب التالية من هذه الدراسة ، ومما تسجله تلك الرواية التى أوردها ابن رشيق وأسند القول فيها إلى ابن عباس رضى الله عنهما • إذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب فإن الشعر ديوان العرب • وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعراء »(٨٤) •

وبذا تنتفى شبهة إيقاف الإسلام لحركة الشعر منذ عصره الأول : بل استمرت حركته المتجددة التى تقبلت ملامح تجديدية أضافت إليه بما يحوله من شعر جاهلى إلى شعر إسلامى يواكب طبائع الأحداث المتميزة من الدعوة إلى الإسلام ، أو الوعظ والارشاد ، أو الزهد والتقشف ، أو الحكمة ، أو تصوير الغزوات الإسلامية الكبرى ، أو الفتوح الإسلامية ، على ما يفرضه الحدث الجديد من تجديد حتمى فى هذا المعجم الذى رأينا منه شواهد عابرة تشير إلى سيادة الظاهرة بما يكفى للاطمئنان إلى رصدها من خلال مادة العصر ونصوص شعره »(٨٥) •

* * *

(٨٤) العمدة ١/٣٠ •

(٨٥) تراجع دراسات العصر الإسلامى للدكتور شوقى ضيف ، تاريخ الشعر الاسلامى للدكتور يوسف خليف ، الشعراء المخضرمون — للدكتور يحيى الجبورى ، شعراء إسلاميون للدكتور نورى القيسى ، الشعراء المخضرمون للدكتور عبد الحليم حفنى •

الفصل الثانى

فى عصر بنى أمية

١ ـ التنوع والتجديد .
٢ ـ المعجم وسياسة العصر .
٣ ـ مصادر المادة .
٤ ـ خصائص المعجم

تعددت الأحزاب المناوئة للخلافة الأموية ، حيث راح كل حزب يطرح نظريته السياسية التى تبدو بالضرورة معادية لبنى أمية على نحو ما صنع الزبيريون والخوارج والشيعة ، ومن ثم تبينت ضرورة استعانة الدولة بشعرائها للدفاع عن كيانها وتأكيد شرعيتها ، وإفحام خصومها من شعراء تلك الأحزاب السياسية ، وبذا أصبح من أغلى ممتلكات شاعر الخلافة ، وكذلك شعراء الأحزاب المعارضة ، تلك المعانى والقيم الدينية التى يصدر عنها فى كل منهم زيادة فى الإقناع بقضيته واطمئنانا إلى انتصاره لها ، وتفنيد أدلة خصمه ، وضمان تغلغل شعره فى نفوس المسلمين من الرعيـــة .

ذلك أن المجتمع مسلم ، وفيه يبدو التعبير بالإخلال بالقيم الدينية أمرا موجعا إلى حد كبير ، على عكس ما كان من شعراء صدر الإسلام من مشركى مكة ، ممن بدا تأثرهم واهيا بتلك القيم حتى إذا تم فتح مكة ودخلوا الإسلام ظهر تألمهم كلما تذكروها ويبقى أن نتبين انتشار فن الهجاء أو « النقيضة » الأموية بين الشعراء لتزجية الفراغ وقطع الطريق على الجمهور من المشاركات السياسية ويتحول الفن الهجائى إلى مباريات لسانية فنية يفتعلها فحول العصر ، وكل منهم يحتاج إلى مبررات الفخر والهجاء من أمجاد لقومه ومثالب لقوم خصمه ، الأمر الذى جعلهم يتخذون من القيم الدينية صورة أو عنصرا من عناصر هذا الفخر ، أو التعيير والهجاء ، عن طريق إثباتها لأنفسهم ، أو سلبها أو نفيها عن خصومهم .

وعلى هـذا النحو اتجهت الحياة الأموية على تنوع موضوعات شعرها إلى الترحيب بالتيار الإســـلامى ، تسليما من الشعراء بضرورة تناوله فى الفن الشعرى ، وشيوعه فيه وسيطرته عليه ، باعتباره واحداً من جداول الثقافة الأموية ، تغلغل فى عقول الشـــعراء ، فانعكست

مواقفهم من ذلك التيار الذى استوعبوه ووعوه ونموه ، حتى رصدوا لفتهم معجما إسلاميا يستقون منه الصور والمعانى على غرار شعراء الجيل السابق من ناحية ، وعلى نحو يتسق مع طبيعة الحياة السياسية والدينية الجديدة من ناحية أخرى ، إذ يكفى أن نشير إلى أسماء الفرق لندرك حجم هذه الحاجة إلى المعجم الدينى ، فلدينا شعراء للخلافة كحزب سياسى وشعراء الزبيريين فى الحجاز ، وآخرون للشيعة التى تمركزت فى الكوفة ، ثم غيرهم للخوارج الذين استقروا فى البصرة ، على التعداد الداخلى للفروع المكونة لكل حزب على حدة ، وكذا كانت الفرق الدينية من الجبرية إلى القدرية إلى المرجئة إلى المعتزلة وجميعها فرضت على الشعراء ضربا من التخصص الفنى فى شعره السياسى الذى يدعمه بالمعانى الدينية تأكيدا لحجته ، وكذا ضربا من الإلتزام الذى يدين فيه الشاعر بالولاء لفرقته فى مقابل نيله من الأحزاب الأخرى[1] .

ومن الأفضل أن نعرض ملامح هذا المعجم قبل إصدار الأحكام أو استخلاص الملامح المميزة له وهو ما يأتى نتيجة التأمل والتعرف على طبيعته ، وما أصابه من تطور أو تحول يفصل بينه وبين المعجم الإسلامى لدى شعراء عصر صدر الإسلام بحكم تحول الحياة نفسها على المستويات السياسية والحضارية والفكرية .

وبدت معانى الآيات القرآنية معينا مشتركا أمام الشعراء يتيارون فى الإفادة منه ، ومنها وردت مؤثرات كثيرة ازدحمت بها أبيات الشعر ، ويرتد بعضها الى دلالات بعض الآيات القرآنية دون تضمينها الصريح فى شعرهم بنصها ، إذ راح الشاعر يكتفى بمعنى الآية إلى حيث يزيد من مداولها على نحو ما نجده فى قول الفرزدق :

---

(١) تراجع دراسات الشعر الأموى فى : شعر الفرق للنعمان القاضى ، وأدب السياسة للدكتور الحوفى ، التطور والتجديد للدكتور شوقى ضيف ، فى الأدب الإسلامى والأموى للدكتور عبد القادر القط والقصيدة الأموية للمؤلف .

تلقت به في ليلة كان فضلها
على الليل ألفا من شهور مقدرا[٢]

أو في قول جرير أيضا في بيت له :

فما أحصنته بالصعود لمالك
ولا ولدته أمه ليلة القدر[٣]

إذ يبدو التأثر واضحا في كلا الموقفين بقوله تعالى :

« ليلة القدر خير من ألف شهر »[٤] .

وكذا يرد في قول الفرزدق في مشهد حربي يرسمه لخصوم الخلافة :

كأن على ذير الجماجم منهم
حصائد أو أعجاز نخل تقعرا[٥]

إذ يبدو تأثره واضحا بقول الله تعالى « تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر »[٦] .

ثم يأتي قول الفرزدق أيضا :

بشهباء لم تشرب نفاقا قلوبهم
شآمية تتلو الكتاب المنشرا[٧]

حيث يبدو تأثره بالآية الكريمة « والطور ، وكتاب مسطور . في رق منشور »[٨] .

أو قوله تعالى « ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا »[٩] .

---

(٢) ديوان الفرزدق ١/٢٤٢ (٣) ديوان جرير ١/٤٢٥
(٤) سورة القدر ٣ (٥) ديوان الفرزدق ١/٢٤٢
(٦) سورة القمر ٢٠ (٧) ديوان الفرزدق ١/٢٤٣
(٨) سورة الطور ٣ (٩) سورة الإسراء ١٣

إلى جانب تناوله لفكرة النفاق وكيف أشربتها قلوبهم على لغة القرآن في الهجوم على المنافقين .

ويتردد أيضا في قول جميل :

ففا تبنى إلى حكم من أهلي
وأهلك لا يحيف ولا يميل[١٠]

يستوحي المعنى بصورة غير مباشرة من الآية الكريمة « وإن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما »[١١] .

وعلى غرار هذه البساطة يأتي قول جرير :

فما يستوى داعي الضلالة والهدى
ولا حجة الخصمين حق وباطل[١٢]

حيث يبدو تأثره بالحس الإسلامي العام وبقوله تعالى « وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور »[١٣]

وعلى نفس النهج قال مالك بن الريب مصورا حاله بين صعلوك ثم مجاهد إسلامي :

ألم ترني بعت الضلالة بالهدى
وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا[١٤]

متأثرا في ذلك بالآية الكريمة وقد أخذ عكس الدلالة حين استعمل البيع بدلا من الشراء من قوله تعالى « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة »[١٥] .

---

(١٠) ديوان جميل ١٠٠ (١١) سورة النساء ٣٥
(١٢) ديوان جرير ١/٤٠٣ (١٣) سورة فاطر ١٩
(١٤) شعراء أمويون ١/٤٢ (١٥) سورة البقرة ١٧٥

ومن أشباه هذه المؤثرات أيضا ما تطرحه الصورة التى رسمها ابن قيس الرقيات شاعر عبد الله ومصعب والمحزب الزبيرى فى قوله :

أيها المستخل لحمى كله من ورائى ومن وراك الحساب[١٦]

حيث يأخذ الصورة من قوله تعالى « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه »[١٧] .

كما يقول ابن قيس أيضا :

هل ترى من مخلد غير أن اللـ ـه يبقى وتذهب الأشياء[١٨]

من قوله تعالى « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام »[١٩] .

وكأن الموقف يبدو قاسما مشتركا بين الشعراء فى زخام التنوع البيئى بين شعراء الشام وشعراء العراق ، وكذا شعراء الحجاز بين المدن والبوادى إلى جانب هذا التعدد المذهبى سواء على المستوى السياسى أو الدينى ، وإذا بالفرزدق أيضا يعكس بعدا آخر لهذا التأثر فى الصياغة فى قوله :

ولست بمأخوذ بلهو تقوله
إذا لم تعمد عاقدات العزائم[٢٠]

من معنى الآية الكريمة « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان[٢١] .

وهو ما يتردد له نظير أيضا فى قوله وقد استوحى مادته من مشاهد القيامة :

---

(١٦) ديوان ابن قيس ١٨٦ (١٧) سورة الحجرات ١٢
(١٨) نفسه ٨٨ (١٩) سورة الرحمن ٢٦/٢٧
(٢٠) ديوان الفرزدق ٢/٣٠٧ (٢١) سورة البقرة ٢٢٥

بقـوته الله الذى هـو بـاعث
عبادا له من خلقـه حين نشرا
عضائب كانت فى القبور فبعثرت
وعادا ترابا خلقه حين قدرا[٢٢]

من قوله تعالى « أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور »[٢٣] .

أو قوله تعالى : « وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخـرت »[٢٤]

أو قوله تعالى عن النشور « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور »[٢٥] .

وفى صورة من فخره القرشى والحزبى معا يقول ابن قيس الرقيات:

ليس للـه حـرمة مثـل بيت
نحن حجـابه علينا المـلاء
خصـه الله بالكـرامة فالبسـا
دون والعاكفـون فيـه سـواء

من قوله الله تعالى « والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد »[٢٧] . ومن ذلك التأثر قول جرير وإن بدا أقرب إلى غير المباشرة :

ماذا ترى فى عيال قد برمت بهم
لم تحص عدتهم إلا بعـداد
كانوا ثمـانين أو زادوا ثمانيـة
لولا رجاؤك قد قتلت أولادى[٢٨]

---

(٢٢) ديوان الفرزدق ١/٥٨٤ .
(٢٣) سورة العاديات ٩ .
(٢٤) سورة الانفطار ٤ .
(٢٥) سورة الملك ١٥ .
(٢٦) ديوان ابن قيس ٩٥ .
(٢٧) سورة الحج ٢٥ .
(٢٨) ديوان جرير ٢/٤٥ .

فهو تأثر غير مباشر بالصياغة القرانية « وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا »[٢٩] • وفي قوله تعالى « ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا »[٣٠] • وفي قول ابن قيس ما يوحي بالتأثر حتى بالإيقاع الصوتي لبعض الآيات من مثل قوله :

جزى الله يوم المرج رعلا وقنفذا
جزاء كريما يوم تبلى البواطن[٣١]

إذ يستلهم الصياغة من إيقاع الآية الكريمة « يوم تبلى السرائر »[٣٢] وكذا ترد الصورة التي رسمها قول جرير :

مازلت معتصما بحبل منكم
من حل نجوتكم بأسباب نجا[٣٣]

إذ يستمدها من الصورة التي رسمتها الآية الكريمة « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » • فإذا قال الفرزدق عن أعداء ممدوحه :

رجوا من حرها أن يستريحوا
وقد كان الحديد لهم شرابا[٣٤]

وجدته يتأثر بالآية الكريمة « من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد »[٣٥] وهو ما يزداد لديه انتشارا على مستوى اللوحة الفنية التي رسمها قوله :

إني حلفت ولم أحلف على فند
فضاء بيت من الساعين معمور
في غرفة الجنة العليا التي جعلت
لهم هناك ببعي كان مشكور

---

(٢٩) سورة الجن ٢٤ •
(٣٠) ديوان ابن قيس ١٠٦ •
(٣١) سورة الكهف ٢٥ •
(٣٢) ديوان جرير ١/٣٤٤ •
(٣٣) سورة الطارق ٧ •
(٣٤) ديوان الفرزدق ١/١٠٤
(٣٥) سورة إبراهيم ١٦ •

قلن تزال لكم والله أثبتهـــا
فيكم إلى نفخة الرحمن فى الصور[٣٦]

إذ يستمد للصورة أركانها وزواياها من الآيات :

« والبيت المعمور ، والسقف المرفوع »[٣٧] ، وكذا من قوله تعالى :

« إن هـذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا »[٣٨] وقوله تعالى : « قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور »[٣٩] .

هـذا إلى جانب تأثره الواضح بالمشاهد الدينية إزاء الأيمان الصادقة وغيرها ، أو مشهد السعين فى البيت المعمور كشعيرة دينية إلى مشاهد القيامة التى استوقفه منها نفخة الصور ، وغرف الجنة العليا التى أعدت المؤمنين .

ويقول الفرزدق أيضا على منتوى الأبيات المتناثرة :

ورواح مختلفة وغدوتهـــا
شهرا تواصله إلى شهر[٤٠]

متأثرا بمعنى الآية الكريمة « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر »[٤١] .

كما يقول :

قد خنقت تسعين أو كربت
تدنو لآخر أرذل العمر[٤٢]

---

(٣٦) ديوان الفرزدق ١/٢١٤ .
(٣٧) سورة الطور ٤ . (٣٨) سورة الإنسان ٢٢
(٣٩) سورة الأنعام ٧٣ .
(٤٠) ديوان الفرزدق ١/٢٦١ .
(٤١) سورة سبأ ١٢ . (٤٢) ديوان الفرزدق ٢٦٦ .

متأثرا بدلالة الآية الكريمة : « ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا »(٤٣) .

ومن ذلك قوله فى أكثر من مشهد معا وكلها مرتبطة بقداسة الخلافة كما روج لها شعراؤها :

إذا يثورون أفواجا كأنهم
جراد ريح من الأجداث منتشر
لو لم يبشر به عيسى وبينه
كنت النبى الذى يدعو إلى النور (٤٤)

إذ يستعرض الصورة التى رسمتها الآية الكريمة فى تصوير مشاهد القيامة « يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر »(٤٥) وكذا فى قوله تعالى «وهو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور »(٤٦) إلى جانب حسه الدينى للعام فى حديثه عن بشارة عيسى عليه السلام ، وبيان محمد ﷺ وفصاحته وما جاء به عن الفرقان الهادى إلى النور . ويدخل فى هذا الإطار أيضا ما رسمه الأحوص فى قوله من أبيات غزلية ينعكس فيها حسه الإسلامى :

كأنى من هواك أخو فراش
تجلجل نفسه بين التراقى
حلفت لك الغداة فصدقينى
برب البيت والسبع الطباق
لأنت إلى الفؤاد أشد حبا
من الصادى إلى الكأس الدهاق(٤٧)

---

(٤٣) سورة الحج ٥ .
(٤٤) المفرزدق ١/٢١٤ .
(٤٥) سورة القمر ٧ .
(٤٦) سورة الحديد ٩ .
(٤٧) ديوان الأحوص ١٦٤ .

فهو يجمع أشتات الصورة مما استلهمه من دلالة الآيات « كلا إذا بلغت التراقى »[٤٨] ومن قوله تعالى « إن للمتقين مفازا ، حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وكأسا دهاقا »[٤٩] والآية الكريمة « ألم تر كيف خلق الله سبع سموات طباقا »[٥٠] إلى جانب فهمه الدينى لرب البيت •

وبذا يبدو من هذا الركام العشوائى المتناثر فى دواوين الشعراء كيف رحبوا بالمصدر الأول من المصادر الإسلامية ، وتنافسوا فى الإفادة مما ورد فى الآيات الكريمة ، بشكل غير مباشر أو مباشر أحيانا ، ذلك أننا لا نتحدث عن التضمين عندهم ، بل نكتفى هنا بمجرد التأثر الذى يكشف عن صدق الآية الكريمة فى ذهن الشاعر ، وهو أمر طبعى لقرب هؤلاء الشعراء من القرآن من ناحية فهو امتداد للعصر الأول ، ولأن العصر عصر تدوين يدعو إلى تأملهم ما يدور فى علوم التفسير وما دون منها من ناحية أخرى • ومع بقية المؤثرات بصورة أكثر منهجية وتوزيعا يمكن أن نستكمل هذا الحوار •

فقد بدا للقصص الدينى رصيد ضخم من التأثير فى شعراء هذا العصر ، وكأنهم راحوا يتبارون فى الإفادة منه ، على نحو ما نجد من تأثير قصة نوح عليه السلام فى لوحات كاملة للشعراء على غرار ما يقوله القطامى :

نرجو البقاء وما من أمة خلقت
إلا ستهلكها ما أهلك الأمما
أما سمعت بأن الريح مرسلة
فى الدهر كانت هلاك الحى من إرم
وقوم نوح وقد كانوا يقول لهم
ياقوم لا تعبدوا الأوثان والصنما

---

(٤٨) سورة القيامة ٢٥ • (٤٩) سورة النبأ ٣٤ ؛
(٥٠) سورة نوح ١٥ •

فكذبوا من دعا للخير واجتنبوا
ما قال وامتلأت آذانهم صمما
فلا هم رهبوا ما قد أظلهم
ولا نبيهم عمي ولا كتما (٥١)

إذ يشكل لوحته من مادة القصص القرآنى من الأمم القديمة وصور هلاكها ودلالة هذا الهلاك على عصيانها ، وسبل من هذا الهلاك على طريقة دمار إرم ذات العماد عن طريق الريح المرسلة تعكس غضب الخالق عليهم ، أو ما كان من مكابرة قوم نوح وقد دعاهم فعموا وصموا وتجنبوا الخير الذى جاءهم به فحق عليهم انتقام ربهم سبحانه منهم .

وفى لوحة ثانية للقطامى يقول متأثرا بنفس القصة فى معرض الإنذار والوعظ :

فما من جدة إلا ستبلى
ويبقى بعد جدتها الحبار
وأنذركم مصائر قوم نوح
وكانت أمة فيها انتشار
وكان يسبح الرحمن شكرا ،
وللـه المحامد والوقار
فلما أن أراد الله أمرا
مضى والمشركون لهم جوار
ونادى صاحب التنور نوحا
وصب عليهم منه الوبار
وضجوا عن مجيئته إليهم
ولا ينجى من القدر الحذار

(٥١) ديوان القطامى ١٠٠ .

وجاش الماء منهمرا إليهم
كأن غثاءه خرق نشار
وعامت وهى قاصدة بإذن
ولولا الله جار بها الجودى
إلى الجودى حتى صار حجرا
وحان لتالك الغمر الخسار
فهذا فيه موعظة وحكم
ولكنى امرؤ فى افتخار (٥٢)

وهنا يأخذ التأثر بالمعجم القصصى القرآنى أبعاداً أكثر تفصيلا وعمقا إذ عكف الشاعر على جوانب من القصة يحكيها ويوظفها فى أبياته التى ختمها بصراحة موعظته وحكمه بعد أن قدم بحكمة أخرى تطابقها ، وبين الحكمتين الأولى والأخيرة يلتقط من مشاهد القصة ما كان من إنذار نوح عليه السلام لقومه وتسبيحه لربه شكرا وحمدا ، ورفض قومه لدعوته وقد ضجوا منه وضاقوا به ، حتى جاءهم الطوفان عقابا من ربهم ، ولم يكن لهم منه نجاة ولا حذر إلا من عصم الله ، فكانت نجاة نوح ومن معه فى سفينته وقد استوت على الجودى وسارت باسم الله مجريها ومرساها .

وعلى نفس المستوى من القياس للمواقف التأثيرية صور الفرزدق خصمه من خلال ما صوره موقف ابن نوح قائلا :

فلما عتا الجحاد حين طغى به
غنى قال : إنى مرتق فى السلالم
فكان كما قال لابن نوح سأرتقى
إلى جبل من خشية الماء عاصم (٥٣)

---

(٥٢) ديوان القطامى ١٤٣ .
(٥٣) ديوان الفرزدق ٢/٣٠٩

وكأنما استوقفه وجه الشبه المحدد بين عصيان الجحاد وبين عصيان ابن نوح لأبيـــه .

ومن ذلك أيضا قول جرير :

لو تعلمين الذى نلقى أويت لنـــا
أو تسـمعين إلى ذى العرش شكوانا
كصاحب الموج إذ مالت ســـفينته
يدعـــو إلى الله إسرارا وإعلانا
يا أيها الراكب المزجى مطيتـــه
بلغ تحيتنـــا لقيت حمـــلانا (٥٤)

ومن مثله قوله أيضا :

ومسـلم جرار الجيوش إلى الغدا
كما قاد أصحاب السـفينه نوح
يداك يد تسقى السـمام عدونا
وأخرى بريات السحاب تفوح (٥٥)

فمن الواضح من لقاء هـذه الشواهد أن القصص الدينى أصبح قاســما مشتركا يتعاوره شـعراء العصر حيث راحوا ينهلون منه فى الصياغة الجمالية لقصائدهم ، ومن القصة القرآنية أفادوا من توظيفها فى موطن العظة والاعتبار ، أو من التماس التشـابه بين المواقف فى عصرهم وبين أحداث هـذا القصص الدينى ، ولذا بدت الإفاضة واضحة فى تفاصيل القصة ــ أحيانا ــ من قبيل تأكيد تلك العظة ، وبعث الاطمئنان إلى مواضع الاعتبار منها ، وإن كان يلاحظ ــ أيضا ــ أنها تنمو نموا تفصيليا تعرضه القصة الدينية ، على نحو ما ظهر فى حوارهم حـول مقدماتها من السـفينة ، وصاحبها ، وابنـه ،

(٥٤) ديوان جرير ١/٣٠١ .
(٥٥) ديوان جرير ٢/٣٨٨ .

وقومه ، ثم شغلهم من أمر السفينة ذاتها : كيف صنعها ، وكيف سارت وكيف مالت ، كما سيطر عليهم من صورته كنبى كيف تبنى دعوة قومه إلى التوحيد ، وكيف عصوه ورفضوها ، وكيف استمر فى دعوته لعبادة الرحمن ، وهم ينكسون عن تلك العبادة ، ويتحدون صاحب الرسالة ويخذلونه ، ومما زاده حزنا وأسفا من صورة ابنه وعصيانه ، وكيف تصور إمكانية النجاة بصعوده إلى الجبل ، وهى عناصر صاغتها القصة القرآنية فى كثير من الآيات الكريمة من مثل قول الله سبحانه وتعالى : « وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين »(٥٦) .

« وقوم نوح من قبل انهم كانوا أظلم وأطغى »(٥٧) .

١ ــ فهؤلاء قوم نوح وهذه صفاتهم كما رصدها القرآن الكريم والتقطها منه الشعراء ، وهم يدخلون فى زمرتهم أمثالهم من الأقوام والأمم :

« مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم »(٥٨) .

٢ ــ وها هو نوح عليه السلام منذ اصطفاه الله واختاره للرسالة إلى موقفه من قومه :

« إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين »(٥٩) .

« ولقد رسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله »(٦٠) .

« ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين »(٦١) .

---

(٥٦) سورة الذاريات / ٤٦ .
(٥٧) سورة النجم ٥٢
(٥٨) سورة غافر ٣١
(٥٩) سورة آل عمران / ٣٣
(٦٠) سورة الأعراف ٥٩
(٦١) سورة هود ٢٥

« ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما »[٦٢] .

« وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن »[٦٣] .

« قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا »[٦٤] .

« قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين »[٦٥] .

« وقال نوح إنهم عصونى »[٦٦] .

« وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا »[٦٧] .

٣ — وها هو مشهد السفينة ، وموقفه من ابنه وقومه ، وصورة الطوفان ، وكيف نجا عليه السلام ومن آمن معه :

« ولقد نادانا نوح فلنعلم المجيبون »[٦٨] .

« فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا »[٦٩] .

« فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله »[٧٠] .

« ويصنع الفلك وكلما مر عليه قوم سخروا منه »[٧١] .

« ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا »[٧٢] .

« ونادى نوح ابنه يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين »[٧٣] .

« ونادى نوح ربه فقال ربى إن ابنى من أهلى ، قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح »[٧٤] .

---

(٦٢) سورة العنكبوت / ١٤
(٦٣) سورة هود ٣٦
(٦٤) سورة هود ٣٢
(٦٥) سورة الشعراء / ١١٦
(٦٦) سورة نوح ٢١
(٦٧) سورة نوح ٢٦
(٦٨) سورة الصافات ٧٥
(٦٩) سورة المؤمنون ٢٧
(٧١) سورة هود ٣٨
(٧١) سورة هود ٤٢
(٧٠) سورة المؤمنون ٢٨
(٧٢) سورة الإسراء ٣
(٧٤) سورة هود ٤٥ ، ٤٦

« قال سآوى إلى جبل يعصمنى من المـاء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم »[٧٥] .

« قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك »[٧٦] .

« فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون »[٧٧] .

٤ ــ ومن واقع القصة بهذا التعدد فى المشاهد وعلى النحو من الاقتباس والإفادة لدى الشعراء كان موضوع العظة والاعتبار مرصودا ومستخلصا منها فى بعض آيات القرآن الكريم ذاتها :

« كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود »[٧٨] .

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده »[٧٩] .

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك »[٨٠] .

« وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية »[٨١] .

وقد يغلب عليه الإطالة والتفصيل فى رسم اللوحة من خـلال القصص الدينى الذى يتخذه أساسا لعرض موقفه الفنى على نحو ما اصطنعه الفرزدق فى قصيدته الميمية المشهورة حول مجائه إبليس ، وتصوير صراعه معه حتى انتصر عليه ، حين بدا تائبا عن فسقه ومجونه فراح يقول له سـاخرا متهكما :

ألم ترنى عاهـدت ربى وأننى
لبـين رتاج قائـم ومقـام
على قسم لا أشتم الدهر مسلما
ولا خارجا من فى سـوء كلام

---

(٧٥) سورة هود ٤٣
(٧٦) سورة هود ٤٨
(٧٧) سورة الشعراء ١١٩
(٧٨) سورة ق ١٢
(٧٩) سورة النساء ١٦٣
(٨٠) سورة الشورى ١٣
(٨١) سورة الفرقان ٣٧

ألم ترنى والشعر أصبح بيننا
ذروء من الإسلام ذات حوام

وبعد استعراضه هذا الموقف يعقد الموازنة قبل التوبة وبعدها فى بيتين متواليين :

أطعتك يا إبليس سبعين حجة
فلما انتهى شيبى وتم تمامى
فررت إلى ربي وأيقنت أننى
ملاق لأيام المنون حمامى

وكأنه يتخذ من هذا كله مدخلا يتجاوز قصته هو نفسه معه على مدار سبعين عاما من عمره ، ليؤكد القرائن من خلال قصص دينى يؤكد مقولته حول إضلال البشر من لدن آدم عليه السلام ، وهنا يتناول ما كان من قصة بدء الخليفة وصراع ابليس مع آدم حتى وسوس له فأساء إليه :

وآدم قد أخرجته وهو ساكن
وزوجته ، من خير دار مقام
وأقسمت يا إبليس أنك ناصح
له ولها ، إقسام غير إثام

وهو بذلك يزداد ضيقا به وبوسوسته التى يرفضها مرارا كلما تذكر بعضا من قصصه ، فإذا هو يردف قصته مع آدم عليه السلام قائلا :

وما أنت يا إبليس بالمرء أبتغى
رضاه ، ولا يقتادنى بزمام
فكم من قرون قد أطاعوك أصبحوا
أحاديث كانوا فى ظلام غمام

صدق الله العظيم فى كل آياته ، فمنها برزت القصة متكاملة

الأطراف واضحة المعالم ، الأمر الذى اندفع إليه الشعراء — كما رأينا — فى كثير من مواقفهم الفنية ، وكرروا رجوعهم إليها فى مصدرها ، فأخذوا منها ما أخذوه فى مواطن اللحظة والاعتبار أو عرضوا منها ما عرضوه وجها للشبه من خلال قضية العصيان ، أو الجزاء الذى حل بالقوم •

ولعل مجال القصص الدينى بدأ من أوسع المجالات أمام الشعراء ، ومعه تعددت الصور واللوحات الفنية ، ودأب بعضهم على البحث والتقصى وراء هذا القصص حتى يستمد منه صوره ، فمن قصة إبليس أيضا ظهر تأثر الشعراء ، وبدا الموقف عندهم موزعا بين الإيجاز والتفصيل ، وكأن إبليس يصبح رابطا مشتركا لكثير من قصص الأقوام التى عصت الرسل أو رفضت الدين وكابرت ، وحول رصيد من هذه الأبيات قد اتضح الموقف يزداد جلاء من خلال الفرزدق أيضا على سبيل الإيجاز :

وقد كنت ضرابا لها يا ابن يوسف
جماجم من عادى الإمام وشيعا
إلى الغى إبليس النفاق وأوضعا
جماجم قوم ناكثين جرى لهم

كما يرد له أيضا فى دائرة الإيجاز قوله :

لقد ضرب الحجاج ضربة حازم
كيا جند إبليس لها وتضعضعوا
أضاء لها ما بين شرق ومغرب
بنور مضىء والأسنة شرع
وخرت شياطين البلاد كأنها
مخافة أخرى فى الأزمة خضع(٨٧)

---

(٨٢) ديوان الفرزدق ١/٣٩٩ •
(٨٣) ديوان الفرزدق ١/٤١٧ •

بل يتمنى لو استطاع أن ينتقم لنفسه منه ، وأن يجزيه من سوءات ما أحله به من قبل :

سأجزيك من سوءات ما كنت سقتنى
إليـــه جروحا فيـــك ذات كلام

وإلى جانب قصة آدم ينتقل إلى قصته مع أهل الحجر فى موقفهم من ناقة صالح وما كان من قدار حين عقر ناقة نبى الله صالح عليه الســـلام وقد أمروا أن يتركوها فعصوا أمر ربهم :

ألم تأت أهل الحجر والحجر أهله
بأنعـــم عيش فى بيوت رخـــام
فقلت : اعقروا هذى اللقوح فانهـــا
لكم ، أو تنيخوها لقوح غـــرام
فلمـــا أناخوها تبرأت منهـــم
وكنت نكوصـــا عنـــد كل ذمام

وكأنه راح يجمع أشتاتا من القصص الدينى الذى يجمعه سلوك إبليس بين إيقاع فريسته فى شرك الخديعة ثم تنكره لهوفراره منه ، وهو ما صوره فى مشهد آخر من نفس القصيدة حين جعل فرعون أخا له وقد صور غرقه وجيشـــه فى البحر الأحمر فيقول :

يبشرنـــى أن لن أمـــوت وأنـــه
ســـيخلدنى فى جنـــة وســـلام
فقلت له : هلا أخيك أخرجت
يمينك من خضر البحور طوام
رميت به فى اليم لمـــا رأيـــته
كفـــرقة طودى يذبـــل وشـــمام
فلمـــا تلاقى فوقه الموج طاميا
نكصت ، ولم تحتل له بمرام

وحين يريد الخلاص إلى العبرة وموضع الاعتبار يعمم مشـــهد الخديعة الذى تكرر فى المشـــاهد :

وبذلك بدا القصص القرآنى مصدر أخذ لدى شعراء العصر ، يستمدون من جزئياته المختلفة حوارهم وصورهم ، ويزيدون فى تفاصيلها أو يوجزون فيها على نحو ما رأينا فى موقفى الفرزدق . ومازال الشعراء يدورون حول ذلك القصص فيستخدمون تأثيرات مكررة من قصة يوسف عليه السلام ، مما نجد له صدى عند جرير فى مدحه أيوب بن سليمان بن عبد الملك حيث يقول :

اللـه أعطـاكم من علمـه بكـم
حكما وما بعـد حكم الله تعقيب
أنت الخليفـة للرحمـن يعـرفه
أهـل الزبور وفى التوراة مكتـوب
كونوا كيوسف لمـا جاء إخوته
واستعرفوا ، قال : ما فى اليوم تثريب
اللـه فضـله واللـه وفقـه
توفيق يوسف إذ وصاه يعقوب(٨٤)

فهو يستمد من القصة القرآنية وصية يعقوب ، وكيف كانت مكانة يوسف عليه السلام وقد اجتباه ربه ، وكيف عفا من إخوته حين أتوه وتعرفوا عليه ، كما تأثر بحلم الملك وفكرة السبع العجاف فى قوله :

وأنت لا تورد بالأجـواف
غير ثمانى أينق عجاف (٨٥)

فلا شك أن كل هذه العناصر التى عكف عليها استمدها مما أوردته آيات القرآن الكريم :

« إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ، قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا »(٨٦) .

---

(٨٤) ديوان جرير ١/٣٤٩ . (٨٥) ديوان جرير ٢/٧٣٣ .
(٨٦) سورة يوسف ٤ ـ ٥ .

«وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث»[٨٧] .

« يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف »[٨٨] .

« وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء »[٨٩] .

« وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون »[٩٠] .

« ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه »[٩١] .

« قالوا أإنك لأنت يوسف ، قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا »[٩٢] .

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه »[٩٣] .

« قال : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم »[٩٤] .

على أننا لا نزعم فى رصد هذا المعجم القصصى أن الشاعر قد التزم بكل عناصر القصة التى استوقفته . فمن الواضح هنا أنه أقام تأثره بها على الاختيار ، إذ يختار من عناصر القصة ما يبدو متسقا مع موضوعه ، ومع ما يمكن أن يطرحه فيما يرمى إليه من تأكيد الموقف التقريرى فى العظة والاعتبار ، أو التصويرى فى المدح أو فى الهجاء أيضا ، إذ أفسح الشاعر لنفسه مجالا لطرح بعض ما أفاده من القصص القرآنى اتساقا مع المواقف المتعددة ، كما حدث فى موقفه من قصة السامرى على نحو من قول جرير :

يا آل بارق لو تقدم ناصح
للبارقى فإنه مغرور

---

(٨٧) سورة يوسف ٢١ .
(٨٨) سورة يوسف ٤٦ .
(٨٩) سورة يوسف ٥٦ .
(٩٠) سورة يوسف ٥٨ .
(٩١) سورة يوسف ٦٩ .
(٩٢) سورة يوسف ٩٠ .
(٩٣) سورة يوسف ٩٩ .
(٩٤) سورة يوسف ٩٢ .

كالسامرى غداة ضل بقومه
والعجل يعكف حوله ويخور [٩٥]

ويبدو أنه لم تشغله من قصة السامرى إلا دلالتها على ذلك الضلال الذى ردده حتى جعله مثلا وموضعا للاعتبار :

ولما دعوت العنبرى ببلدة
إلى غير ماء لا قريب ولا أهل
ضلات ضلال السامرى وقومه
دعاهم فظلوا عاكفين على عجل [٩٦]

فهو يستوحى معانيه مما ورد من آيات قرآنية حول قصة السامرى من مثل قوله تعالى :

« واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار » [٩٧] .

« فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار » [٩٨] .

« قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ » [٩٩] .

« إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم » [١٠٠] .

« ثم اتخذتم العجل من بعده وأنت ظالمون » [١٠١] .

« ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل » [١٠٢] .

« قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم » [١٠٣] .

« قال فإنا فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى » [١٠٤] .

---

(٩٥) ديوان جرير ١/٢٦٦
(٩٦) ديوان جرير ٢/٩٥٢ .
(٩٧) سورة الأعراف ١٤٨ .
(٩٨) سورة طه ٨٨ .
(٩٩) سورة هود ٦٩ .
(١٠٠) سورة الأعراف ١٥٢ .
(١٠١) سورة البقرة ٩٢ .
(١٠٢) سورة البقرة ٥٤ .
(١٠٣) سورة البقرة ٩٣ .
(١٠٤) سورة طه ٨٥ .

وغالبا ما يستهدف الشاعر من القصص الدينى الاعتبار والعظة كما رأينا فى كثير من الشواهد السابقة ، ولذا بدا من حق الشاعر أن يجمع كما من هذا القصص فى فنه ، فهو لا يحكى قصة بعينها ، ولا يقف عند التأصيل لعناصرها وموادها الفنية ، ولكنه يأخذ ما يتراءى له من هذا وذاك حسب طبيعة المواقف ، طالما كان هدفه منها الاستشهاد على ما يقول وتوكيده ، وكذلك راح الفرزدق يجمع فى مدح سليمان بن عبد الملك بين كثير من قصص الرسل فى قوله :

جعلت لأهل الأرض أمنا ورحمة
وبرءاً لآثار القروح الكوالم

كما بعث الله النبى محمدا
على فترة والناس مثل البهائم

فلما عتا الجحاد حين طغى به
غنى قال : إنى مرتق فى السلام

فكان كما قال ابن نوح سأرتقى
إلى جبل من خشية الماء عاصم

رمى الله فى جثمانه مثل ما رمى
عن القبلة البيضاء ذات المحارم

جنودا تسوق الخيل حتى أعادها
هباء وكانوا مطرخمى الطراخم

نصرت كنصر البيت إذ ساق فيله
إليه عظيم المشركين الأعاجم (١٠٥)

فهو يستغل رصيدا دينيا من قصص القرآن الكريم سجلته الآيات فى سور مختلفة حول قصة أهل الفيل وقصة ابن نوح ثم بعثة رسول الله ﷺ :

---

(١٠٥) ديوان الفرزدق ٣/ب٣٠ .

« يا أهل الكتـــاب قد جاءكم رســـولنا يبين لكم على فترة من الرســـل »(١٠٦) .

«قال سأوى إلى جبل يعصمنى من المـــاء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم »(١٠٧) .

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من ســـجيل ، فجعلهم كعصف مأكول »(١٠٨) .

ويبقى عند جرير أيضا رصيد بارز من تأثره بقصص الأنبياء التى سجلها فى أبيات متوالية ، على النهج السابق للفرزدق على غرار ما يقوله فى قصيدته فى مدح ابن أحور المـــازنى ، حيث يذكر أبناء اسماعيل مفتخرا من خلالهم :

أبونا أبو إسحاق يجمع بيننـــا
أب كان مهـــديا نبيـــا مطهـــرا
ومنا سليمان النبى الذى دعـــا
فأعطى بنيـــانا وملكـــا مســـخرا
وموسى وعيسى والذى خر ســـاجدا
فأنبت زرعاً دمع عينيـــه أخضرا
ويعقـــوب منا زاده اللـــه رفعـــة
وكان ابن يعقـــوب أميناً مصـــورا
فجمعنـــا والغر أبنـــاء ســـارة
أب لا نبالى بعـــده من تغـــدرا
أبونا خليـــل اللـــه واللـــه ربنـــا
رضينا بما أعطى الإله وقـــدرا

---

(١٠٦) سورة هود ٤٣ .
(١٠٧) سورة المـــائدة ١٩ .
(١٠٨) سورة الفيل .

بنى قبلة اللـــه التى يهتدى بهـــا
فأورثنا عزا وملكـــا معمـــرا (١٠٩)

فهو يعتمد على ذلك السرد المتدفق الذى يستعرض من خلاله قصص الأنبياء فى معرض عراقة الأنساب وشرفها من لدن إبراهيم أبى الأنبيـــاء عليـــه وعليهم الســـلام ، إلى إســـحاق ، وسليمان ، ويعقوب ، وموسى ، وعيسى ويوسف عليهم الســـلام ، كما يشير إلى الكعبـــة التى بناها إبرهيم وإســـماعيل عليهما الســـلام لتكون للناس قبلة طهورا ، وهو يستمد هـــذا كله من الآيات القرآنية حول قصص هؤلاء الأنبياء أيضا :

« واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا »(١١٠) .

« ووهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا »(١١١) .

« واذكر فى الكتـــاب موسى إنه كان مخلصا وكان رســـولا نبيـــا »(١١٢) .

« وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم »(١١٣) .

« ووهبنا له إســـحاق ويعقـــوب وجعلنـــا فى ذريته النبـــوة والكتـــاب »(١١٤) .

« وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل »(١١٥) .

« وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والعاكفين والركع الســـجود »(١١٦) .

---

(١٠٩) ديوان جرير ١/٤٧٣
(١١٠) سورة مريم ٤١ .
(١١١) سورة مريم ٤٩ .
(١١٢) سورة مريم ٥١ .
(١١٣) سورة آل عمران ٨٤
(١١٤) سورة العنكبوت ٢٧
(١١٥) سورة البقرة ١٢٧ .
(١١٦) سورة الحج ٢٦ .

«وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان »[117] .

« وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس »[118] .

« فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب »[119] .

وربما اكتفى الشعراء باللمح السريع والإشارة الخاطفة إلى القصة القرآنية ، مما نجد منه صورا عند جرير حين يعرض للإفادة من قصة هود عليه السلام ، أو قصة سليمان وداود عليهما السلام في قوله في قصائد له مختلفة :

رأى الحجاج عافية ونحوا
على رغم المنافق والحسود
دعا أهل العراق دعاء هود
وقد ضلوا ضلالة قوم هود[120]

كما يشير إلى قصة داود عليه السلام في قوله :

في آل يربوع يلاقي المصدقا
ونسج داوود علينا حلقا[121]

ومن ذلك قول الفرزدق :

ورثت أباك الملك تجري بسمته
كذلك خوط النبع ينبت في الأصل

---

(١١٧) سورة النساء ١٦٣ .
(١١٨) سورة البقرة ٨٧ .
(١١٩) سورة ص ٤٥ .
(١٢٠) ديوان جرير ٢/٧٢٧ .
(١٢١) ديوان جرير ٢/٧٩٣ .

كداوود إذ ولى سليمان بعـده
خلافته نحلا من الله ذى الفضل[١٢٢]

فكلاهما يفيد من الآيات القرآنية التى وردت حول هذا القصص الدينى « ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود »[١٢٣] ، « ولقد آتينا سليمان وداوود علما »[١٢٤] ، « وورث سليمان داوود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير »[١٢٥] .

ويأتى ضمن ما ردده الشعراء على ذلك النحو من سرعة الأداء والإستشهاد ما أنشده الفرزدق متأثرا بقصة آدم عليه السلام فى غير قصة إبليس السابقة ، فى قوله :

وكانت جنتى فخرجت منهـا
كآدم حين لج به الضرار[١٢٦]

من قوله تعالى « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة »[١٢٧] ، « يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة »[١٢٨] .

ومن قبيل هـذا التأثر السريع أيضا قول جرير من قصة ثمود ، وهو بصدد هجاء الفرزدق :

وشبهت نفسك أشقى ثمود
فقالوا ضللت ولم تهتدد

---

(١٢٢) ديوان الفرزدق ٢/١٤٥ قوله ورثت أباك الملك : أراد ورثت عن أبيك الملك . السمت : القصد . الخوط : الغصن . النبع : ضرب من الشجر .

(١٢٣) سورة هود ٦٠ . (١٢٤) سورة النمل ١٥ .
(١٢٥) سورة النمل ١٦ . (١٢٦) ديوان الفرزدق ١/٩٤.
(١٢٧) سورة البقرة / ٣٥ . (١٢٨) سورة الأعراف ٢٧.

وقد أجاوا حين حل العذاب
ثلاث ليال إلى الموعد [١٢٩]

وكذا قوله .

ونبئت أشقى جعفر هاج شقوة
عليها كما أشقى ثمود مبيرها

يصيحون يستسقونه حين أنضجت
عليهم من الشعرى التراب حرورها [١٣٠]

ومن قصة ثمود أيضا راح الفرزدق ينسج قوله :

إن نحن لم نمنع بطاعتنا
والحب للمهدى والشكر
غدت علينا فى منازلنا
رسل العذاب برغوة البكر
أشقى ثمود حين ولهه
عن أمه المشئوم بالعقر
لما رغا همدوا كأنهم
هابى رماد مؤثف القدر [١٣١]

وقد رصدنا من قبل الآيات التى أفاد منها هنا « فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام »[١٣٢] ، « فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر »[١٣٣] . وكذلك الحال فى الموقف من قصة يونس عليه السلام ، إذ يقول الفرزدق :

---

(١٢٩) ديوان جرير ٢/٨٤٢ (١٣٠) ديوان جرير ١/٣٦٩
(١٣١) ديوان الفرزدق ١/٢٦٣ . رغوة البكر : أى بكر ناقة صالح إذ رغا على قوم ثمود فأهلكوا . أشقى ثمود : هو الذى عقر الناقة .
(١٣٢) سورة هود / ٦٥ . (١٣٣) سورة القمر ٢٩ .

دعوت الذى ناداه يونس بعـد ما
نوى فى ثلاث مظلمات ففرجا [١٣٤]

فهو يستوحى المعنى من الآية الكريمة « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعـد خلق فى ظلمات ثلاث »[١٣٥] أو من القصـة القرآنية « وذا النون إذ ذهب مغاضـبا فظن أن لن نقدر عليـه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين »[١٣٦] ومن قصـة يوسف عليه السـلام أيضا الإشارة السريعة عند الفرزدق من خلال صفح يوسف عن إخوته ، كما رأينا من قبل ، إذ يتكرر التأثر فى معرض المدح بفعـل الأمر الذى يخفف من حدته هنا الاسـتعانة بالقصص القرآنى :

كن مثل يوسف لمـا كاد إخوته
سل الضغائن حتى ماتت الحقـد [١٣٧]

ومن قصة ثمود أيضا تراه يردد على نحو من السرعة :

فصاروا كمن قد كان خالف قبلهـم
ومن قبلهم عاد عصت وثمـودها [١٣٨]

وقـوله :

الجار بكم عن دينه كل ناكث
كما الأمم الأولى أبيرت ثمودها[١٣٩]

---

(١٣٤) ديوان الفرزدق ١/١١٣ .
(١٣٥) سورة الزمر ٦ .
(١٣٦) سورة الأنبياء ١٧ .
(١٣٧) ديوان الفرزدق ١/٣٩ .
(١٣٨) نفسـه ١/١٧١ .
(١٣٩) نفسـه ١/١٥١ .

وقوله أيضـــا :

وكـــان لهـــم كبكر ثمـــود لمـــا
رغا ظهراً فدمرهـــم دمارا[١٤٠]

ومن قصة داوود عليه الســـلام أيضا يستمد الفرزدق فى قوله :

فأنت أحق الناس بالعـــدل والتقى
وأنت ترى الأرض الحيا وظهورها
فأصبحتما فينا كداوود وابنـــــه
على سنة يهدى بها من يسيرها[١٤١]

وكذلك فى قوله :

بنيت الذى أحيا سليمان وابنـــه
وداوود والجن الذى كان ســـخرا
فأصـــبح جسرا خالـــدا ويدكـــه
إذا دك عن يأجوج ردما فنشرا[١٤٢]

وقـــوله :

ومن ســـمك الســـماء له فقامت
وســـخر لابن داوود الشـــمالا[١٤٣]

إذ يتضح تأثره المباشر بالآيات « وســـخرنا مع داود الجبـــال يسبحن والطير »[١٤٤] ومن قوله تعالى أيضا : « فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب »[١٤٥] والآية الكريمة « قال عفريت من

---

(١٤٠) الفرزدق ١/٣٥٠ .
(١٤١) نفســـه ١/٣٤٧ .
(١٤٢) نفســـه ١/٣٤٨ .
(١٤٣) نفســـه ١/٧٠
(١٤٤) نفســـه ١/٧٩ .
(١٤٥) سورة ص ٣٦ .

الجن أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك »[١٤٦] ، وهكذا تطرد الظاهرة ، ومن خلالها يبدو كبار شعراء العصر أشد حرصا على الاستقصاء ، والتعرض لأطراف شتى من هذا القصص القرآنى ، فمن قصة قوم « تبع » أيضا يستمد الفرزدق قوله :

على ابنك وابن الأم إذ أدركتهما
المنايا وقد أفنين عادا وتبعا[١٤٧]

وقوله :

ليدرك مسعاه الكرام ولم يكن
ليدركها حتى يكلم تبعا [١٤٨]

فهو يتأثر بما أوردته الآيات « وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد »[١٤٩] ، « أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم »[١٥٠] .

ومن قصة ذي القرنين أيضا يعرض قوله :

أتيت بني المشرقي تحسب عزهم
على عهد ذي القرنين كان تضعضعا[١٥١]

وقوله :

على عهد ذى القرنين كانت سيوفهم
عمائم هامات الملوك البطارق [١٥٢]

---

(١٤٩) سورة ق ١٤ .
(١٤٧) ديوان الفرزدق ١/٤٠٣ .
(١٤٨) نفسه ١/٣٩٧ .
(١٥٠) سورة الدخان ٣٧ .
(١٥١) ديوان الفرزدق ١/٤٠١ .
(١٥٢) نفسه ١/٥١ .

ولعله يتأثر فى ذلك بالآيات الكريمة « ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا ، إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شيء سببا »(١٥٣) ، ومن قوله تعالى « قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا »(١٥٤) •

ومن قصة نوح عليه السلام تبدو الإشارة الموجزة عند الفرزدق أيضا فى قوله :

ومن نجى من الغمرات نوحا
وأرسى فى مواضعها الجبالا (١٥٥)

وقد رأينا تفاصيل القصة كما عرضها القرآن الكريم بنص الآيات وهو يبدو واضح التأثر هنا بنتيجتها من قوله تعالى « فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين »(١٥٦) •

وعلى هذا النحو بدا القصص القرآنى مصدر ثراء لفن الشعر لدى شعراء بنى أمية ، ووجدوا فيه مجالا فى مجالات عديدة لم يقتصر فيها على حديث المدح ، بل ورد أيضا فى أحاديث الهجاء الأمر الذى يدل على جودة استيعاب الشعراء لهذا القصص من ناحية من ناحية ، وحرصهم على الصدور عنه فى كل موضوعات شعرهم من ناحية أخرى •

وتظل المعالجة الفنية من خلال القصص الدينى واضحة الدلالة على طبيعة الاستقراء كما قام به الشعراء لكل القصص القرآنى تقريبا ، ولعلهم وجدوا من فسحة الوقت والنظم المتأنى الهادىء مما لم يتهيأ للجيل السابق ، ولعلهم — من ناحية أخرى — أفادوا من تدوين

---

(١٥٣) سورة الكهف ٨٣ — ٨٤ •
(١٥٤) سورة الكهف ٨٦ — ٨٤ •
(١٥٥) ديوان الفرزدق ١/٧٠ •
(١٥٦) سورة العنكبوت ١٥ •

القرآن الكريم ، وقد اطمأن المسلمون إلى كل آية فيه ولم يعد ثمة حرج فى أن يستمد منه الشاعر ، خاصة أن علوم التفسير قد أخذت من المادة القرآنية مصدرا لها تعالجه ، وتدور حوله .

فإذا أضفنا إلى هذه المواقف أن الفرق الكلامية قد بدأت حوارها وجدلها حول قضايا دينية ، تبين لنا أن هؤلاء الشعراء قد حرصوا على ألا يتخلفوا عن تلك الثقافات ، بل راحوا ينهلون منها ، ولكنهم آثروا الرجوع الى مصادرها الأولى من القرآن الكريم ، فكانت المؤثرات أقرب إلى النص المقدس منها إلى ما يدور حوله من تفسير أو عرض تاريخى ، ولنا مع هذا الموقف بقية حوار بعد استكمال جزئيات المعجم الإسلامى الذى أفاد منه شعراء العصر من خلال صور أخرى متعددة ازدحمت فيها بعض الأبيات بعديد من المصطلحات ، والمسميات الاسلامية ، التى تأتى — بدورها — وليدة المعجم الدينى ولا علاقة لها بجاهلية الأداء التى رأينا الشعراء يحرصون عليها فى العصر باعتباره عصر إحياء للعصبية الجاهلية وأحساب العرب وأيامهم وقد راح بعض الشعراء يستقى بعض مصطلحاته من واقع حسه الدينى فحسب ، على نحو ما نجد فى بعض نماذج من شعرهم ، إذ يتحدث الفرزدق عن الإسلام والإلحاد قائلا لممدوحه وهو يقرن الإسلام بالمصحف :

أبرت زحوف المسلمين وكدتهم
بمستنصر يتلو كتاب المصاحف (١٥٧)

وقول جرير عن الإلحاد :

دعوت الملحدين أبا خبيب
جماحا هل شفيت من الجماح (١٥٨)

وقول الفرزدق عن الإسلام والأذان :

رأوا جبلا دق الجبال إذا التقت
رؤوس كبيرهن ينتظمان

---

(١٥٧) ديوان الفرزدق ٢/١٥ .
(١٥٨) ديوان جرير ١/٤٩٠ .

رجالا عن الإسلام إذ جاء جالدوا
ذوى النكث حتى أودحوا بهوان
وحتى سعى فى سور كل مدينة
منادٍ ينادى فوقها بأذان (١٥٩)

وعن الإسلام والحق ومعاداة الباطل :

فما الناس إلا فى سبيلين منهما
سبيل لحق أو سبيل لباطل (١٦٠)

وعن الحق والباطل أيضا وصراعهما فى الحياة :

ألا تفترى إذ لم تجد لك مفخراً
ألا ربما يجرى مع الحق باطله (١٦١)

وعن الخير والشر فى تناقضات الحياة وسلوكيات البشر :

فقد كنت ناراً يصطليها عدوكم
وحرزاً لما ألجأتم من ورائيا
وباسط خير فيكم بيمينه
وقابض شر عنكم بشماليا (١٦٢)

وعن الحول والقوة باعتبار صدى الصيغة الدينية المرددة :

وهم ليلة الأهواز حين تتابعوا
وهم بجنود من عدو وخاذل
كفاك بحول من عزيز وقوة
وأعطى رجالا حظهم بالشمائل (١٦٣)

---

(١٥٩) ديوان الفرزدق ٢/٣٣٤ .
(١٦٠) نفسه ٢/٣٣٨ .
(١٦١) نفسه ٢/١٧٤ .
(١٦٢) ديوان جرير ١/٨٤ .

وعن الحق والباطل ربطاً بالضلالة والهدى على نسق واحد :

لقد جرد الحجاج سيفه
لكم فاستقيموا لا يميلن مائل
فما يستوى داعى الضلالة والهدى
ولا حجة الخصمين حق وباطل (١٦٤)

وعن الرشد والغواية من نفس المنظور أيضا :

إذا خير السيدى بين غواية
ورشد أتى السيدى ما كان غاويا (١٦٥)

وعن الجهاد الإسلامى والشرك وما بينهما من صور الصراع :

عادات خيلك أن يبتن عوابسا
بالدارعين ولا تراها رودا

ما إن نزلت بمشركين بربهم
إلا تركت عظيمهم مستعبدا (١٦٦)

وعن الجهاد أيضا وطابعه الدينى من قبل الله سبحانه وتعالى

فجرد لهم سيف الجهاد فإنما
نحرت بتفويض إلى ذى الفواضل (١٦٧)

وعن شهادة المسلمين عند عبيد الله بن الحر بدلا من الشهادة القبلية :

---

(١٦٣) ديوان الفرزدق ٢/١٣٨ .
(١٦٤) ديوان جرير ١/٤٠٣ .
(١٦٥) ديوان الفرزدق ٢/٣٥٩ .
(١٦٦) ديوان جرير ١/٣٨٣ .
(١٦٧) ديوان الفرزدق ٢/١٣٨ .

فإن لم أصبح شاكراً بكتيبة
فعالجت بالكفين غل جديد
هم هدموا داري وقادوا خليلتي
إلى سجنهم والمسلمون شهودي (١٦٨)

وعن الاستشهاد في القتال باعتباره موضع فخر لأهل الشهيد .

إذا ما قرب الشهداء يوما
فما للئيم يومئذ شهيد (١٦٩)

وعن الأنفال :

لولا الجزى قسم السواد وتغلب
في المسلمين فكنتم أنفالا (١٧٠)

وعن المؤمنين :

فدى لك أمي اجعل عليهم علامة
وحرم عليهم صالحات الحلائل
نزيك بين المؤمنين وبينهم
إذا دخلوا الأسواق وسط المحافل (١٧١)

وعن الملائكة وجبريل عليه السلام والمدد الإلهي للمسلمين بهم جندا في القتال :

إلى باعث المولى لينزل نصره
فأنزل للحجاج نصرا مؤزرا
ملائكة من يجعل الله نصرهم
له يك أعلى في القتال وأصبرا

---

(١٦٨) شعراء أمويون ١/١٠٢ .
(١٦٩) ديوان جرير ١/٣٣٠ .
(١٧٠) ديوان جرير ١/٤٩٠ .
(١٧١) ديوان الفرزدق ٢/١٣٩ .

رأوا جبرئيل فيهم إذ لقوهم
وأمثاله من ذى جناحين أظهـرا (١٧٢)

وعن الملائكة والمصطفين الأخيار فى موضع الشهادة :

قال الملائكـة الذين تخـيروا
والمصطفون لدينـه الأخيـار
كانت منافقـة الحيـاة وموتهـا
خزى علانية عليك وعـار (١٧٣)

وعن ليلة القدر وتفضيلها على بقية أيام الزمن ولياليه :

لقد فضلت حسنا على الناس مثلما
على ألف شهر فضلت ليلة القـدر
عليهـا سلام الله من ذي صبابة
وصب معنى بالوساوس والفكر (١٧٤)

وعنها أيضا عند جرير إلى جانب مشهد القبر والعذاب :

لعلك ترجو أن تنفس بعـدما
غممت كما غـم المعذب فى القبر
فما أحصنته بالسـعود لمـالك
ولا ولدته أمـه ليلة القـدر (١٧٥)

وعن المشيئة الإلهية عند عمر بن أبى ربيعة :

مقيم بإذن اللـه ليس ببـارح
مكان الثريا ظاهر كل منزل (١٧٦)

---

(١٧٢) ديوان الفرزدق ١/٢٤٢ .
(١٧٣) ديوان الفرزدق ١/٣٧٤ .
(١٧٤) ديوان جميل ٥٨ .
(١٧٥) ديوان جرير ١/٤٢٥ .
(١٧٦) ديوان عمر ١٧٣ .

وعن القدر الإلهى عند الفرزدق :

ولكن أتونى آمنـاً لا أخافهـم
نهـارا وكان الله ما شـاء قدرا (١٧٧)

وعند جميـل :

فقلت له : فيها قضى الله ما ترى
على وهل فيما قضى الله من رد ؟ (١٧٨)

وعند عبيد الله بن الحر :

فعسى الله أن يدافع عنـى
ريب ما تحذرين حتى أعوبا
ليس شيء يشاؤه ذو المعـالى
بعـزيز عليـه فادعـى المجيبـا
أنا في قبضـة الإله إذ كنـ
ـت بعـيداً أو كنت منك قريبـا (١٧٩)

وعن ميثاق الله يقول جميـل :

فقد جد ميثاق الإله بحبهـا
وللذى لا يتقى الله من عهـد (١٨٠)

وعلى هـذا النحو تكررت الشواهد — وهى كثيرة جدا — عند الشـعراء ، وفى كثير من الأبيات نجد صدى التأثير الإسلامى من خلال اعتماد الشاعر على هـذه المصطلحات والمسـميات الإسـلامية ، التى استوحاها مما اسـتوعبه من المعجم الدينى ، يقول كعب بن معدان الأشـقرى :

---

(١٧٧) ديوان الفرزدق ١/٢٩٥ .
(١٧٨) ديوان جميل ٥٥ .
(١٧٨) شعراء أمويون ٣/٢٥ .
(١٨٠) ديوان جميل ٥٥ .

خلت إياد وما يرد ضلالهـــــا
داعى الرشاد وما لها من زاجـر (١٨١)

ويقول جميـل :

فإن كان رشـداً حبها أو غواية
فقد جئتـه ما كان منى على عمـد
لقـد لج ميثاق من الله بيننـا
وليس لمن لم يوف لله من عهـد (١٨٢)

ويقول مالك بن الريب :

ألم ترنى بعت الضلالة بالهـدى
وأصبحت فى جيش ابن عفان غازيا (١٨٣)

وعلى هـذا النحو نستطيع أن نقف على رصيد ضخم من المؤثرات الإسلامية على هـذا النمط من خلال استقراء دواوين شعراء العصر ، ليظل الموقف شاهدا مؤكدا طبيعة الانتماء إلى هذا المعجم الإسـلامى ، وشـدة الحرص على الأخذ منه أكثر مما أخذوا من معجم العصر ، أو تيار البداوة . ومع صورة أخرى من الأفكار والمعانى الإسـلامية التى تداولوها قد يزداد الموقف توكيدا ووضوحا .

ذلك أن هـذه الأفكار والمعانى الإسـلامية تبدو أكثر عمقا فى تأثيرها فى الشـعراء ، لأن مجرد الإفادة من المصطلح وإعادة عرضه لا تصـل بالشـاعر إلى هـذه الدرجة من عمق الأداء فى الترويج لفكرة دينية ، أو معنى إسـلامى قد يفتح مجالا من مجالات الفلسفة والجدل ، ولذلك قد يلتقى مع الفرق الكلامية التى شهدها العصر على سـبيل الاتفاق أو التعارض ، ولكن يظل التأثير من هـذا النوع

---

(١٨١) شعراء أمويون ٣/٤٠٧ .
(١٨٢) ديوان جميل ٤٣ .
(١٨٣) شعراء أمويون ١/٤٢ .

جامعـا بين أفكار إسـلامية خالصة وأخرى بدأت تدخل فى دائرة الفلسـفة ، وتتبلور من خـلال الجدل العقلى الذى دأبت عليـه بيئات المتكلمين •

ومن هـذه الشواهد التى استوقفت الشـعراء ما نجده حـول الفكر الغيبى عند الفرزدق حين يعرض لقضية خلود النفس والروح وغيرها من قضايا ميتافيزيقية وكأنما ارتبطت هـذه المعانى فى جانب منها بدور المسـلم فى الدفاع عن دينه ، وطبيعة سـلوكه من هـذا المنطلق ، ويصـبح هـذا الدفاع مضرب المثل للشـعراء ، فيقول الفرزدق :

فزد خالدا مثلَ الذى فى يمينه
تجده عن الإسلام من خير ذائد (١٨٤)

وعنـدئذ ينسب الجند إلى دين الله والسـيف إلى جند الله فى قوله :

جنودُ لدين الله نضرب من طغى
ومسلمة السيف الحسام يقودها(١٨٥)

ويصبح المروق من الدين مصطلحا يستخدم فى التعبير والهجاء كما قال ابن قيس الرقيات :

إذا نحن شـئنا ضاربتنا كتيبـة
حرورية أمست من الدين مارقه(١٨٦)

وهكـذا لم تقف المصطلحات عند المسلك الحربى أو القتالى ، بل تجاوزته لتشـملَ سلوكَ المسـلم فى حياته اليومية ، وكيف ينطلق

---

(١٨٤) ديوان الفرزدق ١/١٣٢ •
(١٨٥) ديوان الفرزدق ١/١١٧ •
(١٨٦) ديوان ابن قيس الرقيات ١٩٢ •

عمليا من الأفكار الدينية التى أرساها الإسـلام ، فكثر حديث الشعراء حول صلة الأرحام ، وقطعها فيقول ابن قيس :

تذكرنـى قتلـى بحرة واقـم
أصيبت وأرحاما قطعن شـوابكا

فقطـع أرحام وفضت جمـاعة
وعادت روايا الحلم بعـد ركائكا(١٨٧)

ويقول أيضا على نفس النسق :

وأقطـع للأرحام لم يرقبوا بهـا
من اللـه إلا يوم ذاك وأبصرا(١٨٨)

ومن الحلال ، والحرام ، والعدل ، يقول الفرزدق وإن كان يستغل المعانى فى صورة غزلية :

فيم بالله لئن تقتلين محبـا
لك بالوصـل مخلصـا بـذالا
وللعمـرى لئن هممت بقتلـى
لبما قد قتلت قبلى الرجـالا
حديثى عن هجـركم ووصـالى
أحراما ترينـه أم حـلالا
فاحكمى بيننـا وقولى بعـدل
هل جزاء المحب إلا الوصالا (١٨٩)

إذ يظل متعلقا بألفاظ المعجم الإسـلامى من خلال حسه العـام الذى يجسـده أسلوب القسـم بالمولى عز وجل ، ثم حـديثه عن

---

(١٨٧) ديوان ابن قيس ١٢٩ — ١٣٠ .
(١٨٨) نفسـه ١٣٩ .
(١٨٩) ديوان الفرزدق ١/١٦١ .

الإخلاص والبذل والإيثار كسلوك دينى ، إلى جانب حواره حول الحلال والحرام والعدل فى الحكم .

ولا يعنى هـذا أن الشـعراء دأبوا على تحويل المصطلحات إلى مواقف الغزل ، ولكن حتى فى هـذا الموقف لم ينس الشاعر أن يصدر عما اكتسبه من تلك الأفكار التى تجدد له طبيعة سلوكه الإسـلامى ، فيتحدث الفرزدق أيضا عن المحرم وغير المحرم فى قوله عن الحمى :

أباحوا حمى قد كان قدما محـرما
فأضحى على شيبان غير محرم (١٩٠)

وعن مراعاة المحارم كسلوك دينى قويم تدعو إليه العقيدة :

وقد علموا أنى أنا الشـاعر الذى
يراعى لبكر كلهـا كلّ محـرم
وإنـى لمن عـادوا عدوا وإننـى
لهم شـاكر ما حالفت ريقتى فمى (١٩١)

وعن صلات الأرحام أيضا كما رددها ابن قيس من قبل يقـول الفرزدق محذرا من قطعها ومغبة تجاهلها :

ولا تقطعوا الأرحام منا فإنهـا
ذنوب من اعمالٍ يخشى إثامهـا

فنرعى قريش من تميم قرابـة
ونجزى أياما كريمـا مقامهـا (١٩٢)

---

(١٩٠) ديوان الفرزدق ٢/١٩٤ .
(١٩١) نفسـه ٢/١١٩ .
(١٩٢) نفسـه ٢/٢٤١ .
(١٩٣) ديوان الأخطل ١/٨٥ .

وعن الرجس والطهارة يقول جرير :

لا يدخلن عليك إن دخولهـــم
رجس وإن خروجهم تطهير (١٩٤)

وعند الأخطل :

أمعشر قيس لم يمتع أخـوكم
عمـير بأكفان ولا بطهـور (١٩٥)

وعن الدعوة لصالح الأعمال يقول الأخطل فى شكل حكمى عام :

والناس همهم الحيـاة وما أرى
طول الحيـاة يزيد غير خبـال
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد
ذخرا يكون كصالح الأعمال (١٩٦)

وعن إقامة الحدود يقول جرير عن منظور دينى بحت حول إقامة الحد استنادا إلى شرع الكتاب :

فقـد حلت يمينك إن إمـام
أقام الحـد واتبع الكتـابا (١٩٧)

وعن القصاص يقول جميل فى موطن الفخر :

وكنا إذا ما معشر نصبوا لنـا
ومرت جوار طيفهم وتعيفـوا

---

(١٩٤) ديوان جرير ١/٣٦٦ .
(١٩٥) ديوان الأخطل ١/٦٦ .
(١٩٦) ديوان الأخطل ١/١٤٠ .
(١٩٧) ديوان جرير ١/٦٥٢ .

وضعنا لهم صاع القصاص رهينة
ونحن نوفيها إذا الناس طففوا (١٩٨)

وعن الموقف من المغتاب والمراثى يقول ابن قيس :

أيها المستحل لحمى كله
من ورائى ومن وراك الحساب
استفيقن فليس عندك علم
لا تنامن أيها المغتاب
تختل الناس بالكتاب فهلا
حين تغتابنى نهاك الكتاب (١٩٩)

إذ يضيف إلى استنكار السلوك على المستوى الاجتماعى ما ورد بحقه فى الكتاب نهيا وزجرا وتهديدا بما يكون من العقاب يوم الحساب.

وعن الغيبة والنميمة أيضا يقول جرير :

أغابا تجاوز حين أجنت
نخيل أجا وأعنزه الربابا
أصابوا الجار ليلة غاب عنهم
فبئس القوم إذ شهدوا وغابا (٢٠٠)

وعن النفاق وجزاء المنافق يتردد القول عند جرير فى أكثر من موقف ، فيقول راسما من الموقف لوحة فنية عرضها ضمن مدحته :

---

(١٩٨) ديوان جميل ٨٥ نصبوا لنا : عادونا . الصاع : مكيال .
(١٩٩) ديوان ابن قيس ٨٤ .
(٢٠٠) ديوان جرير ٢/٦٥٢ .
طففوا : نقصوا المكيال . تعيفوا : زجروا الطير ليتفاءلوا أو يتشاءموا بطيرانها .

من سد مطلع النفاق عليهم
أم من يصول كصولة الحجاج
فإذا رأيت منافقين تخيروا
سبل الضجاج أقمت كل ضجاج
داويتهم وشفيتهم من فتنة
غبراء ذات دواخن وأجاج
ولقد كسرت سنان كل منافق
ولقد منعت حقائب الحجاج (٢٠١)

ويقول محذرا من استمراء الرعية للنفاق :

هو الخليفة فارضوا ما قضى لكم
بالحق يصدع ما في قوله جنف
يقضى القضاء الذى يشفى النفاق به
فاستبشر الناس بالحق الذى عرفوا (٢٠٢)

ومتوعداً من ينافق بانكشاف أمره ليلقى مصير المنافقين قبله :

تشد فلا تكذب يوم زحف
إذا الغمرات زعزعت العقابا
عفاريت النفاق شفيت منهم
فأمسوا خاضعين لك الرقابا (٢٠٣)

ومؤكدا جزاء المنافق من خلال منطق واحد يحسمه حد السيف :

عبد العزيز الذى سارت برايته
تلك الزحوف إلى الأجناد فاصطرموا

---

(٢٠١) ديوان جرير ١/١٣٧ — ١٣٨ .
(٢٠٢) نفسه ١/٢٤٤
(٢٠٣) نفسه ١/١٧٥ .
(٢٠٤) نفسه ١/١٢٩ .

ما كان من بلد يعلو النفاق به
إلا لأسيافكم ممن عصى لهم (٢٠٤)

وغالبا ما يرتبط عنده النفاق بالفتنة على نحو قوله :

فتحكمك يا مهاجر حكم عدل
ولو كره المنافق والمريب
إذا مرضت قلوبهم شفاهم
نطاسي بدائهم طبيب (٢٠٥)

وعلى نفس النسق نظم قوله قارناً بينهما :

واطفأت نيران النفاق وأهله
وقد حاولوا في فتنة أن تسعرا
فلم تبق منهم راية يرفعونها
ولم تبق من آل المهلب عسكرا (٢٠٦)

وكم تحدث القرآن الكريم عن النفاق والمنافقين ، وآخذهم على سلوكهم ووصفته الآيات ، وتوعدهم : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم أو لا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون(٢٠٧) . « ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هو منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون »(٢٠٨) إلى غير ذلك من توصيف القرآن لتلك الفئة ، بحكم ما ظهر منها من خطر على الدعوة في عصر المبعث ، واستمر خطرهم على مدار عصور الخلافة الإسلامية ، فتناول الشعراء سلوكهم بالتجريح من هذا المنطق الديني إلى جانب المنطق الاجتماعي والأخلاقي أيضا .

---

(٢٠٥) ديوان جرير ١/٤١٠ .
(٢٠٦) ديوان جرير ١/٤٧١ .
(٢٠٧) سورة الحشر ١١ .
(٢٠٨) سورة المجادلة ١٤ .

وحول رفض النفاق على إطلاقه فى أى من صوره يقول جميل فى صياغة حكمية عامة :

ومن هـو ذو وجهين ليس بدائم
على العهد حلاف بكل يمين (٢٠٩)

وعن تحية الإسلام كصورة جوهرية من صور حسه الدينى يقول جرير :

حييت وجهك بالسلام تحيـة
وعرفت ضرب كريمة لكـريم

والله فضـل والديك فأنجبـا
وعدلت خير خؤولة وعموم (٢١٠)

وعن الاستعاذة بالله يقول أيضا من المنطلق الدينى :

أعـوذ باللـه العزيز الغفـار
وبالإمام العـدل غير الجبـار

من ظلم حمان وتحـويل الدار
فاسأل بنى صحب ورهط الجـزار (٢١١)

ثم يقول فى التعبير بعـدم قراءة القرآن الكـريم أو محـاولة تدبر آياته :

إن البعيث وعبـد آل مقاعس
لا يقرآن بسـورة الأحبـار (٢١٢)

---

(٢٠٩) ديوان جميل ١٢٦ .
(٢١٠) ديوان جرير ٢/٦٥٨ .
(٢١١) نفسـه ١/٤٤٥ .
(٢١٢) نفسـه ٢/٨٩٧ .

وهو يقصد بذلك أنهم لا يقرأون القرآن ، ولا يعكفون على تلاوته كمسلمين . وعن اللغو فى اليمين والعزم يقول الفرزدق من المنظور الإســـلامى :

ولست بمأخـوذ بلغو تقـــوله
إذا لم تعمد عاقدات العزائم (٢١٣)

وعن الحق والضلال يقول الأخطل :

وقد كان يوما راهط من ضلالكـم
غناء لأقوام وخطبـا من الخطب (٢١٤)

كما يقـول :

كانوا موالى حـق يطلبون بـه
فأدركوه وما ملوا ولا لغبـوا
إن تك للحق أسـباب يمد بهـا
ففى أكفهم الأرسان والسبب (٢١٥)

أما عن علاقة الدين بالدنيا فقد انطلق شـعراء العصر يرسمون المواقف والمشـاهد على غرار قول الفرزدق حـول جزاء الخائن فى الدنيـا والآخرة :

ولا شىء شر من شريرة خائـن
يجىء بهـا يوم ابتلاء المحاصـل
هو العـار فى الدنيـا عليه وبيته
به يوم يلقى الله شر المداخل (٢١٦)

---

(٢١٣) ديوان الفرزدق ٢/٣٠٧ .
(٢١٤) ديوان الأخطل ١/٤٩ .
(٢١٥) نفسـه ١/٨٥ الموالى : الأصحاب . الحق هنا هو حق عثمان بن عفان رضى الله عنه .
(٢١٦) ديوان الفرزدق ١/١٣٨ .

وخير ما يتصوره الفرزدق هو التقاء الدنيا فى صلاح الأعمال مع الجهاد فى سبيل الله مع التدين حيث يقول :

جنود لدين الله تضرب من طغى
ومسلمة السيف الحسام يقودها
أبار لكم عن دينه كل ناكث
كما الأمم الأولى أبيرت ثمودها
أرى الدين والدنيا بكم جمعا لكم
إذا اجتمعت للعاملين جدودها (٢١٧)

وهنا تكتمل صورة الفضيلة فى شخص ممدوحه إذا ما غلب عليها هذا السلوك الدينى وقد تعددت أبعاده .

كما ردد شعراء العصر بعضا من الأفكار الغيبية التى طرحوها من منظور دينى محض ، وشغل مشهد القيامة بما فيه من موت ونشور ، وبعث وحساب حيزا هائلا من أذهانهم أسقطوه فى مساحة كبيرة من الشعر مما نجد منه لدى الفرزدق فى صورة الموت والقبور مفلسفا موقفه الخاص من زيارة القبور :

إن الزيادة فى الحياة ولا أرى
ميتا إذا دخل القبور يزار (٢١٨)

وعن الموت والنشور يقول جرير :

دعا وهو حى مثل ميت فإن يحن
فهذا له بعد الممات نشور (٢١٩)

وعن الموت أيضا يقول الفرزدق فى قصائد مختلفة على نحو ما جاء فى هجائه لجرير :

---

(٢١٧) ديوان الفرزدق ١/١٧١ .
(٢١٨) نفسه ١/٣٧٥ .
(٢١٩) ديوان جرير ٢/٨٧٧ .

فهل أحد يا ابن المراغة هارب
من الموت إن الموت لابد نائله (٢٢٠)

أو قوله على المستوى الحكمى العام :

فهون وجدى أن كل أبى امرئ
سيثكل أو يلقاه منها لزامها (٢٢١)

وقوله فى استقراء البعد الإنسانى الشامل للموقف الغيبى إزاء الموت :

أرى كل حى لا يزال طليعة
عليه المنايا من فروج المخارم
وما أحد كل المنايا وراءه
ولو عاش أياماً طوالا بسالم (٢٢٢)

وقوله :

ما مات بعد ابن عفان الذى قتلوا
وبعد مروان للإسلام والحرم (٢٢٣)

ثم قوله :

مثل ابن مروان والآجال لاقيه
يحتفها كل من يمشى على قدم (٢٢٤)

وإذا كان حديث الموت غير مغرق فى بعده الدينى ، فهو يزداد وضوحا حين يمزجه الشعراء بمشاهد القيامة ، على نحو ما يقول الفرزدق حول الساعة وأشراطها :

---

(٢٢٠) ديوان الفرزدق ٢/١٧١ .
(٢٢١) نفسه ٢/١٩٣ اللزام : الموت .
(٢٢٢) نفسه ٢/٢٠٦ .
(٢٢٣) نفسه ٢/٢١٠ .
(٢٢٤) نفسه ٢/٢٢٤ .

إن القيـــامة قد دنت أشراطهـــا
حتى أمية عن فزارة تنزع (٢٢٥)

ويقول جرير مفاخرا وهاجيا معـــاً :

لنـــا الفضل فى الدنيا وأنفك راغم
ونحن لكم يوم القيامة أفضل (٢٢٦)

ويطيل الفرزدق فى رسم المشهد فيقول :

تمنى المســـتزيدة لى المنـــايا
وهـــن وراء مرتقب الجبـــدور
فـــلا وأبى لمـــا أخشى ورائـــي
من الأحـــداث والفـــزع الكبير
أجـــل على مـــرزئة وأدنـــى
إلى يوم القيـــامة والنشـــور
من البقـــر الذين رزئت خليوا
على المضلعات من الأمـــور (٢٢٧)

أما عن مشـــهد البعث وما يحدث فيه فيقول الفرزدق أيضـــا كما يتخيله :

لقـــد خاب من أولاد درام من مشى
إلى النار مشـــدود الخناقة أزرقا
إذا جاءنى يوم القيـــامة قائـــد
عنيف وســـواق يســـوق الفرزدقـــا
أخاف وراء القبر إن لم يعافنى
أشـــد من القبر التهـــابا وأضيقا

---

(٢٢٥) ديوان الفرزدق ١/٤٠٨ .

(٢٢٦) ديوان جرير ١/١٤٣ .

(٢٢٧) ديوان الفرزدق ٢/٣٩ . مرتقب الجدور : أراد نفسه أى أنه يرقب الموت .

إذا شربوا فيها الصديد رأيتهم
يذوبون من حر الصديد تمزقا(٢٢٨)

وهنا تتعدد لديه جزئيات الصورة وتزداد دلالة ووضوحا ابتداء من الشد إلى النار ، إلى القائد العنيف الذى يسوق العباد يوم الحساب ، إلى مخاوف القبر وما بعده من صور الحساب خاصة ما يترصد الكفار من صور العقاب وقد استوقفه منها ما يشربونه من حر الصديد وهو يمزق أمعاءهم تمزيقا .

وعن استسلامه لكل هذا المشهد يقول فى شكل حكمى :

فصبرا تميم إنما الموت منهل
يصير إليه صابر وجزوع (٢٢٩)

كما يقول :

بنى بأعلام الجزيرة صرعوا
وكل امرئ يوما سيأخذ مضجعا (٢٣٠)

وأيضا :

أتعدل أحسابا لئاما أدقة
بأحسابنا ؟ إنى إلى الله راجع (٢٣١)

وعن نشر الموتى يقول جرير على نفس الوتيرة على لغة التشبيه لما رآه من الفزع :

كانت وقائع قلنسا لن ترى أبدا
من تغلب بعدها عين تولا أثر

---

(٢٢٨) ديوان الفرزدق ٢/٣٩ .
(٢٢٩) نفسه ١/٤٠٩ .
(٢٣٠) نفسه ١/٤١٠ .
(٢٣١) نفسه ١/٤٢٠ .

حتى سمعت بخنزير طغا جزعا
منهم فقلت أرى الأموات قد نشروا(٢٣٢)

ويقول فى باب الهجاء وإسقاط حق خصمه فى الفخر بقومه فى دنيا أو آخرة :

تخزيك أحياء تيم إن فخرت بهم
والخزى أموات تيم إن هم نشروا(٢٣٣)

وعن عذاب القبر يقول جرير عن معاناة المعذب من أهوال ما يراه وما يحسه :

لعلك ترجو أن تنفس بعدما
غممت كما غم المعذب فى القبر (٢٣٤)

ويقول الفرزدق مصورا الموقف حول العذاب المرسل الكامن فى هجائياته :

إذا غاب كعب بنى جعيل عنهم
وتنمر الشعراء بعد الأخطل
يتباشرون بموته ووراءهم
منى لهم قطع العذاب المرسل (٢٣٥)

وعن عذاب النار يقول الفرزدق أيضا متخذا منه مادة تصويرية :

وإن تبعثونى بعد سبعين حجة
أكن كعذاب النار ذات الجحائم (٢٣٦)

---

(٢٣٢) ديوان جرير ١/١٥٧ .
(٢٣٣) ديوان الفرزدق ٢/٢٤٧ .
(٢٣٤) ديوان جرير ١/٢١٦ .
(٢٣٥) ديوان الفرزدق ١/٢٦٠ .
(٢٣٦) ديوان جرير ١/٤٢٥ .

كما يقول عن الجحيم والسعير وتوصيف القيامة والموت طبقا لصورته :

أقام على حى المزون قيامة
من الموت إلا أنها هى أشهر
وقد ضاق ذرعا مصطلوها بحرها
وعادت جحيما نارها تتسعر (٢٣٧)

وعن جهنم وعذابها يقول الفرزدق أيضا :

ومازلت حتى فرق الله بيننا
له الحمد منى فى أذى وجهاد
تجدد لى الذكرى عذاب جهنم
ثلاثا تمنى من بها وتعادى (٢٣٨)

ومن حديث العقاب والحساب يقول عمر ويستغل المشهد فى الغزل كعادته إذ يخشى القصاص الإلهى من فتاته إذا أثمت بقتله فى هواها دون رحمة أو اشفاق عليه :

لا تقتليني يا عثيم فإنني
أخشى عليك عقاب ربك فى دمى
إن لم يكن لك رحمة وتعطف
فتحرجى من قتلنا أن تأثمى (٢٣٩)

ويكثر ورود الذنب والتوبة والغفران عند الشعراء الغزلين على نطق جميل :

أبوء بذنبى إننى قد ظلمتها
وانى بباقى سرها غير بائح (٢٤٠)

---

(٢٣٧) ديوان الفرزدق ٢/١٤٩ .
(٢٣٨) نفسه ١/١٠٨ .
(٢٣٩) ديوان عمر بن أبى ربيعة ١٩٠ .

ويتمنى عمر الغفران الدنيوى فى عالمه الغزلى فيقول :

أهجرتنـــا ثم اعتللت لنـــا
ولقـــد ترى أن ما لنـــا ذنب (٢٤١)

ويقول بين العذر وغفران الذنب :

فأعذرينـــى إن كنت صاحب عـــذر
واغفرى لى إن كنت أذنبت ذنبا (٢٤٢)

ويقول أيضا عن الصفح والرحمة وعلاقتهما بالذنب :

وأعوذ منك بك الغـــداة لتصفحى
عما جنيت من الذنوب وترحمى (٢٤٣)

ومنه أقرب إلى عالم الغزل بين الواشى والجرم والذنب :

وســـمعت بى قول الوشـــاة بـــلا
ذنب أتيت ولا جـــــرم (٢٤٤)

وهو يسند مشكلته إلى القضاء والقدر فيقول قانعا به وراضيا :

لكـــن ربـــى كـــان قـــدره
فقضاء ربى أفضل الحكـــم (٢٤٥)

وعن التوبة فى الموقف الغزلى أيضا يقول :

أبينى لنـــا إن كان هـــذا تجنيا
لصرم فتصريح الصريمة أجمـــل

---

(٢٤٠) ديوان جميل ٣٠ .
(٢٤١) ديوان عمر ١٥
(٢٤٢) نفســـه ٣٧ .
(٢٤٣) نفســـه ٤٥ .
(٢٤٤) نفســـه ١٩١ .
(٢٤٥) نفســـه ٢٠٠ .

وإن كان إنكارا لأمر كرهتـــه
فرابك إنى تائب متنصـــل (٢٤٦)

وعن الإساءة والتوبة معاً عند الأحوص يقول فى نفس الإطار الغـزلى :

هبينـى امرأ بريئـاً ظلمتـه
وإما مسـيئا مذنبـاً فيتوب (٢٤٧)

كما يقول حول الظلم والذنب والبراءة والإساءة والإنابة والعتبى :

أقول التماس العذر لمـا ظلمتنى
وحملتنى ذنبـاً وما كنت مذنبـا
هبينى أمرأ إما بريئاً ظلمتـه
وإما مسيئا قد أناب وأعتبـا (٢٤٨)

ويحسن هنا أن نسـجل أن تعرض شـعراء الغزل للتيار الدينى بهذا الشكل إنما يكشف عن سـيادة تأثيره ، حتى فى أبعد الموضوعات عنه ، ولكن الشـعراء بذلوا محاولاتهم للإفادة من المعجم الإسلامى بأى من الأشكال باعتباره جدولا ثقافيا تكتمل به الهيئة الفكرية التى يصدرون عنها • ويبقى فى هـذا الجانب الغيبى من المؤثرات حديث الشعراء وما أدواره حول فكرة الخلود تأثرا بالدين ومشاهد الغيب على نحو ما يتصوره الفرزدق من خلود النفس والروح فى قوله من منطق حكمى ارتدى فيه ثوب الواعظ والمرشد الموجه :

تزود فما نفس بعاملة لهـــا
إذا ما أتاها بالمنـايا حديدهـــا

---

(٢٤٦) نفســه ١٥٨ •
(٢٤٧) ديوان الأحوص ٨٧ •
(٢٤٨) نفســه ٨١ •
(٢٤٩) ديوان الفرزدق ١/١٥٠ •

فيوشك نفس أن تكون حياتهـــا
وإن مســـها موت طويل خلودهـــا
وسوف ترى النفس التى اكتدحت لها
إذا النفس لم تنطق ومات وريدها[٢٤٩]

وبذا وجدت الأفكار الإســـلامية والمعانى طريقهـــا إلى مختلف موضوعات الشـــعر فى كل البيئات فلم تخضع للتخصص الفنى الذى شهدته كل بيئة على حدة ، بل بدت قاســـماً مشتركا بين كل الشـــعراء وما زالت المشاهد الأخروية تسيطر عليهم بما ينتظر فيها من غفران وعفو إلهى كما يقول المرار بن ســـعيد :

وقد لعبت مع الفتيان ما لعبـــوا
وقد أحد وقد أغنى وأفتقـــر
أستغفر الله من جدى ومن لعبـــى
وزرى فكل امرىء لابد متـــزر
وإنما لى يوم لست سابقـــه
حتى يجىء وإن أودى به العمـــر[٢٥٠]

وهو يقترب بفكرته من عالم المرجئة والقائلين بشمولية العفو الإلهى وإن لم يسرف فى سلوكه إسراف متطرفى الإرجاء .

وعن الثواب من الخالق ســـبحانه يقول الفرزدق جامعاً بينه وبين عظمة الخالق واختبار العبد وخشوعه :

تهـــون عليك نفســـك وهو أدنـــى
لنفســـك عند خالقهـــا ثوابـــا

فمن يمنن عليـــك النصر يكـــذب
ســـوى الله الذى رفع الســـحابا

---

(٢٥٠) شعراء أمويون ١/٤٤٦ .

تفرد بالبـــلاء عليـــك رب
إذا ناداه مختنـــع أجابا (٢٥١)

وعن التوبة بعيدا عن عالم الغزل يقول جرير :

لعمرى لنعم النحـــى كان لقـــومه
عشـــية غب البيـــع نحـــى حمـــام

بتوبة عبـــد قد أناب فـــؤاده
وما كان يعطى الناس غير ظـــلام (٢٥٢)

وهكذا ردد الشـــعراء من الأفكار الإســـلامية ما يرتبط بقضايا الغيب ، إذ أفسحوا لها مكانها — بل أماكنها — فى صور مختلفـــة حسب طبيعة الموضوعات ، فمنهم من أفاد منها على حقيقة الدلالة ، وعليها رصدها فى شـــعره ، ومنهم من الغزليين — بصفة خاصـــة — من راح يتعامل معها من خلال معالجة غزلية ، تنم عن استيعابه تلك المعانى وصدوره عنها بطريقته الخاصة فى التحاور معها ، وربما عمدنا هنا إلى تكثيف الشواهد التى تكفل بعد ذلك طرح الرؤية التحليلية لها وصولا إلى الفصل فى الموقف الفنى للشـــعراء بشكل عام .

وقد وصل الأمر بالشعراء إلى حـــد الاهتداء بالإيقاع الصـــوتى لبعض الآيات القرآنية ، فراحوا يترنمون بنفس الإيقاع فى قصائدهم على نحو ما يمكن أن نرصده من خلال بعض الشواهد من شـــعرهم ، على طريقة ابن قيس الرقيات فى قوله :

إن هـــذا الليـــل قد غســـقا
واشـــتكيت الهم والأرقا (٢٥٣)

---

(٢٥١) ديوان الفرزدق ١/٨٣ .
(٢٥٢) ديوان جرير ١/٢١٣ . غب البيع : تم البيع .
(٢٥٣) ديوان ابن قيس ١٨٧ .

إذ يتأثر لفظيا بالآية الكريمة « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل »[٢٥٤] . كما يقول :

وكاد نساؤهم يلقين غيا
تركن وفر عنهن البعول [٢٥٥]

تأثرا بإيقاع الآية الكريمة « فسوف يلقون غيا »[٢٥٦] .

وفي نفس الاتجاه يقول كعب بن معدان الأشقري :

على بصائر كل غير تاركها
كلا الفريقين تتلى فيهم السور

يمشون في البيض والأبدان إذ وردوا
مشي الزوامل تهدى صفهم زمر

إنا اعتصمنا بحبل الله إذ جحدوا
بالمحكمات ولم نكفر كما كفروا

جاروا عن القصد والإسلام واتبعوا
دينا يخالف ما جاءت به النذر [٢٥٧]

فهو يأخذ الأنساق اللفظية والتعبيرية على المستوى الإيقاعي من الآيات القرانية « هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون »[٢٥٨] ومن قوله تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا »[٢٥٩]

---

(٢٥٤) سورة الاسراء ٧٨ .
(٢٥٥) ديوان ابن قيس ١٣٤ .
(٢٥٦) سورة مريم ٥٩ .
(٢٥٧) شعراء أمويون ٢/٣٨٢ .
(٢٥٨) سورة الجاثية ٢٠ .
(٢٥٩) سورة آل عمران ١٠٣ .

وقول تعالى « وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون »[٢٦٠] .
ويقول كعب أيضـــا :

قتلى بقتلى قصاص يستفاد بهـــا
تشفى صدور رجال طالمـــا وقروا

فى معرك تحسب القتلى بســـاحته
أعجاز نخل زفته الريح ينقعر[٢٦١]

إذ يهتدى فى إيقاع ألفاظه ودلالتها أيضا بما ورد فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى »[٢٦٢] وفى الآية الكريمة « تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر »[٢٦٣] وفى نفس النسق من التأثر اللفظى والصوتى يقول جميل فى غزله وهو ما ورد فى أكثر من موضع :

فإن كان رشـــداً حبها أو غواية
فقد جئته ما كان منى على عمـــد

لقـــد لج ميثاق من الله بيننـــا
وليس لمن لم يوف لله من عهـــد[٢٦٤]

من قوله تعالى « قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا »[٢٦٥] .
والآية الكريمة « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »[٢٦٦] .
وقوله تعالى : « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق »[٢٦٧] .

---

(٢٦٠) سورة يونس ١٠١ .
(٢٦١) شعراء أمويون ٢/٤٠٢ .
(٢٦٢) سورة البقرة ١٧٨ .
(٢٦٣) سورة القمر ٢٠ .
(٢٦٤) سورة الجن ٢١ .
(٢٦٥) سورة البقرة ٢٥٦ .
(٢٦٦) سورة البقرة ٤٠ .

والآية « أوفوا بعهدى أوف بعهدكم »[٢٦٨] .

ومن نفس الدرجة من التأثير يرد قول الشمردل اليربوعى :

من صوب سارية كأن بمتنه
منها الجمان ولؤلوا منثورا[٢٦٩]

من الآية الكريمة « اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا »[٢٧٠]

وعند جرير يقول فى فخره الدينى لقومه :

تغشى الملائكة الكرام وفاتنا
والتغلبى جنازة الشيطان
يعطى كتاب حسابه بشماله
وكتابنا بأكفنا الأيمان[٢٧١]

تأثرا بقوله تعالى « فأما من أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم »[٢٧٢] .

والآية الكريمة « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه »[٢٧٣] .

كما يقول فى الرثاء :

فهد الأرض مصرعه فمادت
رواسيها ونضبت البحور[٢٧٤]

---

(٢٦٨) شعراء أمويون ٢/٥٣
(٢٦٩) سورة الانسان ١٩
(٢٧٠) ديوان جرير ٢/١٠١٥
(٢٧١) سورة الإسراء ٧١
(٢٧٢) سورة الحاقة ٢٥
(٢٧٣) ديوان جرير ٢/١٩٤
(٢٧٤) ديوان جرير ٢/١٩٤

متأثرا بالآية الكريمة « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا »(٢٧٥) .

ثم يقول أيضا :

حمدتم وبشرنا بفضل نداكم
وكان كشىء قد أحطنا به خبرا(٢٧٦)

من ألفاظ الآية الكريمة « كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا »(٢٧٧) أو من قوله تعالى « وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا »(٢٧٨) فإذا ما قال :

من يهده الله يهتد لا مضل له
ومن أضل فما يهديه من هاد
فيهم ملائكة الرحمن ما لهم
سوى التوكل والتسبيح من زاد
أنصار حق على بلق مسومة
أمداد ربك كانوا خير أمداد(٢٧٩)

بدا عمق التأثر اللفظى بالآيات القرآنية « من يهد الله فما له من مضل »(٢٨٠) .

« والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض »(٢٨١) .

---

(٢٧٥) سورة النحل ١٥
(٢٧٦) ديوان جرير ٢/٧٠٨
(٢٧٧) سورة الكهف ٩١
(٧٨)سورة الكهف ٦٨
(٢٧٩) ديوان جرير ٢/٧٤٣
(٢٨٠)سورة الزمر ٣٧
(٢٨١) سورة الشورى ٥

« يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين »(٢٨٢) .

وإذا ما قال جرير أيضا :

من آل مروان ما ارتدت بحائرهم
من خوف قوم ولا هموا بإلحاد
حتى أتتك ملوك الروم صاغرة
مقرنين بأغلال وأصفاد(٢٨٣)

بدا قريبا من إيقاع الآية الكريمة « وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد »(٢٨٤) .

وفي قوله :

دعت أمك العمياء ليلة منقرا
ثبورا لقد زلت وطال ثبورها(٢٨٥)

متأثرا بالآية الكريمة « لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا »(٢٨٦) .

ويتحاور الفرزدق في دائرة المعزلين في مقدماته :

فلئن سفكت دما بغير جريرة
لتخلدن مع العذاب الأليم(٢٨٧)

تأثرا بمشهد العذاب المبشر به على لغة السخرية في الآية : « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم »(٢٨٨) .

---

(٢٨٢) سورة آل عمران ١٢٤
(٢٨٣) ديوان جرير ٢/٧٤٥
(٢٨٤) سورة ابراهيم ٤٩
(٢٨٥) ديوان جرير ٢/٨٨٣
(٢٨٦) سورة الفرقان ١٤
(٢٨٧) ديوان الفرزدق ٢/٢٣٧ .
(٢٨٨) سورة آل عمران ٢١ .

ثم يقول الفرزدق أيضا :

بمدرعين الليل مما وراءهما
بأنفس قوم قد بلغن التراقيا (٢٨٩)

من إيقاع الآية الكريمة « كلا إذا بلغت التراقى »(٢٩٠) . وكذا يقول القطامى :

فإن قدرت على شىء جزيت به
والله يجعل أقواما بأرصاد(٢٩١)

من الآية الكريمة « إن ربك لبالمرصاد »(٢٩٢) . ويقول عبيد الله ابن الحر :

ألم يجعل الله قلبى حين ينزل بى
هم تضيفنى ضيقا ولا حرجا (٢٩٣)

تأثرا بألفاظ الآية الكريمة « ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء »(٢٩٤) .

ثم يقول عبيد الله بن الحر أيضا مطمئنا نفسه إلى حتمية القدر والموت :

يانفس لا تجزعى إنى إلى أمد
وكل نفس إلى يوم ومقدار
إنى إلى أجل إن كنت غافلة
إليه ما منتهى علمى وآثارى (٢٩٥)

---

(٢٨٩) ديوان الفرزدق ٢/٣٥٣ .
(٢٩٠) سورة القيامة ٢٦ . (٢٩١) ديوان القطامى ٨٧
(٢٩٢) سورة الفجر ١٤ .
(٢٩٣) شعراء أمويون ١/٩٨ .
(٢٩٤) سورة الأنعام ١٢٥ .
(٢٩٥) شعراء أمويون ١/٢٧٤ .

تأثرا بقوله تعالى « وكل شيء عنده بمقدار »[٢٩٦] .

ويقول الأحوص :

كل الحبال حبال الناس من شعر
وحبلها وسط أهل النار من مسد [٢٩٧]

من الآية الكريمة إيقاعاً وتصويرا «في جيدها حبل من مسد»[٢٩٨] .

ويقول الأحوص أيضا :

ستبقى لها في مضمر القلب والحشا
سريرة ود يوم تبلى السرائر [٢٩٩]

من الآية الكريمة : « إنه على رجعه لقادر ، يوم تبلى السرائر » [٣٠٠] .

وعند الأحوص أيضا في غير الغزل إذ يصور ممدوحه :

يمانية شطت فأصبح نفعها
رجاء وظنا بالمغيب مرجما
تخيره رب العباد لخلقه
وليا وكان الله بالناس أعلما [٣٠١]

من قوله تعالى « رجما بالغيب »[٣٠٢] والآية الكريمة « وربك أعلم بمن في السماوات والأرض »[٣٠٣] . ومن هذا القبيل أيضا قول عمر بن أبي ربيعة :

---

(٢٩٦) سورة الرعد ٨ .
(٢٩٧) ديوان الأحوص ١١١ .
(٢٩٨) سورة المسد ٥ .
(٢٩٩) ديوان الأحوص ١١٨ .
(٣٠٠) سورة الطارق ٩ .
(٣٠١) ديوان الأحوص ١٩٦ .
(٣٠٢) سورة الكهف ٢٢ .
(٣٠٣) سورة الاسراء ٥٥ .

اقتليه قتلا سريحا مريحا
لا تكونى عليه سوط عذاب
أو أقيدى فإنما النفس بالنفس
فس قضاء مفصلا فى الكتاب (٣٠٤)

من الآية الكريمة وباشارة مباشرة « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا »(٣٠٥) والآية « فصب عليهم ربك سوط عذاب »(٣٠٦) • ومنه قول عمر أيضا فى عرض إحدى لوحاته الغزلية :

ياليتنى مت إن لم ألق من كلفى
مفرحا وشآنى نحوها النظر
تقول إذ أيقنت أنى مفارقها
ياليتنى مت قبل اليوم ياعمر (٣٠٧)

حيث يستوحى اللفظ من إيقاع الآية الكريمة على تباعد ما بين الصورتين والموقفين « قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا »(٣٠٨) • وفى قول عمر :

قلت ما جشمتنا من حبكم
يا ابنة الخيرين أدهى وأمر (٣٠٩)

على نسق الإيقاع فى الآية الكريمة « بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر »(٣١٠) • ولعمر أيضا قوله :

صدقت ومن يعلم فيكتم شهادة
على نفسه أو غيره فهو أظلم

---

(٣٠٤) ديوان عمر ٢٤ •
(٣٠٥) سورة المائدة ٣٢ •
(٣٠٦) سورة الفجر ١٣ •
(٣٠٧) ديوان عمر ٧٢ ٧٦ •
(٣٠٨) سورة مريم ٢٣ •
(٣٠٩) ديوان عمر ٩١ •
(٣١٠) سورة القمر ٤٦ •

فلا تصرمينى إن ترينى أحبكم
أبوء بذنبى إننى أنا أظلم [٣١١]

تأثرا بالآية الكريمة « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه »[٣١٢] والآية « إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار »[٣١٣] .

ثم يقول عمر :

إن الوشاة كثير إن أطعتهم
لا يرقبون بنا إلا ولا ذمما [٣١٤]

تأثرا بألفاظ من الآية الكريمة « لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة »[٣١٥] ثم يتكرر هذا التأثر عنده فى مثل قوله :

صد عمداً فباء إذ صد عنى
يا خليلى بإثمه وبإثمى

ومن مثل تلك الصيغ القرآنية ما أورده قيس لبنى تأثرا فى قوله :

لقد كنت حسب النفس لو دام وصلنا
ولكنما الدنيا متاع غرور [٣١٦]

تأثرا بالآية الكريمة « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »[٣١٧] . ويقول الفرزدق :

أحيا العراق وقد ثلت دعائمه
عمياء صماء لا تبقى ولا تذر [٣١٨]

---

(٣١١) ديوان عمر ١٨٥ .
(٣١٢) سورة البقرة ٢٨٣ .
(٣١٣) ديوان عمر ١٩٣ .
(٣١٤) سورة المائدة ٢٩ .
(٣١٥) سورة التوبة ١٠ .
(٣١٦) شعر قيس لبنى
(٣١٧) سورة الحديد ٢٠ .
(٣١٨) ديوان الفرزدق ١/٣٤٩ .

تأثرا بألفاظ الآية الكريمة « وما أدراك ما سقر ، لا تبقى ولا تذر »(٣١٩) .

وعلى هذا النحو تتعدد الشواهد وتكثر مع شعراء العصر ، وكأن ثمة سبقا فنيا راحوا يحققونه من خلال تنافسهم حول مادة المعجم الإسلامى ، مما يظل دليلا قويا على أن هذا التيار قد ظل صاعدا بقوته ورسوخه فى نفوس الشعراء ، على الرغم من تعدد التيارات الحضارية والثقافية الوافدة من خلال الأمم المفتوحة . بل لعله راح يعوض العصر — إلى حد كبير — ما افتقده شعراؤه من سلوك دينى قويم إذ كادوا يتجاهلون رحلة القيم فى عصر صدر الإسلام ، ليقفزوا قفزا إلى الجاهلية على لغة العصبية والفحش والانتذاع خاصة منهم شعراء النقائض الذين أهدروا كل القيم الدينية أمام إحياء المادة الجاهلية ، فإن بقى لهم منها شىء فهو تلك المادة المرجودة من واقع المعجم الإسلامى .

ومهما يلفت النظر فى هذا المعجم أيضا أن التنافس قد ظهر بين الشعراء حول كل أنماط المؤثرات الإسلامية التى حاولنا توزيعها هنا تسهيلا لتناولها ، ومحاولة لحصرها نسبيا دخولا إلى الموقف التحليلى لها واستخلاص النتائج من خلالها ، فقد اجتاحت كل الموضاعات من شعر المديح إلى الهجاء ، إلى الرثاء ، إلى شعر السياسة ، حتى فن الغزل الذى يمكن أن نتصوره بمنأى عن هذا المؤثر وجدناه يستوعب منه الكثير لدى شعراء الحضر والبدو على السواء ، وعلى هذا يكشف المعجم — أول ما يكشف — عن حجم المؤثرات الإسلامية وقد تحولت إلى ظاهرة فنية تسود بين الشعراء ، فتشمل شعر العصر كله بكثير من صورها وملامحها ، فلم تفرق بين شاعر متدين وآخر رقيق العقيدة ، بل لعلها لم تفرق بين مسلم ونصرانى إذا وضعنا فى اعتبارنا — وهذا ضرورى — صدى هذا المعجم باعتباره المعرفى

---

(٣١٩) سورة المدثر ٢٨ .

وليس سلوكا لدى شاعر كالأخطل انتشر انصرانيته كثيرا ،

ولكنه لم يتردد في أن ينهل من هـذا المعجم خاصة أمام ممدوحيه من خلفاء المسلمين وتكفي رائيته في عبد الملك على ذلك شاهداً كاملا منذ قوله فيه مصوراً مرة خلافته لله في المسلمين على لغة القداسة التي اصطنعها شعراء الخلافة :

الخائض الغمر والميمون طائره
خليفة الله يستسقى به المطر

ومن ثم راح يدعو له دعاء إسلاميا بنصر من الله

إلى امرىء لا تعدينا نوافله
أظفره الله فليهنئى له الظفر

وهو ما يعود إلى تصويره في إمارته للمؤمنين :

فهو فداء أمير المؤمنين إذا
أبدى النواجذ يوم باسل ذكر

بل يتحدث الأخطل عن الضلالة وكأنما أدرك أبعادها ، فيعرضها من منظور سياسي طبعا :

وتستبين لأقوام ضلالتهم
ويستقيم الذى في خده صعر

فإذا انصرف إلى تعميم الصورة المدحية نسب جد الأمويين إلى الله سبحانه كما كان في تصويره لعبد الملك نفسه :

أعطاهم الله جدا ينصرون به
لا جد إلا صغير بعد محتقر

وإن كانت هنا سمة واضحة تظل شديدة الواقعية حول الفواصل الكبرى بين الأخطل وبقية شعراء العصر ، إذا نجد ندرة واضحة فى توقفه عند آيات بعينها ، وكيف يأتى بذلك وهو لا يقف عندها إلا من خلال ما يترامى إلى مسامعه منها ، ولذا تبدأ المعجم الإسلامى لديه أقرب إلى طرح ما وجده متناولا ومطروقا على الشعراء ، وبقى له منه فى صميم شعره ما طرحه حول العبادات الإسلامية من هجاء إما لينتصر لنصرانيته ، أو ليدافع عنها ضد من هجاه بها من شعراء النقائض الكبار خاصة جرير والفرزدق .

وعوداً إلى هذا المعجم فيما عدا الأخطل نتراءى لنا صورته وقد كشف عما يدور فى أذهن الشعراء من قضايا العبادات ، والتوحيد ، والبعث والحساب ، وغير ذلك من صور الفكر الدينى التى ظهرت جلية فى شعر الشعراء . ولم يقف الشعراء عند حدود المعانى أو الدلالة ، بل وصل الأمر ببعضهم إلى حد التقاط ألفاظ أو صور أو مواقف معينة ، ترصدها آيات قرآنية ليبتغين بها فى تزيين شعره أو تعميق دلالاته ، الأمر الذى وجدناه يسود كل الاتجاهات على وجه التقريب .

فإذا ما عدنا إلى معجم الشعر الإسلامى فى عصر رسول الله ﷺ والراشدين من بعده تبين لنا أن شعراء تلك الفترة قد استمدوا من المعجم فى موضوعات بعينها ، بما يتفق مع واقعية الفن الملتزم أخلاقيا واجتماعيا ، حين يأخذ مادته من معطيات عصره ، وبهذا تميز المعجم الإسلامى لدى شعراء الدعوة فى كثرة حديثهم عن رسول الله ﷺ مدحا له ، أو دفاعا عنه أو ردا على هجاء أصابه ، كما ظهرت الصور المتعددة حول الدعوة إلى الهجاء ، ونصرة الدعوة الإسلامية ، وقهر شعراء مكة ، وكلها أمور ترد بوضوح إلى طابع العصر ، ذلك أن رسول الله ﷺ كان موجودا بين صفوف المسلمين . وعلى هذا يعد دوران المعجم الشعرى حول شخص الرسول وصفاته أمرا مبررا ، يتسق مع طبيعة الفترة الزمنية للجيل الذى سبق من الشعراء ، بالإضافة إلى قدر واضح من الحرج عند شعراء العصر من تضمين الآيات

القرآنية ، أو الإسراف فى الإشارة إليها ، فى فترة لم يدون فيهـا القرآن الكريم أو السـنة الشريفة ، مما انعكس بدوره على الشعراء فى ندرة التأثيرات النصية من تلك الأصول الدينية ، خشية اختلاطها بالنص الشعرى • فإذا أضفنا إلى هـذا أن ثمة ازدواجية تأكدت فى قسمة جمهور المتلقين فى صدر الإسـلام بين مسلم ومشرك ، أدركنا طبيعة المؤثرات الإسـلامية على ذلك القدر المحدود ـ أحيانا ـ مع انتشار المؤثرات الجاهلية التى لم تمت بين عشية وضحاها من النفوس •

أما معجم شـعراء بنى أمية فقد صحبه اختلاف فى طبيعته النوعية والكمية معا عما رأينا فى صدر الإسـلام ، ذلك أن جمهور الشـاعر قد اختلفت طبيعته أيضا ، صحيح أن ثمة أحزابا سياسية تقض مضجع الخليفة ، وتريد أن تنقض على الحكم ، فتسلبه إياه ، وقد يصل الأمر بها إلى تكفير الحاكم باعتباره مغتصبا ما ليس له بحق من خـلافة المسـلمين ، ولكن هـذا الجمهور قد يصبح موضع هجوم من قليل من الشـعراء ، ومحل ثناء ومدح لدى الكثيرين منهم ، فقد تحولت عاصمة الخلافة إلى منطقة جذب يلتقى فيها الشـعراء من حول الخليفة مؤيدين ومدافعين عن شرعية الحكم فى أسرته ، ومن هنا بدا قبح المواجهة للخلافة من قبل شـعراء الأحزاب الأخرى ، وكذلك من قبل شـعراء الخلافة أنفسهم ضد تلك الأحزاب •

وطبقا لهذا التصور يبدو شـاعر العصر الأموى فى صـورته الاجتماعية أكثر هدوءا من ناحية جمهوره ، عما كانت عليه حال الشاعر فى صدر الإسـلام بين مسلم ومشرك تعكسه بلورة مدرستى مكـة والمدينة بين أقطاب كبار هنا أو هناك تظل الفجوة بينهما كبيرة جـدا لتعكس معركة التوحيدية مع الوثنية ، وهى الصورة التى تختفى من الجمهور الأموى أمام نهاية الوثنية ووحدة الجمهور ـ إلى حد واضح ـ على المستوى الدينى ، باستثناء النصارى من تغلب وغيرها •

من هنا راح الشاعر الأموى ينتقى من المعجم الإسلامى ما يستطيع أن يزين به قصيدته ، ويدعم به أفكاره وصورها ومعانيها وموسيقاها ، بعيدا عن ذلك الخسوف أو الحذر الذى سيطر على شعراء ما قبل التدوين ، أما وقد دون القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، واطمأن المسلمون إلى سلامة النصين المقدسين ، فلا مشاحة — إذن — من تضمين نصوص من أى منهما فى الأعمال الشعرية زيادة فى قيمتها وضمانا لأداء دورها لدى الجمهور المسلم .

ومن هنا راح شاعر بنى أمية يدعم شعره بالنصوص المقدسة — كما رأينا — على كل المستويات ، سواء عن طريق التضمين المباشر ، أو الصياغة غير المباشرة ، حيث يستوحى المعنى ، أو يفيد من معانى الآيات القرآنية لفظا وصياغة ، أو تصويرا ومعنى .

ويبدو واضحا طبيعة تطور المعجم الإسلامى ، وتنوع صوره وأشكاله كما ظهر لدى شعراء العصر ، إذ حاولوا صياغة كل ما استوعبوه ، وطرح ما استقر فى أذهانهم من الحس الدينى على مستوى الآيات معنى أو إيقاعا ، أو حتى من الأفكار والقيم الإسلامية التى حكمت حياة المجتمع ، وأفسحوا لها المجال لتظهر فى قصائدهم .

ولعل فى انتشار فن المدح وتوجيهه وجهة سياسية لصالح الحزب الأموى أو الأحزاب المناوئة له ، ما شجع الشعراء على مزيد من العودة إلى المعجم الإسلامى ، وعلى التنويع فى مصادر الأخذ منه كلما سنحت أمامهم فرصة للإفادة والتأثر ، وبدأ الشعراء يزكون فنهم من خلال شواهد التاريخ مدعومة بشواهد وثيقة من القصص القرآنى ، الذى استغل معظمه فى مواضع العظة ، وبث العبرة ، وتأكيد الاعتبار .

وعلى هذا النحو ظل المعجم الإسلامى للقصيدة الأموية وشاعرها موزعا بين الثبات والتغاير فى آن ، وهو ثبات عناصر وملامح أرساها

شعراء الدعوة فى العصر السابق ، ثم تغاير استجاب من خلاله الشعراء لطبيعة جمهورهم ، كما سمحت لهم به أيضا ظروف الإبداع وحالة الاطمئنان والهدوء بعد تدوين النصين المقدسين ، والاطمئنان أيضا إلى انتصار الفتوح الإسلامية التى امتدت إلى آفاق بعيدة شرقا وغربا ، ومعها اتسعت المساحة الجغرافية التى استوعب جمهورها مقومات هذا المعجم .

بل إن كثافة الحس الإسلامى وكثافة المعجم — بالصورة التى رأيناها — فى هذا العصر تظل مؤكدة الدلالة على أن الموقف الحضارى للإسلام لم يكن أقل تأثيرا من تيارات أخرى كثيرة ، أسهمت فى تطور القصيدة الأموية وتجديدها ، بل لعل كثافة المعجم تظل شاهدا على أن الرافد الإسلامى ظل متماسكا أمام تلك الروافد الحضارية ، لتظل قدرته مؤكدة على الانتشار ، وتعمق نفوس المبدعين والمتلقين على السواء . ويبدو الحكم هنا موضوعيا إذا قيس بما رصدناه من صور كثيرة تؤكد هذه الحقيقة وتدل عليها ، بالإضافة إلى ضخامته وكثافته أيضا إذا قيس بأى مؤثر حضارى آخر ، قد نجده قليل الانتشار أو السيادة فى القصيدة الأموية أو — على الأكثر — بدا قريبا منه أمام زحف الحس الحضارى والسياسى .

فإذا أضفنا إلى المعجم الإسلامى ما شهده العصر من حركة الزهد التى بدأ فى إرساء قواعدها طائفة من زهاد العصر ممن اتخذوا من العبادة والتقشف مسلكا فى الحياة ، كرد فعل لانصرافهم عن زخرف الدنيا ، إذا أضفنا هذا الجو الدينى — على انتشاره فى العصر — استطعنا أن نتعرف على طبيعة التيار الدينى الذى تدفق من واقع نفوس الشعراء ، فملأ دواوينهم ، وبدا طبيعيا لهم أن يصدروا عنها بتلك الكثافة . ويحسن هنا أن نسجل أن نزعة الزهد هذه لم تنشأ من فراغ ، ولم تكن وليدة العصر وحده بقدر ما كانت امتدادا طبيعيا لتقشف السلف ، وحرصهم على العمل للآخرة ، كل ما هنالك أن الزهد قد بدأ يتبلور كفلسفة إسلامية تحاول أن تخلص لنفسها ، حتى

لا تختلط بها صيغ أخرى من رهبنة المسيحية أو فكرتها حول التثليث أو الخطيئة أو تعذيب الجسد أو ما أشبه ذلك مما تتضمنته أيضا فلسفات الأمم المفتوحة ومذاهبها ، ومع استمرار نقاء الزهد الإسلامى تعمق التيار الدينى نفوس الشعراء ، فأمدها بتيار يدعم الجوانب الدينية التى سبق عرضها جملة وتفصيلا ، ولعل تجاوز شعر الزهد هنا فى الدراسة يظل علامة دالة على صدوره كاملا من المعجم الإسلامى ، ولعل الرجوع إلى مظانه الأولى لدى الزهاد الأمويين تكفى دلالة على ذلك ، فمن باب أولى أن يظل جديرا بدراسة خاصة باعتباره هو نفسه معجما إسلاميا له أصوله ومقوماته ، مما يجعل إضافته هنا فى زحام التيارات الأخرى الكثيرة ضربا من السلب لحقه فى درس مستقل يمكن الرجوع إليه فيما شغل به من دراسات متخصصة حول العصر الأموى[1] .

وربما ظل تعامل الشاعر الأموى مع مادة المعجم بهذا التنوع علامة دالة على رد الفعل لديه بما قد يكشف عدم تدينه إذا ما قارناه بمعجم الزهاد وما دار على لسان الحسن البصرى أو أبى الأسود الدؤلى أو غيرهم ممن شغلوا بتدينهم سلوكا وعملا ودعوة وتنظيرا وتطبيقا .

أما هذا الزحام الذى غصت به دواوين الشعراء فى الغزل أو الهجاء بصفة خاصة فيظل بمثابة كشف عن ضرب من استقصاء جوانب الفكر واستقراء مادته فى جميع مصادره فكان المعجم الإسلامى إلى جانب المعجم الجاهلى فى عصر الإحياء ، وإلى جانبهما معجم العصر الجديد بكل دلالاته السياسية والاجتماعية والحضارية المتنوعة .

وقياسا على هذا الفهم لك أن تعايش ديوان الشاعر الأموى وتدرس من المعجم الإسلامى لديه الكثير بشرط ألا تربط ذلك بتدينه من عدمه ، فقد وقعت المفارقة بين المعجم كفكر وثقافة وبين السلوك الذى طغت عليه معالم الحضارة ، وإلا اعتبرنا كل شعراء العصر زهادا وهم ليسوا كذلك على الاطلاق .

---

(١) راجع التطور والتجديد فى الشعر الأموى للدكتور شوقى ضيف .

بل ربما كان هـذا الإلحاح على مادة المعجم الإسـلامي ضربا من ردود الفعل لدى الشـعراء ممن أدهشتهم المـادة الجاهلية في عصر الإحياء، فكانت المـادة أمامهم على قدر من التنوع الذي دفع بهم إلى هـذا التكثيف سـواء في لغة التصوير أو التقرير الذي دعموا بها أشـعارهم .

وعلى مستوى الدلالة التي يكشفها تعامل أولئك الشـعراء ـ على كثرتهم ـ مع المعجم الإسلامي تظل المادة موزعة بين أبعاد مختلفة، يبقى ظاهرا منها ومسيطرا تلك الدلالة النفسية التي دفعت بالشاعر الأموي إلى محاولة احتواء كل مصادر ثقافته لشـق طريق الفحولة وتثبيت مكانته في عصره ، أو ربما لم يقصد إلى التنافس حول تلك الفحولة فظل كاشفا عما كمن في وجدانه من حس تراثي بدا هـذا المعجم جانبا منه لا يسـتطيع إلا أن يأخذ منه أخذا واعيا يكمل به مدركاته ومصادر فكره .

أما على مستوى الدلالة السلوكية أو الموقف الأخلاقي فربما وجدنا المفارقة واردة بينه وبين ما تحكيه أخبار الشـعراء وسيرهم ثم ما تؤكده قصائدهم ـ بل دواوينهم ـ التي تخصصت من أي من الفنون الشـعرية حتى أصبح الشاعر في إطار البلاط الأموي متزلفا منافقا إلى حـد بعيد ، خاصة منهم من بالغ في طرح قداسة الخلافة حتى جعلهـا تفويضا إلهيا ، ووظف في هـذا الاتجاه حسه الديني حين استوقفه فكر الجبرية ليطوعه في تأكيد الظاهرة حول شخص الخليفة الأموي ، فإذا خرجت من عالم المماليء والنفاق التقيت بصيغ من الفحش والاقذاع بما يعكس تخاذل الشاعر أمام القيم الإسـلامية التي ـ وإن تغنى بها ، وحشا بها شعره وزينه ـ بدا منفصلا عنها بشكل واضح ، وربما كان خضوعه لإيقاع الخصومة والرغبة في تصفيق الجمهور والاندفاع إلى تحقيق الفوز على الخصم ، ربما كان هـذا كله من وراء المفارقة السلوكية التي تعكسها مواقف الشـعراء حتى

ليكاد يضعك فى مفترق الطرق فلا تكاد تحسم أمره هل بدا متدينا أو رقيق العقيدة . ولدينا عند شعراء النقائض نصيب كبير يحسم الموقف من هذه الزاوية خاصة حين غالى شاعر النقيضة فى المساس بالأعراض والتغنى بالعصبيات وتزييف الأنساب وتغيير الحقائق. من وراء هذا كله ضرب من التناسى المؤكد أو التجاهل المقصود لكثير من تلك القيم التى استوقفته فى المعجم الإسلامى . وعند غير هؤلاء وأولئك تتعدد سلوكيات شعراء الغزل بما يكاد يضمها فى إطار سلوكى متشابه — خاصة المدرسة العمرية — بما يكفى لأن نتلقى من ديوان الشاعر معجما إسلاميا يفقد العلاقة الايجابية بما يترجمه موقفه الدينى وما يعكسه فى هذا الإطار .

أما لدى شعراء السياسة فقد شغلتهم قضية الالتزام الحزبى ودفعت بهم إلى ضروب من المبالغات حول نظرياتهم وأحزابهم ومبادىء فرقهم بما لا يطمئن فى النهاية إلى انعكاسات حقيقية لهذا المعجم فى سلوكهم ، إذ مازال الشاعر قاصدا إلى توظيف محدد لشعره ، يدفع به إلى تأويل الآيات وانتقاء المعانى التى يستطيع من خلالها النفاذ إلى حيث يريد ، بل حيث يريد منه حزبه ، وقد رأينا موقف الأخطل السياسى من بنى أمية وكيف يمن على الخليفة بدوره فى نصرته حتى كاد يكفر كل الأحزاب الأخرى ، وهى اللغة التى تداولها أيضا شعراء تلك الأحزاب فى محاولة لتكفير الخلافة .

أما عن الدوافع السياسية والاجتماعية فتظل واردة من خلال هذا الركام الفنى والسلوكى على اختلاف تصانيف الشعراء ، وكذا تخصص البيئات المختلفة خاصة ما كان من أمر شعر المدح والسياسة فى الشام ، أو شعر النقائض والشعر السياسى فى العراق ، ثم الشعر الغزلى العذرى والحضارى فى بوادى ومدن الحجاز .

وتبقى السمات الفنية الواردة حول استخدام الشعراء لهذا المعجم رهنا بالمطابع الغالب على أداء الشاعر الواحد مما يؤكد استمرارية

الفروق الفردية بين الشـــعراء ، أو قل الفروق الواضحة بين البيئات المختلفة ، على نحو ما انتشر من الصيغ التقريرية المباشرة التى انسحب أمامها التصوير فى أدب السياسة وشـــعر الاحتجاج ، وكذا فى المدح السياسى وقليل من الهجائيات . وقياساً على عكس ذلك نجد التصوير فى شـــعر الغزل وفى كثير من النقائض أيضا لأن الشاعر يبدو هادئا أمام تجربته التى تمرس بتصوير نظائر لها حتى تحول الاتجاه الغزلى إلى مدرســـة لها حدودها وخصائصها الفنية المتميزة ، أو لأن الشاعر يبدو ملحاً على إظهار فحولته فى عصر من عصور الجدل والصراعات الفكرية ، فكيف يظهرها إلا من خلال تداخل هـــذا الركام الفكرى فى القصيدة بما يدعم موقفه ويحوز به التفوق على خصمه حتى يفحمه .

وربما ظلت هـــذه السمات رهنا بانعكاسات مواقف الشـــعراء إزاء الفرق المتجادلة المتناحرة فى أفكارها ، فأصبحت تلك الأفكار مشاعا بين الشـــعراء ويظل للشاعر حق الاختيار للفرقة التى يأخذ بمبادئها ، ومن ثم يمارس حقه فى استغلال مصطلحاتها وتوجيهها فى شعره إلى حديث يريد ، ومن هنا كان تطويع الألفاظ مرة فى عالم الغزل ، وأخرى فى الهجـــاء ، وثالثة فى المـــدح ، ورابعة فى الســـياسة أو العصبية وهكـــذا ...

فإذا استطعنا أن نتلمس من هـــذا المعجم سمات الحياة الأموية من خلال شـــعرائها بدت الصورة واضحة جلية ، ويبقى امتدادهـــا الصحيح رهنا بانتقالنا إلى الحياة العباسية .

* * *

الفصل الثالث

فى العصر العباسى

١ ــ اتجاهات الحياة العباسية ٠
٢ ــ روميات الشعراء ٠
٣ ــ التاريخ الإسلامى ٠
٤ ــ المذاهب الفكرية ٠
٥ ــ الزهد والتصوف ٠
٦ ــ سمات المعجم ٠

ومع ما شهدته البيئة العباسية من تطور فى فنون الشعر ، وتعدد فى موضوعاته ظلت صلة شعراء العصر بالتراث الإسلامى وطيدة بشكل يلفت النظر ، وحين نقول يلفت النظر على الرغم من أنه موقف طبيعى على الصعيد التاريخى إذ أن العصر هو امتداد للعصر الإسلامى ، فإنما نقصد بذلك إلى ما عرف عن البيئة العباسية من انتشار تيارات الفساد الاجتماعى ، والتحلل الأخلاقى ، وانهيار الكثير من القيم فى إطار الزندقة والمجون واللهو ، والعبث بقضايا الغيب وأصول العقيدة لدى بعض كبار شعراء العصر ، والإسراف فى ممارسة المتعة المحرمة فى مجالس الندماء ، وشرب الخمر وغيرها من صور العربدة والتحلل من كثير من القيم ويكفى شاهداً أن يتتبع الموقف الجغرافى للمجون العباسى فى المدن المختلفة ، ثم فى الأديرة خارج المدن ، ثم فى المتنزهات والرياض والحدائق ، وفى دور الشعراء ومجالس الغناء ودور القيان ، بل حتى فى القصور العباسية ذاتها ، فماذا بقى إذن لغيرها من التيارات ؟

ووسط هذا الزحام من أصوات اللاهين والمجان وعربدة السكارى والذمورين اللاهثين وراء اللذة المؤقتة شهد العصر نغمة اسلامية رددها الشعراء فى جل موضوعات الشعر ، فلم يعرف المعجم الإسلامى سبيلا إلى الخفوت أو الأفول ، بل زاحم الحضارة وقاوم سلبياتها ، واستمال الكثير من شعرائها وانتشر فى كثير من الموضوعات التقليدى منها والمستحدث على السواء .

ولعل أكثر صور المعجم الإسلامى انتشارا ما ورد على ألسنة شعراء المدح ممن أداروا حوارات دينية مكررة حول فضائل ممدوحيهم ، فصور فريق منهم حركة الجهاد الإسلامى ضد الروم وغيرهم من أعداء الإسلام ، وراحوا يترقبون حركة الخلافة فى نصرة الدين ، والدفاع عن الرعايا حرصا على توثيق الغزوات ، وتصوير

الحروب من حيث دوافعها وأحداثها ونتائجها ، ورصد الانتصارات التى زادت أحداث التاريخ توثيقا ، بل ربما أضافت إليها من التفاصيل كثيرا من الصور فى عصر شهد مكانة الشاعر وسيلة إعلامية يعتمد عليها كل الاعتماد .

ومع قصيدة المدح بدا موضوعها أكثر قابلية للتطويع لاكتساب صور من هذا التيار الإسلامى ، واستيعاب كثير من صور معجمه وتقاريره . فقد اتسعت حدود دائرة الفضيلة فشملت وقائع وأحداثا جساما ، عاشها الخلفاء فى حروب دامية مع أعداء الإسلام من الروم ، الأمر الذى جعل الممدوح العباسى يظهر كفارس مسلم يدافع عن الدين ، ويحتسب عند الله أجره قبل أى اعتبار آخر ، على النحو الذى رسخه قول أبى تمام فى دوافع المعتصم فى فتح عمورية :

هيهات زعزعت الأرض الوقور به
عن غزو محتسب لا غزو مكتسب (١)

ودوافع تدبيره للغزو :

تدبير معتصم بالله منتقم
فى الله مرتقب فى الله مرتغب

وهو ما طرحه فى صورة أكثر وضوحا ومباشرة :

يا فارس الإسلام أنت حميته
وكفيته كلب العدو المعتدى (٢)

وكذا على نحو ما صوره من شجاعته التى ركزها فى ثغور الدولة ، لكى يحمى حماها ، ويدفع عن الإسلام خصومه :

أصبحت مفتاح الثغور وقفلها
وسداد ثلمتها التى لم تسدد

---

(١) الديوان

(٢) الديوان ٢/١٣٨ كلب العدو : أذاه وشره .

فهو يشكل الصورة ــ هنا ــ من منظور دينى محض ، رسخ فى ذهنه قياسا على ما عرضه فى لوحة عمورية حين كرر إسناد فتحها وتحطيم حصونها إلى الله سبحانه :

من بعد ما أشبوها واثقين بها
والله فتاح باب المعقل الأشب

وبذا تزداد صورة الخليفة إشراقا حين يغلفها الشاعر بذلك الطابع الدينى المحض ، لا من حيث الدوافع فحسب ، بل من حيث التقدم الفعلى فى القتال ، على النحو الذى سجله أبو تمام أيضا حين نسب تقدم المعتصم إلى الإرادة الالهية لا إلى قدراته البشرية فى قوله :

رمى بك الله برجيها فهدمها
ولو رمى بك غير الله لم تصب

فلا مانع لدى الشاعر من أن يجعل ممدوحه البطل المسلم مجرد أداة يرمى بها الله خصوم دينه ، ولو كان الممدوح وسيلة من عند غير الله لكانت الهزيمة من نصيبه ، وهو ما نجده يتردد أيضا عند أشجع السلمى فى قوله :

وليهنك الفتح والأيام مقبلة
إليك بالنصر مقودا نواصيها
أمست هرقلة تهوى من جوانبها
وناصر الله والإسلام يرميها
إن الخليفة سيف لا يجرده
إلا الذى ملك الدنيا وما فيها (٣)

وكأن كلا من الشاعرين راح يصوغ فى فنه معنى الآية الكريمة حول حروب رسول الله ﷺ وغزواته « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »(٤) .

(٣) الأغانى ١٨/ ١٧٤ .
(٤) سورة الأنفال ١٧ .

ولذا ردد بعض شعراء الزهد ما ينطق بالربط بين أحداث التاريخ الإسلامى على هذا النحو الذى قاله عبد الله بن المبارك فى منطق الجهاد مؤكدا ما يذهب إليه بالكتاب الكريم ، وما ورد عن رسول الله ﷺ :

ولقد أتانا عن مقال نبينا
قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى وغبار خيل الله فى
أنف امرىء ودخان نار يلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا
ليس الشهيد بميت لا يكذب (٥)

وتتوالى الأحداث ومعها يزداد مدد المعجم الدينى وتزداد دائرة الفضيلة الإسلامية اتساعا وعمقاً ، حتى مع نتائج الحروب التى لم يستهدف منها الخلفاء غنائم ولا اكتساب ، بقدر ما سيطر عليها من قداسة الرغبة فى نصرة الدين ، على المنهج الذى عرضه أبو تمام أيضا ، حول المقارنة التى عقدها بين فتح عمورية وبين يوم بدر فى قوله :

إن كان بين صروف الدهر من رحم
موصولة أو ذمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتى نصرت بها
وبين أيام بدر أقرب النسب

وكأن هذا الربط لم يكن إلا نتاجا طبيعيا للمسلك الدينى القويم ، الذى خرج على أساسه المعتصم غازيا ، وبذا كانت نتائج الفتح مجسدة فى تعبير السماء عن سعادتها به قبل الأرض :

فتح تفتح أبواب السماء له
وتبرز الأرض فى أثوابها القشب

---

(٥) النجوم الزاهرة ٢/١٠٣ .

كما سعد به الإسلام تصريحا فى قول أشجع :

يثنى على أيامك الإسلام
والشاهدان : الحل والإحرام
وعلى عدوك يا ابن عم محمد
رصدان : ضوء الصبح والإظلام(٦)

وهو مابدا شديد الوضوح أيضا فى مدح أبى تمام لأبى سعيد محمد ابن يوسف الثغرى فى قوله :

يوم به أخذ الإسلام زينته
بأسرها واكتسى فخرا به الأبد
يوم يجىء إذا قام الحساب ولم
يذممه «بدر» ولم يفضح به «أحد»(٧)

وإذا هو أيضا يضحك الأرض المقدسة من منظور دينى كما أسعد به السماء :

ضحكت له أحياء مكة ضحكها
فى يوم بدر والعتاة الشهد(٨)

ولم يكن أبو تمام الفارس الوحيد الذى صور بلسانه روعة النصر الدينى فى عمورية أو غيرها من روميات الخلافة العباسية ، فقد شاركه فى ذلك على بن الجهم بنفس المستوى الانفعالى ، والصدق التصويرى فى عرض نفس الفتح أيضا وما كان من استحسان نتائجه :

مناظر لا يزال الدين منها
عزيز النصر ممنوع المرام(٩)

وإذا بالنتائج تبنى على نفس المقدمات الدينية على شاكلة قول أبى تمام :

---

(٦) البيان والتبيين ٣/٣٢٥ (٧) ديوان أبى تمام ٢/١٢
(٨) ديوان أبى تمام ٢ ١٣٨ (٩) ديوان على بن الجهم ٩

وعمـورية ابتدرت إليهـــا
بوادر من عـزيز ذى انتقـام

وإذا بالشرك يلقى مصرعه أمام جحافل المسلمين ، لتكون الحرب ـ فى جملتها ـ دينية ، وليكون الخروج إليها جهادا إسلاميا يترجمه ما كان من تهاوى عمورية ، ورفع راية الإسـلام ، على نحـو ما صوره قول أبى تمام أيضا :

حتى تركت عمـود الشرك منقعـرا
ولم تعرج على الأوتاد والطنب

ومن هنا كان تأكيد قوله :

أبقيت جد بنى الإسـلام فى صعد
والمشركين ودار الشرك فى صبب

أو فى نتائج المعركة فى ختام القصيدة ذاتها :

أبقت بنى الأصفر المراض كاسمهم
صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

وهى صور تداولها الشعراء ، وتعاورتها ألسنتهم ، وتزاحمت عليها خواطرهم ، فكانت قريبة منها أيضا صـورة أبى الشيص حـول هزيمة الشرك أمام الإسـلام على هـذا العمق التصويرى الطريف :

شـددت أمير المؤمنين قوى الملك
صدعت بفتح الروم أفئدة الترك
فريت سـيوف الله هام عـدوه
وطأطأت للإسلام ناصية الشرك(١٠)

وفى موازاة التحول الذى أصاب قصيدة المدح الأموية حين وزعها شاعر العصر بين مدح تقليدى وبين لوحات السياسـة الخالصة نجـد

(١٠) أشعار أبى الشيص ٨٥

القصيدة العباسية تأخذ نفس المنحى من القسمة على مستوى الشكل ، ولكن من منظور آخر يعكس طابع التحول الذى أصاب العلاقات الخارجية والداخلية فى الدولة ، فقد أخذت الخلافة بمبدأ القسوة والعنف مع أهل الفتن والمناوئين لها من بقايا الفرق السياسية ، حتى كادت — بذلك — تسكت أصوات المعارضة وعندها تهاوى الصوت السياسى الذى ارتفع فملأ الأذان فى عصر بنى أمية من قبل الشيعة والخوارج والزبير يين .

وفى مقابل هذا التهاوى ارتفعت أصوات أخرى تهاون معها خلفاء بنى العباس ، ربما من قبيل المجاملة أو من قبيل الخوف والحذر أو المهادنة ، وربما أخذ الخلفاء — آنئذ — درسا أليما من وقائع الأحداث التى دالت لهم من بنى أمية ، فأرادوا أن يضمنوا لسياستهم أنصارا من الأمم المفتوحة التى شاركت فى إسقاط الحكم الأموى من ناحية أخرى ، وهو الأمر الذى نجم عنه توجيه معظم طاقات الخلفاء من ناحية أخرى ، وهو الأمر الذى نجم عنه توجيه معظم طاقات الخلفاء إلى السياسة الخارجية حول مناطق الثغور ، وترقب حركات الروم التى قصدت إلى تهديد الدولة الإسلامية ، ومن ثم عرفت القصيدة المدحية قسمة جديدة لها على أساس من تلك السياسة الخارجية فكانت معرضا للمدح والهجاء معا ، حيث راح الشاعر يتبنى قضايا الإسلام من منظور تعارضه مع قضايا الشرك عى عكس ما نراءى لنا من صراعات الفرق الإسلامية وتكفير بعضها بعضا على نحو من الصراحه ترجمة قول نصر فى المرجئة :

إرجاؤكم لزكم والشرك فى قرن
فأنتم أهل إشراك ومرجونا

وبذا كان طرح هذه الصور على سبيل التناقض قاسما مشتركا بين كبار شعراء العصر على النحو الذى اصطنعه أبو تمام فى بائيته فى عمورية ، وعلى النحو الذى سارت فى إطاره حركة الجهاد الدينى

على المستوى الداخلي أيضـا في مثل نهوض المعتصم بالله ضـد قائد جيوشه (الأفشين) حين انكشف له أمره ، وتبينت خيانته ، وافتضح نواياه التي جسدتها محاولته لإعادة ديانة الفرس (المجوسية) ، وما تأكد حوله من أن قوما من الفرس كانوا يكاتبونه باسـم (إله الآلهة) ، وأنه كان دائم التربص بالمسـلمين حتى كشف الله للمعتصم أمره فصلبه ثم أحرقه (سنة ٢٢٥ هـ)[١١] .

ووجد أبو تمام فرصته في هـذا الجو الغامض الكئيب ، ليطرح أبعاد الموقف من منظور ديني محض ، عرض فيه من أوحات الفن ما يعكس أثر المعجم الإسـلامي في نفسه ، على نحو ما ردده في قصيدته الرائية المشـهورة ومطلعها :

الحـق أبلج والسـيوف عـوار
فحذار من أسد العرين حذار[١٢]

وفيها يقول موثقا صلة الخليفـة بدينه وتمسـكه به ودفاعه الدائم عنـه :

ملك غدا جار الخلافة منكـم
والله قد أوصى بحفظ الجـار

فلعله بذلك أشـار إلى دلالة الآية الكريمة « والصاحب بالجنب وابن السـبيل »[١٣] .

أو حديث رسول الله ﷺ « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سـيورثه » .

وهو يضخم من حجم الفتنة حين تصل إلى درجة معصية الله تعالى ، على نحو ما كان من كاوس بن خيدز (الأفشين) :

---

(١١) تراجع تفاصيل تلك الوقائع في مقدمة ابن خلدون ٣/٥٦٨ ، الطبري ٩/١٠٤ .

(١٢) ديوان أبي تمام ٢/١٩٨ ، ابن الأثير ٥/٢٥٩ .

(١٣) سورة النساء ٣٦ .

يارب فتنـــة أمـــة قد بزهـــا
جبـــارها فى طاعة الجبـــــار

مصورا بعد ذلك طغيانه وكفره فى لوحة كاملة ، يعرض فيهـــا موقفه منـــذ خرج على المعتصم ، وتنكر له ، وبطر على نعم الله التى غمرته فى ظلال حكمه :

كم نعمـــة لله كانت عنـــده
فكأنهـــا فى غـــربة وإســـار

ثم يؤكد ما كمن فى صدره من كفر بالله ، وكيف طبع على النفاق :

حتى إذا ما الله شـــق ضميره
عن مستكن الكفـــر والإصـــرار
ونحا لهـــذا الدين شـــفرته انثنى
والحـــق منـــه قانىء الأظفـــار

متأسيا فى ذلك بالمعانى والصور التى وردت فى الآيات القرآنية فإذا بالطغيان ينتهى إلى « دار البوار » :

جالت بخيزد جولة المقـــــدار
فأحله الطغيـــان دار بـــــوار

مســـتوحيا فى ذلك معنى الآية الكريمة (وأحلوا قومهم دار البوار)[١٤] وكذا فى قوله :

مكـــرا بنى ركنيـــه إلا أنـــه
وطد الأساس على شـــــفير هار

متأثرا أيضا بدلالة النص القرآنى من قوله تعالى « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هـــار »[١٥] واذا بالشـــاعر لا يترك الأفشين حتى يكشف طابع

---

(١٤) سورة إبراهيم ٢٨ .
(١٥) سورة التوبة ١٠٩ .

عقيدته ، وما كان من جنايته على الاسلام لولا أن كشف الله أمره : فاذا هو من رءوس الشرك وعباد النار :

مشبوبة رفعت لأعظم مشرك
ما كان يرفع ضوءها للسارى
صلى لها حينا وكان وقودها
ميتا ويدخلها مع الفجار

مستأنسا فى ذلك بدلالة الآية الكريمة (وإن الفجار لفى جحيم)[١٦] وإذا هو يعاود تصوير عشقه للكفر ، وحرصه عليه ، فلا يكاد يجد معادلا للموقف إلا من خلال ما التقطه من التاريخ الأدبى من غزل الفرزدق فى زوجته « نوار » وما حدث من ندمه من جراء تطليقه إياها ، فيقول أبو تمام عن الأفشين وكفره معرجا على هذا التاريخ :

فإذا ابن كافرة يسر بكفره
وجدا كوجد فرزدق بنوار

ومن ثم اشتد حرصه على إخراج الأفشين من دائرة المسلمين ممن أخلصوا لدينهم ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، فيستعيد آنئذ من مشاهد التاريخ الإسلامى إحدى صور الرعيل الأول ، ويختص منهم أبا بكر وما كان من صحبة الوفاء لرسول الله ﷺ فى الغار على النحو الذى صوره القرآن الكريم « إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا »[١٧] فاذا بالأفشين يلحق بأقرانه من المارقين المرتدين ، وينضم إلى حزب الكفار على عكس ما عرفه الإسلام من تلك الصحبة المقدسة التى بدا الدين قوامها الأول :

ثانيه فى كبد السماء ولم يكن
لاثنين ثان إذ هما فى الغار

---

(١٦) سورة الانفطار ١٤ • (١٧) سورة التوبة ٤٠ •

ولا يكاد أبو تمام يختتم قصيدته ، حتى يستطرد عودا إلى كشف أبعاد أخرى من كفر الأفشين بالنبوة والهدى ، ليبدو جزاؤه بذلك من جنس عمله :

كادوا النبـوة والهـدى فتقطعت
أعناقهم في ذلك المضـمار

تنفيذاً بذلك لجزاء الذين أفسدوا في الأرض « أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض »[18] ذلك أن مكر هـؤلاء لا يساوى شـيئا أمام قدرة الخالق على الانتقام منهم « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »[19] وهؤلاء ينالون جزاءهم بناء على مقدمات أسرفوا فيها وتمادوا في غيهم « ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب »[20] . ولم تكن الإطالة في التوقف عند أبي تمام كشفاً لقصر المعجم الإسـلامي عليه دون سواه من شـعراء العصر العباسي ، بقدر ما تبدو مؤشراً لشيوع الظاهرة حتى عند من خاضوا القول في الزندقة من قبله ، إذ نجد بشارا في مستهل العصر العباسي يحاول أن يشـيع في أبياته من هـذا الحس الإسـلامي بعضا من المعاني التي حاول فيها أن يقترب من شـعراء عصره في القدرة على الأخذ ، والإفادة من المعجم الإسـلامي ، وربما كان المديح أقرب الموضوعات أمامه لاستيعاب هـذه المعاني الإسـلامية ، وتلك القيم التي أعاد بشار طرحها في دائرة فضيلة ممدوحه من منطق التقوى ، والحرص على دينـه ، والذود عنه ، وما يصحب ذلك من وقاره وحلمه حتى ليبالغ في تصوير هـذه الصفات حين يقرنها بما كان في رسول البشرية عليـه الصلاة والمسـلام ، فيقول بشـار في الخليفة المهـدي :

---

(١٨) سورة المـائدة ٣٣ .
(١٩) سورة الأنفال ٣٠ .
(٢٠) سورة الأنفال ١٣ .

فتـــى قريش دينـــا ومكـــــرمة
وهبت ودى له بمـــا وهبـــــا
يعطيـــك ما هبت الريـــاح ولا
يطمـــع فى دينه وإن قربـــا
شـــهم وقـــور يزين غرتـــه
حلم وزان الوقار ما اجتنبـــــا
ترى عليـــه ســـيما النبـــى وإن
حارب قوما أذكى لهم لهبـــا[٢١]

كما قال فيه أيضا مصورا الموقف بينه وبينه ، حين منعه من القول الصريح فى الغزل ، أو التعرض لطريق الغواية والسىء من القول :

تثاقلت إلا عن يد أستفيدهـــا
وزورة أملاك أشـــد بها أزرى
وأخرجنى من وزر خمســـين حجة
فتى هاشمى يقشعر من الوزر
فلا تعجبى من خارج من غواية
نوى رشدا قد يعرض الأمر فى الأمر
فهذا وإنى قد شرعت مع التقى
وماتت همومى الطارقات فما تسرى[٢٢]

فهو لا يكشف عن تأثر مباشر بمعان معينة لآيات بعينها ، ولكنـــه يبدو قادرا على تلمس أبعاد ســـبيل الرشـــد والهداية حين ينأى بنفسه عن غوايتها وضلالها ، ثم هو يأخذ من هـــذا السلوك الدينى ما يضفيه على الخليفة الذى يقشعر من الوزر ، ثم ما يضفيه على نفســـه وقد اثر طريق الهداية وشرع فى سبيل التقى ما يتنافى مع منطقة العبثى الذى أحس فيه خفة ظله فبالغ فى تصويرها حين قال فى نفس الموقف من منظور يبعد عن هذا الحس الدينى ويتنافر معه :

---

(٢١) ديوان بشار ١/٣٢٧
(٢٢) ديوان بشار ٢/٢٥٠

ونهـانى الملك الهمـا م عن النسيب وما نوتيـه
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئا أبيتـه
والله رب محمـد ما إن قصدت ولا نويته

ولم يقف الشـعراء عند موضوع المديح وحده بل أفسـحوا للمعجم الإسـلامى مجالات أخرى كثيرة كثر فيها حوارهم على صعيد الموضوعات المختلفة حربية كانت أو غير حربية، الأمر الذى يكشف عن دقة صلتهم بهذا المعجم ، فأخذوا منه الكثير من المعانى والصور فى زهدهم ، وهنا بدا إخراج الصورة جديدا بحكم سـيرة الشاعر الزاهد حين يستوقفه ـ أيضا ـ ذلك الطابع الدينى للحروب على النحـو الذى ذهب إليه أبو العتاهية حين ذكر خروج الرشيد لقتال بندار هرمز بطبرستان (٢٢):

ألا إن حـزب الله ليس بمعجـز
وأنصـاره فى منعـة المتحـرز
أبى الله أن يعصى لهارون أمره
وذلت له طوعا يد المتعـزز
إذا الراية السـوداء راحت أو اغتدت
إلى هارب منهـا فليس بمعجـز
أطاعت لهارون العـداة لدى الوغـى
وكبر للإسـلام بندار هرمـز

وبذلك انتشر الحس الإسـلامى فى لوحات الحروب لدى شعراء المديح الذين نالوا مكانة مرموقة فى هـذا الفن ، أو من آثر منهم طريق الزهد على نحو ما كان من أبى العتاهية الذى لم تكد صورة تخلو لديه من ذكر الله سبحانه وتعالى ، والإلحاح على ذكر الدين ونسبة النصر فى الحروب إلى الله وهو النحو الذى ردده مسلم بن الوليد أيضا فى ثنايا مدحه داود بن يزيد :

والله أطفأ نار الحرب إذ سعرت
شرقاً بموقدها فى الغرب داوود

---

(٢٣) شـعر أبى العتاهية ٦٣.

ناضلتهم ـ زائد الإسلام تقرعهم
عنـــه ثلاث ومثنى بالمواحيـــد
يجود بالنفس إن ضن الجواد بها
والجود بالنفس أقصى غاية الجود
لايبعدمنك حمى الإسلام من ملك
أقمت قبلته من بعـــد تأويـــد
أجرى لك الله أيام الحيـــاة على
فعل حميد وجد غير منكـــــود
لا يفقد الدين خيلا أنت قائدها
يعهدن فى كل ثغر غير معهـــود

من هنا تبدو اللوحة قائمة على أساس من طرح الحس الإسلامى الذى يترجمه ســلوك القائد فى حروبه ، دون أن يأبه فى ذلك بمطامع دنيوية أو غنائم ، بل يقبل على الموت إقبالا دينيا صرفاً يعكس سلوك المســلم فى قوة إيمــانه ، حين تلتقى فى نفســه الفضائل الدينية القويمة ، تلك التى يستجمعها الشاعر فى قليل من الأبيات على النحو الذى صور فيه يزيد بن مزيد الشيبانى قائلا :

لا يســتطيع يزيد من طبيعتـــه
عن المنية والمعروف إحجـــاما
خيل له ما يزال الدهر يقحمهـــا
فى غمرة الموت يوم الروع إقحاما
أذكرت سيف رســول الله سنـــنته
وبأس أول من صلى ومن صاما
قطعت فى الله أرحام القريب كما
وصلت فى الله أرحاما وأرحاما
يطيب منك مع الآمال صـــاحبها
حلما وعلما ومعروفا وإســـلاما(٢٤)

(٢٤) ديوان مسلم بن الوليد ٦٢ ـ ٦٧ .

ولعل الجانب الإسلامي في لوحات المدح الحربي قد طرح على الشعراء من الثقة في انتصارات ممدوحيهم الكثير ، وإذا بالشاعر يتحول من مجرد مادح إلى ناصح ومرشد وموجه ، تدعوه ثقته في تدين ممدوحه والنصر الإلهي المرصود له ، تدعوه إلى أن يزداد عنفا في قتاله ، ويشتد غضبه من أجل الدفاع عن دينه ، على نحو ما كان من تحريض محمد بن يوسف لهارون الرشيد على العودة إلى غزو بلاد الروم وتأديب ملكهم « نقفور » بعد أن نكث عهده معه :

نقض الذي أعطيته نقفور
فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه
فتح أتاك به الإله كبير
فلقد تباشرت الرعية أن أتى
بالنقض عنه وافد وبشير
ورجت بيمنك أن تعجل غزوة
تشفي النفوس مكانها مذكور
نقفور : إنك حين تغدر أن نأى
عنك الإمام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مفلت
هبلتك أمك ما ظننت غرور
ألقاك حينك في زواخر بحره
فطمت عليك من الإمام بحور
ملك تجرد للجهاد بنفسه
فعدوه أبدا به مقهور (٢٥)

وإذا بصدى الموقف ينعكس لدى أشجع السلمى ولكن بعد الانتصار فراح يهنىء الرشيد لما فتح « هرقلة » وهزم « نقفور »

---

(٢٥) ديوان مسلم ٢٥

مما يذكرنا بموقف أبي تمام من بعده فى فتح عمورية ، يقول أشجع :

وليهنك الفتح والأيام مقبلة
إليك بالنصر معقودا نواصيها
أمست هرقلة تهوى من جوانبها
وناصر الله والإسلام يرميها
إن الخليفة سيف لا يجرده
إلا الذى يملك الدنيا وما فيها (٢٦)

وهو النهج الذى شاعت فى إطاره صور الانتصارات الحربية من منظور دينى ، حتى أصبحت قاسما مشتركا بين شعراء العصر الذين راح يكرر بعضهم بعضا ، بل راح الواحد منهم يكرر نفسه بين قصائده ، فهو يصدر من نفس المنطلق الذى يسيطر عليه فيه المصدر الإسلامى ، وإذا بالظاهرة تشيع إلى درجة من العمق ، فتشمل كل شعراء العصر — تقريبا — ممن كان منهم على قدر من التدين ، أو حتى الخلفاء الذين أرادوا إظهار تدينهم وواجبهم إزاء العقيدة ، حتى يخففوا من إحساسهم بنفور المجتمع منهم ، فإذا بالحسين بن الضحاك يصور الطابع الإسلامى فى انتصارات ممدوحه قائلا :

نرى النصر يقدم راياته
إذا ما خفقن أمام العلم
وفى الله دوخ أعداءه
وجرد فيهم سيوف النقم
وفى الله يكظم من غيظه
وفى الله يصفح عمن حرم (٢٧)

---

(٢٦) الأغانى ١٩٦ أشعار الخليلى ٩٨ ؛
(٢٧) نفس المصدر .

وبذا بدأ يوسع من دائرة الفضيلة حين يتمس أخلاق الممدوح حتى فى تعامله مع أعدائه ؛ ويسبق ذلك — بالضرورة — تعامله مع رعاياه ، فإذا هو يسلك سلوكا إسلاميا يدخله ضمن دائرة « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس »(٢٨) على النحو الذى صورته الآية الكريمة .

وعلى هذا النهج — أو قريبا منه أيضا — اتسعت دائرة الفضيلة ، ورسم الشعراء صورا عديدة للممدوحين من هذه الزاوية الدينية التى عرضوا فيها نماذج مثالية من سلوكهم ، أساسها التقوى والورع والتمسك بمكارم الأخلاق ، على النحو الذى عرضه أبو تمام من خلال حسن التنسيق والترصيع معا فى قوله :

تدبير معتصم بالله منتقم
لله مرتقب فى الله مرتغب

وعلى نحو ما صورته إسحاق الموصلى فى تصويره للمعتصم أيضا من جمعه بين جمال الخلقة والخلق من منظور دينى يراه فيه :

كسى الجلال مع الجمال وزانه
هدى التقى ومكارم الأخلاق (٢٩)

ولذلك يبدو الشاعر شديد الحرص فى حواره الدينى ؛ فيقترب بالخليفة من سنة رسول الله ﷺ ؛ حيث يبدو بها متمسكا ، وعليها حريصا ، مما يدعم تلك الصفات الدينية فيه على النحو الذى ذهب إليه مروان بن أبى حفصة فى قوله :

أحيا أمير المؤمنين محمد
سنن النبى خلالها وحرامها
كلتا يديك جعلت فضل نوالها
للمسلمين وفى العدو وبالها

---

(٢٨) سورة آل عمران ٣٤ .

(٢٩) ديوان إسحاق الموصلى ١٥٦ .

وقعت مواقعها بعفوك أنفس
أذهبت بعد مخافة أوجالها
أمنت — غير معاقب — طرادها
وفككت من أسرائها أغلالها
ونصبت نفسك — خير نفس — دونها
وجعلت مالك ولقيّ أموالها (٣٠)

فإذا الممدوح يبدو عنده رجل دين من الطراز الأول ، فهو يسير على نهج رسول الله ﷺ ، ويحرص على إحياء سنته الشريفة من قبيل التشريع ، وبيان القول الفصل فى الحلال أو الحرام ، وعندئذ يأخذ فى إحياء السلوك اقتداء به عليه السلام ، واستفادة بعفوه عند المقدرة ، الأمر الذى يدفع الخليفة إلى حماية رعيته والحفاظ على أمنها ، فإذا ما كان فى مواقف الحروب أصدر عفوه عن الأسرى ، ولم يعرف سبيلا يؤدى إلى البخل على رعاياه ، بل يحمى الرعية ، ويبذل لها ما يكفيها ، ويسد حاجتها .

وتتسع دائرة الفضائل الإسلامية فى أشخاص الممدوحين ، ومعها يزداد حرص الشعراء على عرض تفاصيلها ، وقد استعانوا فى ذلك بما ثقفوه وزاد به وعيهم من مادة المعجم الإسلامى ، فإذا بأشجع السلمى أيضا يعرض فى مدح الرشيد صورة كاملة أساسها ما ردده أبو نواس فى نفس الممدوح أيضا فى قوله :

إمام يخاف الله حتى كأنه
يؤمل رؤياه صباح مساء (٣١)

لتصبح الصورة أكثر تركيبا عند أشجع ، حين يلتقى موجب الشخصية لديه فى السلم بموجبها أيضا فى ميدان القتال فإذا هو :

---

(٣٠) ديوان مروان ٨١ .
(٣١) ديوان أبى نواس ٤٠٣ .

ملك من مخافة الله مغض
وهو مغضى له من الإعظام
ألف الحج والجهاد فما ينف
ك من سفرتين في كل عام
سفر للجهاد نحو عدو والمطا
يا لسبرة الأرحام
طلب الله فهو يسعى إليه بالمطا
يا وبالجياد السوامى
فيداه : يد بمكة تدعو
ه وأخرى في غزوة الإسلام

فإذا الممدوح لا ينوانى عن الخروج الدائم فى جهاده الدينى فى سبيل الله ، فهو فى حروبه مجاهد يحتسب عند الله تعالى أجره ، وفى سلمه يلتزم بالصورة الأخرى من الجهاد حول جهاد النفس ، والحرص على أداء فرائض الله تعالى ، وتلبية المناسك فى المشاعر المقدسة سعيا فى طلب رضا مولاه سبحانه ، من خلال يد تدعو وأخرى فى سبيلها الدائم إلى الغزو والاستمرار فى القتال لنصرة الإسلام .

ولعل اللوحة بهذا الشكل قد صارت ــ أيضا ــ من ذلك القاسم المشترك بين أبى نواس ومروان ، إذ يبدو التوافق واردا بين كثير من ملامحها وجزئياتها ، إذا ما عرضنا فى موازاتها قول النواسى :

هارون ألفنا ائتلاف مودة
ماتت لها الأحقاد والأضغان

فى كل عام غزوة ووفادة
تثبت بين نواهما الأقران
حج وغزو مات بينهما الكرى
باليعملات شفاؤها الوخدان

يرمى بهن نياط كل تنوفة
في الله رحال بها ظعان
يصلى الهجير بغزة مهدية
لو شاء صان أديمها الأكنان
لكنه في الله مبتذل لها
إن التقى صمد ومغتان (٣٢)

فلم يظهر هارون عنده إلا وقد إمتلك القدرة على تأليف قلوب المسلمين جميعا ، مكتسبا من التاريخ الإسلامى الأسوة الحسنة على النحو الذى سجلته الآيات الكريمة فى رسول الله ﷺ « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »(٣٣) « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »(٣٤).

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك »(٣٥).

ففى ثنائية من هذا الجهاد المقدس يعيش هارون حياته بين غزو وحج ولا ثالث لهما عنده إلا العبادات ، فهو لا يتورع عن بذل كل شىء فى سبيل الله فكان لذلك تقيا مسددا معانا من الله تعالى فى حربه وسلمه على السواء .

ولعل شعراء العصر قد شغلوا بهذا الطابع الحربى ، وأكثروا من تلوينه بتلك الملامح من الحس الإسلامى ، مما أعاد إلى الأذهان صفحات مشرقة من ذلك التاريخ الإسلامى ؛ يوم أن كان المدد الإلهى يأتى مسانداً المسلمين فى حروبهم عن طريق ملائكة الرحمن ، فإذا بأبى العتاهية يعرض موقف ممدوحه مستوحيا هذه المعانى فى قوله :

---

(٣٢) ديوان أبى نواس .
(٣٣) سورة التوبة ١٢٨ .
(٣٤) سورة النحل ١٢٥ .
(٣٤) سورة آل عمران ١٥٩ .

رحلت عن الربع المحيل قعـــودى
من ذى زحـوف جمة وجنـــود
وراع يراعى الليـل فى حفظ أمة
يدافع عنهـا الشر خير رقـود
بألوية جبريل يقدم أهلهـــا
ورايات نصر حوله وبنـــود
تجافى عن الدنيـا وأيقن أنهـا
مفارقة ليست بدار خلـــود (٣٧)

فما كان من الشاعر إلا أن قرن موقف الشجاعة ولوحة البطولة بسلوك الخليفة ، ومدى تدينه وثقته فى ثواب الله تعالى ، وإدراكه حقائق فناء الدنيا ، عارضا الموقف من منطق المصير الذى شغل به نفسه فى كثير من شعره ، مستلهما الدلالات الدينية التى ازدحم بها عالم الزهاد « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد » « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

وبذلك راحت مواقف الشعراء تتراوح بين الإيجاز والإطالة فى عرض ملامح الفضيلة الإسلامية فى الممدوحين ، وحتى مع ذلك الإيجاز لم يخف تركيز الشعراء المعانى بين ثنايا الأبيات ، فإذا بسلوك الخليفة يبدو منبثقا من واقعه الدينى ، على ذلك النحو الذى صوره مروان فى قوله :

فتى لم يدع بابا من الخير مغلقا
ولم يغش مما حرم الله محـرما
وتلقـاه من فرط الحياء كأنـه
سقيم وإن أمسى صحيحا مسلما (٣٧)

---

(٣٦) شعر أبى العتاهية ٥٢٥ .
(٣٧) الأشباه والنظائر ١/١٣١ .

فهو لا يقرب حدود الله ولا يأتى محرماته ، بل يسعى دأبا فى أبواب الخير على إطلاقها ، ليرضى نفسه ورعاياه ، وهو يبدو شديد الحياء وكأنه سقيم من ذلك الخجل الذى لم يطرح فى شخصه إلا كسلوك إسلامى منذ ضرب رسول الله ﷺ فيه القدوة الحسنة للمسلمين فقد كان عليه السلام (أشد حياء من العذراء فى خدرها) . ومن ثم كان تصويره للمؤمن بألا يكون طعانا ولا لعانا ولا متفحشا . وقد نال الخليفة المهدى حظا وفيرا من مدائح مروان على هذا النهج . فبسط الشاعر فى شخصه من فضائل الإسلام كما وفيرا طرحه على سبيل الإيجاز حينا ، وفى تفاصيل أخرى فى كثير من الأحيان ، فإذا هو — أى المهدى — يبدو عادلا بين رعاياه ، ينشر بينهم صورا كثيرة من الحياة الكريمة والخير العميم ، ويبدو على وجهه سيما الصلاح وإشراقة التقوى وقد امتزجت بملامح الحق ، حتى ليبدو قليل النوم من شدة قلقه على بيضة الإسلام ، وحرصه على قبته التى راح ينعمها فى وقت نام فيه الخلق جميعا ، وقد أسندوا إليه أمرهم وأمنهم بينما ظل هو شديد الرأفة بهم ، وكأنه والد يرعى بنيه ، ولكنها الرأفة التى تصحبها قسوته وشدته فى الحق ، حين راح يأخذ من الظالم ما ينتصف به للمظلوم مهتديا بتلك الصورة السلوكية المثالية التى رسمها رسول الله ﷺ للخليفة المسلم فكان عليه السلام « بالمؤمنين رءوف رحيم »(٣٨) .

وكان والذين معه « أشداء على الكفار رحماء بينهم »(٣٩) .

ثم كان عليه السلام كما زكاه ربه سبحانه وتعالى « على خلق عظيم »(٤٠) .

ومن هنا راح الشاعر يستقى تلك السيرة العطرة فى تعظيم مكانة ممدوحه من خلال سياسته لرعيته ، مما يشير به إلى أصالة

---

(٣٨) سورة التوبة ١٢٨ . (٣٩) سورة الفتح ٢٩ .

(٤٠) سورة القلم ٤ .

الإصلاح فى أعماق هـذا الممدوح ، حتى يكاد يذكرنا بما كان من سيرة الفاروق رضى الله عنه حين أمن رعاياه ، ونشر العدل ، ولم يعد فى حاجة إلى من يحميه من حراسه ، حتى إذا نام تحت ظل شـجرة قال من رآه من الموالى مندهشـا من موقفه بالقياس إلى الأكاسرة « حكمت فعدلت فأمنت فنمت ياعمر » .

ثم يقول مروان وقد وسع دائرة التصوير لتشمل بنى العباس جميعا ومحددا بعضا منها بالخليفة المهدى :

أيادى بنى العباس بيض سـوابغ
على كل قوم بادئات عوائـد
فهم يعدلون السمك من قبة الهدى
كما يعدل البيت الحرام القواعد
سـواعد عز المسـلمين وإنمـا
ينوء بحمـولات الأكف السـواعد
يزين بنى ساقى الحجيج خليفـة
على وجهه نور من الحق شـاهد
يكون غراراً نومه من حـزاره
على قبة الإسلام والخلق راقـد
كأن أمير المؤمنين محمـداً
لرأفته بالناس للناس والـد
على أنه من خالف الحق منهـم
سقته يد الموت الحتوف الرواصد (٤١)

وإذا بالشاعر لا يجد حرجا فى تكرار نفسـه من خلال تلك الصور ، وكأنه لا يتبين من شخص ممدوحه إلا تلك الجوانب المشرقة التى يريدها إسـلامه رونقا وإشراقاً ، على نحو قوله كاشفا سلوكه

(٤١) ديوان مروان بن أبى حفصة ٥١ .

في مواقف سخطه ورضاه ، وتصوير تواضعه لخالقه تعالى ، وما يغلب عليه من التقوى والحفاظ على الحق ونشر العدل :

ولا هو عند السخط منه ولا الرضى
بغير التى يرضى بها الله واقع
تغض له الطرف العيون وطرفه
على غيره من خشية الله خاشع
عليه من التقوى رداء يكنه
وللحق نور بين عينيه ساطع (٤٢)

وهو ما يعود إلى تكراره مرارا على اختلاف طفيف فى ملامح الصياغة على نحو من قوله :

هو المرء أما دينه فهو مانع
صئون وأما ماله فهو باذله
أبى لما يأبى ذوو الحزم والتقى
فعول إذا ما جد بالأمر فاعله
تروك الهوى لا السخط منه ولا الرضى
لدى موطن إلا على الحق حامله (٤٣)

وهو ما يحاول عرضه جملة فى بيت واحد من أبياته قائلا :

إلى طاهر الأخلاق ما نال فى رضا
ولا غضب مالا حراما ولا دما (٤٤)

وعلى أية حال فإن ظاهرة التكرار هذه لم تكن سمة خاصة بفن مروان وحده ، بقدر ما بدت قاسما مشتركا بين شعراء العصر كله ، خاصة منهم من سعى خلف دقائق دائرة الفضيلة ، يستكمل من حولها

(٤٢) ديوان مروان ٨٢ . (٤٣) أمالى المرتضى ١/٥٣٣ .
(٤٤) أمالى المرتضى ١/٥٣٥ .

حواره ، فاشترك الشعراء فى المصادر التى نهلوا منها : من الآيات القرآنية ، أو السيرة النبوية الشريفة ، مما قرب بين الصور ، ودفع إلى ذلك التكرار وتشابه الصيغ .

ويبدو ما حدث فى عالم الفضيلة وقد أسهم فى طبع شعر المديح بطابع جديد ، بدا فيه التاريخ الإسلامى عنصرا أساساً من عناصر المد التصويرى ، حتى أصبح من مقومات اللوحة الفنية ، ولعل لوحة بشار فى مدح الأمير محمد بن أبى العباس السفاح وقد ولاه عمه المنصور البصرة ، ما يكشف شيئا من ذلك حيث يقول :

رشدت — أمير المؤمنين — وإنما
ظفرت ووليث الأمين المسودا
ونعم أمير المصر يصبح للقا
ودودا وفى الإسلام عفا تأيدا
أبوك أبو العباس جلى بسيفه
وأنت المرجى فى قرابة أحمدا
لكم نجدة العباس فى كل موطن
ويوم حنين إذ أشاع وأشهدا
مقيم يذب المشركين بسيفه
حفاظا وقد ولى الخميس وعردا
بنى لكم العباس فى شرف العلى
وفضل ابن عباس أغار وأنجدا (٤٥)

وكأن بشاراً قصد إلى ذلك التكثيف لملامح التاريخ الإسلامى بين أبياته ، إذ اشتد حرصه على توزيع تلك الملامح من خلال كل بيت فيها فإذا هو بصدد مدح أمير المؤمنين قاصدا بذلك الخليفة فى نفس الوقت الذى يتقدم فيه إلى الوالى مادحا ، حتى إذا ما دخل حدود

(٤٥) ديوان بشار ٣/٣٥ .

دائرة الوالى طرح عليه من الفضائل الإسلامية ما يتمتع به من عدل وشجاعة ، وما يشفع لذلك عنده من أصالة النسب بحكم القرابة لرسول الله ﷺ ، إذ يتوقف عند الجانب البارز من مكانة العباس مما ترجمه سلوكه العملى يوم حنين (حين رأى رسول الله الناس قد انشغلوا بأنفسهم ، فقال : يا عباس اصرخ : يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السمرة !)(٤٦) فأجابوا : لبيك لبيك ، وكان رجلا صيتا ، فيؤم الرجل الصوت ويقتحم على بعيره ، ويأخذ سيفه وترسه ، حتى ينتهى إلى رسول الله ﷺ ، حتى إذا اجتمع إليه منهم طائفة استقبلوا الناس فاقتتلوا ، وأشرف رسول الله ﷺ فى ركائبه فنظر إلى القوم يجتلدون فقال : الآن حمى الوطيس « ثم أخذ رسول الله حصيات فرمى بها وجوه الكفار ، يقول ابن عباس فما زلت أرى أحدهم كليلا وأمرهم مدبرا »(٤٧) .

وبهذا راح بشار يلتقط من أحداث التاريخ الإسلامى ما قصد من خلاله إلى تأكيد شرعية الخلافة فى البيت العباسى . ولم يكن وحيدا أيضا فى هذا الاتجاه . إذ انتشر وشاع على ألسنة الشعراء الذين عرضوا منه صورا مشرقة عرجت على ماضى الدعوة ، وقصص الرسول عليه السلام ، على النحو الذى صوره السيد الحميرى من منطق تشيعه وحرصه على تصوير مكانة على رضى الله عنه ، فراح يذكر إسلامه وتصديقه برسول الله حين كذبه الناس ، الأمر الذى يكشف حرص كل شاعر ملتزم على التوقف أمام أحداث التاريخ ووقائعه يستمد منها ما يخدم قضايا حزبه الذى يدافع عنه ، ويتبنى قضاياه ، حتى مع تقلص ذلك الحزب . فعلى غرار ما صنعه بشار حول يوم حنين وما كان من موقف العباس فيه ، أخذ السيد الحميرى يرسم صورة للشيعة ومشهدا مدحيا لعلى بن أبى طالب يقول فيه :

---

(٤٦) سيرة ابن هشام ٢/٤٤٤ ـ ٤٤٥

(٤٧) نفس المصدر .

من فضله أنه قد كان أول من
صلى وآمن بالرحمن إذ كفروا
سنين سبعا وأياما محرمة
مع النبى على خوف وما شعروا
ويوم قال له جبريل — قد علموا —
أنذر عشيرتك الأدنين إن بصروا
فقام يدعوهم من دون أمته
فما تخلف عنهم منهم بشر
فقال يا قوم إن الله أرسلنى
إليكم فأجيبوا الله وادكروا
فأيكم يجتبى قولى ويؤمن بى ؟
إنى نبى رسول فانبرى غدر
فقال : تبا أتدعونا لتلفتنا
عن ديننا ؟ ثم قام القوم فاشتمروا
من الذى قال منهم — وهو أحدثهم —
سنا وخيرهم فى الذكر إذ سطروا :
آمنت بالله قد أعطيت نافلة
لم يعطها أحد : جن ولا بشر
وأن ما قلته حق وأنهم
إن لم يجيبوا فقد خابوا وقد خسروا
ففاز قدما بها والله أكرمه
وكان سباق غايات إذا ابتدروا (٤٨)

فهو يذكر إسلام على رضى الله عنه فى سن الصبا فكان من أوائل من صدقوا بدعوة رسول الله ﷺ ، وقاموا على تكاليفها من إيمان وعبادات . ثم راح الشاعر يستلهم فى حواره من وحى المعانى

(٤٨) ديوان السيد الحميرى ٢٠٣ — ٢٠٥ .

القرآنية ما يزيد به قوله اعتمادا على ما نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ من أى الذكر الحكيم « وأنذر عشيرتك الأقربين »(٤٩) .

ثم يعرض ما كان من رسول الله من الاستجابة والنهوض بالدعوة بين قومه ، وما كان منهم من التصدى له ،ومعارضته وإيقاع الأذى بالمسلمين الذى تقدمهم على ، وكان أحدثهم سنا وخيرهم ذكرا منذ صدق رسول الله ﷺ . وهو يومئذ ابن عشر سنين ، وكان فى حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام ، أخذه من أبى طالب فى أيام الضائقة وضمه إليه »(٥٠) .

ثم يدخل من إسلامه إلى الثناء عليه فى مواقفه الدينية ، مبينا كيف أكرمه الله تعالى فكان سباق غايات على القوم جميعا .

وقد شكل الشاعر من منظور قصصى محكم تحكيه أفعال الماضى المتوالية مع صيغ الحوار التى يجريها بين رسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام ، ثم بينه ﷺ وعشيرته وقومه ، ثم بين كفار مكة وبينه حين كابروا وعاندوا ورفضوا دعوته ، ثم بينه عليه السلام وبين على وقد أجابه إلى دعوته مما يجعل اللوحات الأربع أساسا واضحا لبنية القصصية التى غلفتها الأبعاد الدينية وازدحمت بها الأبيات .

وينقدم الزمن ، وتتطور الأحداث ، ولا يكتفى شعراء العصر بوقفة التأمل عن حدود ماضى التاريخ الإسلامى ، بل راحوا يأخذون من امتداده فى عصرهم ما عرض لهم من فتن حول الإسلام ، فراحوا يديرون من حولها الحوار ، ويعرضون جوانبها على نحو ما كان من على بن الجهم وهو بصدد مدائحه للخليفة المتوكل على الله ،

---

(٤٩) سورة الشعراء ٢١٤

(٥٠) سيرة ابن هشام ١/٢٤٥

وما ركزه من فنه حول موقفه من المعتزلة ، وانتصاره لمذهب أهل السنة وتأييده لأئمة المسلمين الذين زجت بهم نهايه خلافه المأمون ثم المعتصم ثم الواثق إلى الامتحان في القول بما ذهبت إليه المعتزلة من خلق القرآن مما أوقع الناس في حيرة وفتنة ، راح ضحيتها بعض أئمة المسلمين ممن أجبروا على القول بذلك ، وحبس بعضهم إلى أن جاء المتوكل ، فطرح فيه الشاعر مديحه من هذا الجانب الإسلامي الذي انبرى فيه لنصرة أهل السنة ، والقضاء على ذلك المذهب المبتدع الذي فرض على الفقهاء فرضا ، وخاصة أن بعض الخلفاء قد اتخذه مذهبا رسميا للدولة ، فقال علي بن الجهم مصورا الموقف بكثير من تفاصيله ، وإن كان ينتزع منه اللوحة المديحية التي أضفاها على الخليفة المتوكل مجالا لمزيد من التركيز :

قام وأهل الأرض في رجفة
يخبط فيها المقبل المدبر
في فتنة عمياء لا نارها
تخبو ولا موقدها يفتر
والدين قد أشفى وأنصاره
أيدي سبا موعدها المحشر
كل حنيف منهم مسلم
للكفر فيه منظر منكر
فأمر الله إمام الهدى
والله من ينصره ينصر
وفوض الأمر إلى ربه
مستنصرا إذ ليس مستنصر
ونبذ الشورى إلى أهلها
لم يثنه خشية ما حذروا
وقال والألسن مقبوضة
ليبلغ الغائب من يحضر

إنى توكلت على الله لا
أشرك بالله ولا أكفر
لا أدعى القدرة من دونه
بالله حولى وبه أقدر
أشكره إن كنت فى نعمة
منه وإن أذنبت أستغفر
فليس توفيقى إلا به
يعلم ما أخفى وما أجهر
فهو الذى قلدنى أمره
إن أنا أشكر فمن يشكر ؟
والله لا يعبد سرا ولا
مثلى على تقصيره يعذر
وجرد الحق فأشجى به
من كان عن أحكامه ينفر
وانفضت الأعداء من حوله
كحمر أنفرها قسور
وصاح إبليس بأصحابه
حل بنا ما لم نزل نحذر
مالى وللغر بنى هاشم
فى كل دهر منهم منذر
أكلما قلت : خبا كوكب
منهم بدا لى كوكب يزهر
يا أعظم الناس على مسلم
حقا ويا أشرف من يفخر
الردة الأولى ثنى أهلها
حزم أبى بكر ولم يكفروا
وهذه أنت تلافيتها
فعاد ما قد كاد لا يذكر[٥١]

وبذلك توقف الشاعر طويلا عند فتنة الاعتزال ، وكيف تم القضاء عليها من قبل ممدوحه ، مصورا أبعاد الموقف نتيجة بطش الخلفاء ومن شايعهم كما كان من القاضى أحمد بن أبى دؤاد ، والوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، إذ كان الأول معتزليا له دور بارز فى تحريض المأمون والمعتصم والواثق على اتخاذ فكرة خلق القرآن مذهبا رسميا للدولة ، ودفع الخليفة إلى امتحان الفقهاء بهذه الفكرة ، وأخذهم بالحبس والعنت الشديد حين رفضهم إياه ، ثم صور ما جرى سنة ٢٣١ حينما أمر الواثق واليه على الثغور وخادمه بحضور الفداء بين المسلمين والروم وأمرهما بأن يمتحنا أسرى المسلمين فمن قال « القرآن مخلوق » وأن الله يرى فى الآخرة فودى به وأعطى دينارا ، ومن لم يقل ذلك ترك فى أيدى الروم (١) .

من هنا راح الشاعر يبنى قصيدته على طابع تلك الفتنة التى أقضت على المسلمين مضاجعهم ، وراحت تهددهم فى دينهم ، وترجح منهم من سار فى طريق الإسلام اتباعا لأهل السنة ، حتى إذا ما جاء الخليفة المتوكل أسند إليه الشاعر من حسه الدينى الكثير حين جعله « إمام الهدى » وعرض سلوكه الإسلامى استقاها من اسمه فكان متوكلا على ربه ومفوضا إليه أمره ، كما جعله شديد الإيمان لا يشرك بربه أحدا ، ولا يزعم لنفسه قدرة يتجاوز بها حدوده ، فهو يؤمن أن القوة لله جميعا ، ومنه يستمد قوته ، ولا حول

---

(٥١) تقع القصيدة فى خمسين بيتا فى ديوان الشاعر ، وإنما قام الاختيار هنا للأبيات التى تظهر فيها المؤثرات الإسلامية بوضوح .

رجفة : اضطراب . المدبر : كناية عن الضلال والاضطراب والسير على غير هدى . الفتنة : قصد بها خلق الناس على القول بخلق القرآن .

أيدى سبا : كناية عن التبديد الذى لا اجتماع بعده أى مثل قوم سبأ الذين تفرقوا فى البلاد بعد السيل .

له إلا به سبحانه وتعالى ، حتى أعلن ذلك فى وقف توفيقه عليه (وما توفيقى إلا بالله) إيمانا منه بأن كل ما يخفيه أو يعلنه يحاسبه به الله ، ثم يعيد الكرة حول تصوير ما تقلده الخليفة من أمور المسلمين وشكره على ما وهبه الله إياه ، وما كان من جرأته فى كشف الحق وتتبع أعداء الدين ممن شاع بينهم صوت إبليس ، حتى بدا المتوكل بذلك أعظم الناس — على حد تصوير شاعره — من منطق التنقيب فى أحداث التاريخ الإسلامى عما يدعم موقفه من خلال نظائر الحدث الذى هو بصدد تصويره ووجد الشاعر ضالته فيما كان أيام أبى بكر رضى الله عنه من حروب الردة ، حيث قضى عليها بحزمه ، وأعاد المرتدين إلى الإسلام ، وكذلك كان موقف المتوكل حين أنهى عصر الاعتزال وأعاد للسنة اعتبارها ولأهلها مكانتهم .

ولم تكن قصيدة ابن الجهم هذه الوحيدة فى الميدان بل امتلأ ديوانه بصور ونماذج من الحس الإسلامى الذى لم يتوقف فيه عند زاوية بعينها ، بل راح يأخذ منه الكثير الذى يدعم به فنه ، ويزيده عمقا فى التقرير والتصوير ففى أبيات متناثرة له فى ديوانه يطرح موقفه من الاعتزال وأهله ناسبا أفكارهم إلى الضلالة والأهواء :

واسمع إلى غراء سنية
يسطع منها المسك والعنبر
موقعها من كل ذى بدعة
موقع وسم النار أو أكثر(٥٢)

وإذا هو يندد صراحة بما كان من أحمد بن أبى دؤاد وترويجه لتلك البدع :

ما هذه البدع التى سميتها
بالجهل منك العدل والتوحيدا(٥٣)

---

(٥٢) ديوان على بن الجهم ٧٦
(٥٣) نفسه ١٢٥

وكذا قوله ساخطا عليه من منظور إهماله للنص مبتدأ أو سندا :

كم مجلس لله قد عطلته
كي لا يحدث فيه بالإسناد(٥٤)

كما قال في أولى قصائده في الحبس وقد ضمهم إلى الروافض :

تضافرت الروافض والنصارى
وأهل الاعتزال على هجائي(٥٥)

فإذا ما استوقفه مدحه للخليفة المتوكل بدا شديد الإعجاب بمسلكه الديني ، شديد الاعتداد بمذهبه السني وأصليه من الكتاب والحديث الشريف :

وآثر آثار النبي محمد
فقال بما قال الكتاب المنزل(٥٦)

ثم قال في رثائه من نفس المنطلق الديني :

فيا ناصر الإسلام عزك عصبة
زنادقة قد كنت قبل أذودها(٥٧)

ولا تكاد الصورة تتوقف عند حدود هذا الجانب في شعر ابن الجهم بقدر ما حاول أن يلتقط من المعاني الإسلامية في جل موضوعات شعره على نحو ما كان من صورة المعتصم عنده كرجل حرب ودين معا في قوله :

وأنت خليفة الله المعلى
على الخلفاء بالنعم العظام

---

(٥٤) ديوان ابن الجهم ١٢٨
(٥٥) نفسه ٨٤
(٥٦) نفسه ١٦٤
(٥٧) نفسه ٦٣

وليت فلـم تدع للدين ثـأرا
سـيوفك والمثقفـة الدوامـى
نصبت المـازيار على سـحوق
وبابك والنصـارى فى نظـام
مناظـر لا يزال عديد منهـا
عزيز النصـر ممنوع المـرام
وعمـورية ابتدرت إليهـا
بوادر من عزيز ذى انتقـام(٥٨)

فلا يكاد ينظم بيتا منها إلا ويشبعه بهذه الصيغة الدينية فيجعله خليفة الله على منطق التفويض والقداسـة الذى ردده كل شـعراء الخلافة ، وأفرده بين الخلفاء بكثرة ما أفاء عليه به ربه من النعم ، وقد انتقم لدينه وثأر له من خصومه فى الداخل والخارج على نحو ما كان فى حرق الأفشين وحروب بابك ثم حروب الروم وخاصة حرق عمورية فكان نصر دينيا من المولى سبحانه فيها جميعا .

وفى مزجه سياسة الخلافة بما يحيطها من قداسـة الحس الدينى يقـول :

أما ومحـرم البلد الحـرام
يمينـا بين زمـزم والمقـام
لأنتـم يا بنـى العباس أولـى
بميراث النبى من الأنـام
تجادل سـورة الأنفـال عنكم
وفيها مقنـع لذوى الخصـام
وآثـار النبـى ومسـندات
صـوادع بالحـلال والحـرام(٥٩)

(٥٨) ديوان على بن الجهم ٩
(٥٩) نفسـه ١١

مشـــيرا بذلك إلى دلالة الآية القرآنية « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شيء عليم »[٦٠] .

حيث يزدد ما أذاعه العباسيون أنفسهم من حجج وبراهين تثبت أحقيتهم الشرعية فى الخلافة عن طريق تأويل الآيات الكريمة ، وهو بذلك يلتقى مع مروان بن أبى حفصة فى قوله من نفس المنطق مروجا لحقهم فى ميراث الخلافة دون الشيعة العلوية :

شـــهدت من الأنفال آخر آيـــة
بتراثهـــم فأردتـــم إبطالهـــا

وإذا بقوة الخلافة تبدو دائما رهنا بالجانب الدينى ، على النحو الذى تكرر فى قوله عن شرعية الحكم مرارا فى البيت العباسى من منطق حتمى يطوع فيه فلســفة الجبرية كفرقة دينية لموقفه السياسى :

يابنى العباس ربى اللبـــه إلا أن تبوســـوا
لكم الملك علينـــا آخر الدهر حبيس[٦١]

وعليه جاء تصويره قوة الخلافة من منطق قوة الدين :

وشكا الدين ما شكوت من العلـــ
ـــة شكوى قد اجتوتها العقـــول
فإذا ما ســـلمت فهو ســـليم
وإذا ما اعتللت فهو عليـــل
ثـــم لمـــا أقالك اللـــه للديـــ
ـــن وصـــحت فروعـــه والأصـــول
أنس البرد والقضيب وهز الملـــ
ـــك عطفيه واســـتبان المســـبيل[٦٢]

---

(٦٠) سورة الأنفـــال ٧٥

(٦١) ديوان على بن الجهم ١٤ .

(٦٢) نفســـه ٧٢ . البرد والقضيب هنا من مخلفـــات النبى عليه السلام يتوارثها الخلفاء .

وكذا قوله الخليفة :

حسبك الله ناصراً إذا توكلا
وثقت على الله وهو نعم الوكيل
أنك ميثاقنا الذى أخذ اللـ
ـه علينا وعهده المسئول
بك تركو الصلاة والصو
م والحج ويزكو التسبيح والتهليل(٦٣)

إذ يدير الحوار فى تفاصيله حول المعجم الإسلامى بين شكرى الدين وسلامته وصحة فروعه وأصوله ، ووضوح السبل وبيانها فيه ، ونصرة الله لخليفته لتوكله عليه وإدراكه مهمته وعهده المسئول ، فهو ميثاق المسلمين مع الله وعقدها يصل به إلى قمة المذخ الدينى حين يعرض من خلال موقفه هذا فرائض الإسلام جميعها .

بل إن تصوير دار الخلافة لا يكاد ينفصل عند الشاعر عن هذا الجانب الدينى الذى يطرحه مثل قوله :

اختارها الله للإمام الذى
ينصف من نفسه وينتصف(٦٤)

وكذلك البركة التى صورها قوله واصفا لها :

قدرها الله للإمام وما
قدر فيها عيبا لعائبها
أهدت إليها الدنيا محاسنها
وأكمل الله حسن صاحبها(٦٥)

---

(٦٣) ديوان ابن الجهم ٢١ . (٦٤) نفسه ١٥ .
(٦٥) نفسه ٣٢ .

وكثيرة عنده صيغ هـذا الحوار حول شخص الخليفة من المنظور الإسلامى الذى يقترب فيه الشاعر من حتن الجبرية ، توظيفا لفنه ، فى خدمة الخلافة العباسـية :

قـدر الله أن يعز بك الإسـ ـلام والأمر كله مقـدور
لم يزل فيك للذي دبر الأشيـ ـياء مذ كنت ناشـئاً تدبير
كان يبلوك بالرجـاء والخـو ف اختباراً وهو اللطيف الخبير
ثم ولاك ناصراً لك مولاك فنعـ ـم المولى ونعم النصير (٦٦)

وعلى هـذا النحو وجد الحس الدينى والتاريخى سبيله إلى نفوس الشـعراء ، فتعمقها فى ظلال إسـلامية وجدت من الشـعراء رحابة صدر وشدة حرص عليها ، على نحو ما ظهر أيضا لدى أبى العتاهية حين عرض من حسـه التاريخى بشكل عام ما لم يقصد به إلى غزوة بعينها ، ولا إلى حدث محدد ، بل طرح مواقف التاريخ على وجه التعميم ، ليكشف من خلالها بعضا مما تشى به من العظـة والاعتبار للأقوام والأمم ، وكأنه يشير إلى ضرورة تأمل تلك الأحداث وصولا إلى تعميق القصيدة فى النفوس وبث المزيد من العظة والاعتبار على نحـو قوله :

أما ورب المسـجدين كليهمـا
أما ورب منى ورب الراقصـات
أما ورب البيت ذى الأسـتا
ر والمسعى وزمزم والهدايا المشعرات
إن الذى خلقت له الدنيا وما
فيها لنازلة تجل عن الصـفات
فتجاف عن دار الغرور وعن دوا
عيهـا وكن متوقعـا للحـادث

(٦٦) ديوانه ٣٦ .

أين الملوك ذوو المنابر والدسا
كر والعساكر والقصور المشرفات ؟
هم بين أطباق التراب فنادهم :
أهل الديار الخالیات الخاویات !
هل فيكم من مخبر حيث استقت
سر قرار أرواح العظام البالیات ؟
فلقل ما لبث العتوائد بعدكم
ولقل ما ذرفت عيون الباكيات
وإذا أردن ذخيرة تبقى فنا
فس فى ادخار الباقيات الصالحات
وخف القيامة ما استطعت فإنما
يوم القيامة يوم كشف المخبآت(٦٧)

وكذا قوله من منطق حكمى على نفس الدرجة من التعميم

وما تعدل الدنيا جناح بعوضة
لدى الله أو مقدار زغبة طائر
فلم يرض بالدنيا ثوابا لمؤمن
ولم يرض بالدنيا عقاباً لكافر (٦٨)

فهو يقسم قسما إسلاميا خالصاً برب المسجدين الحرام والأقصى ، متخذا من الشعائر والمناسك وسيلة يؤكد بها قسمه من منى ، والبيت ذي الأستار ، والمسعى ، وزمزم وما يقدم من هدى فى مواسم الحج ، ليقسم بذلك كله على حقيقة أكدها القرآن الكريم فى كثير من آياته حول غرور الدنيا وزخرفها وزينتها ، وكيف يغتر بها الإنسان فتصير به إلى هلاك ، مما يندفع بعده الشاعر إلى عرض تاريخى

(٦٧) شعر أبى العتاهية ٧٢ ـ ٧٣ .
(٦٨) نفسه ١٤٩ ـ ١٥٠

يتخذ فيه شواهده من الأحداث الكبار من خلال الملوك وذوى المقابر والقصور ، وكيف آلت بهم الحياة إلى القبور ، لا يسمعون مناديا ، ولا يعرفون أين المستقر وأين ينتهى بهم المطاف ، وكذلك الأحياء ممن ضلوا فى محاولة التعرف على نفس القرار ؛ لينفذ الشاعر من ذلك إلى تصوير هول المشهد ؛ وضرورة تقديم الصالح من الأعمال وادخار الطيب منها « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا »(٦٩) .

ثم ما توج به حديثه من تصوير لمشاهد القيامة ، وكيف تتكشف وقتئذ كل الخبايا « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون »(٧٠) .

ثم يتأكد حسه الدينى — وهو الشاعر الزاهد — من خلال رؤيته للدنيا كدار عمل بلا حساب على عكس الآخرة التى هى دار حساب بلا عمل ، منسالكا بذلك مسلوك المسلم الفطن الذى تنبه إلى تلك الحقيقة وعلى أساسها شكل سلوكه فى قوله :

وما تعدل الدنيا جناح بعوضة
لدى الله أو مقدار زغبة طائر
فلم يرض بالدنيا ثوابا لمؤمن
ولم يرض بالدنيا عقاباً لكافر (٧١)

وربما قربت صورة البعوضة فى ذهنه من خلال ما جاء فى المثل القرآنى (إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها)(٧٢) وعلى هذا النحو تعددت صور الأخذ ، وتنوعت درجاته فى زحام المصادر الإسلامية ، وقد التقى بعضها حول مصدر واحد محور ذلك المعجم الدينى قرآنه وحديثه ، ومثله وأحداثه الكبار فى عصور

---

(٦٩) سورة مريم ٧٦ .
(٧٠) سورة النور ٢٤ .
(٧١) شعر أبى العتاهية ١٤٩ — ١٥٠ .
(٧٢) سورة البقرة ٢٦ .

السلف الصالح ، أو حتى فى عصر الشاعر العباسى نفسه ، وبقيت بعد ذلك درجة الكثافة فى استخدام المادة وعرضها محورا للاختلاف بين الشعراء ، ومجالا للتنوع فى الإفادة حسب طبيعة الموضوعات التى عالجها كل منهم ؛ فكانت المدائح إسلامية — كما أسلفنا — وكان حماس الشاعر الملتزم إزاء قضايا حزبه على النحو الذى رأيناه فى شعر السيد الحميرى ، وما عرض من سيرة رسول الله ﷺ وتصوير مكانة على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وعلى هذا النحو أيضا كان ما عرضه فى أبيات له أخرى :

وإذا وصلت بجبل آل محمد
حبل المودة منك فابلغ وازدد
بمطهر لمطهرين أبوة
نالوا العلى ومكارما لم تنفد
أهل التقى وذوى النهى وأولى العلى
والناطقيين عن الحديث المسند
الصائمين القائمين القانتين بنى بنى
الحجى والسوءدد
الراكعين الساجدين الحامدين
ن السابقين إلى صلاة المسجد
الفاتقين الراتقين السائرين
ن العابدين إلههم بتودد(٧٣)

فلم يكن الشاعر ليستمد معانيه هنا كاملة إلا من الآيات القرآنية التى توصف تلك الصورة الدقيقة لسلوك المسلم الحق فى مثل قوله تعالى :

« الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر »(٧٤)

---

(٧٣) ديوان السيد الحميرى ١٨٧ .

(٧٤) سورة التوبة ١١٢ .

وإذا هم بذلك ذوو الألباب ممن أثنى عليهم الله تعالى فى عديد من الآيات « وما يذكر إلا أولو الألباب »(٧٥) .

وإذا هم المطهرون إفادة لديه من دلالة الآية الكريمة :

« إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »(٧٦) وإذا هم أهل العبادة والتقى :

«ومن يتق الله يجعل له مخرجا »(٧٧) .

وأخيرا يعتمد على مصطلحات علوم الحديث التى عرفها العصر من الحديث الصحيح ودقة إسناده ، فيرى العلويين لا يأخذون إلا بالصحيح منها مسندا إلى رسول الله ﷺ ويتركون ما دون ذلك إثباتا منه لصدق مذهبه ويقين مبادئه .

ومع تعدد موضوعات الشعر التى استوعبت المعجم الإسلامى وأفادت منه تعددت أيضا الصور التى انهال عليها الشعراء ، رسما وعرضا . فكان منها ما يتعلق بقضية المصير وحس الغيب ، والوقوف المتأمل عند مشاهد القيامة ، خاصة لدى من كان منهم زاهدا كما عرف عن أبى العتاهية الذى شغلته من حياته أساساً قضية الموت ، فراح يستجمع بعضا من مشاهد الآخرة أمام عينيه ، ويستحضر قبلها الجوانب الحسية المرئية فى عالم الموت مرددا صوره حول حقيقة دينية لا جدل حولها من خلال الدلالات الدينية فى قوله تعالى « ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون »(٧٨) .

فإذا بحقائق الموت تأتى « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة »(٧٩) .

فيقول أبو العتاهية واعظا ومحذرا :

أأخى مالك ناسيا
يوم التغابن فى الأمور ؟

---

(٧٥) سورة البقرة ٢٦٩ .
(٧٦) سورة الأحزاب ٣٣ .
(٧٧) سورة الطلاق ٢ .
(٧٨) سورة المؤمنون ١٦ .
(٧٩) سورة النساء ٧٨ .

أفنيت عمـرك فى الـــروا
ح إلى الملاعب والبكـــــور
وعليـك أعظـم حجـــة
فيما تعـد من الغـــــرور
ولعـــل طرفـك لا يعـــــو
د وأنت تجمع للدهـــور
لو أن عمرك زيد فيـــــه
جميـــع أعمـار النســور
أو كنت من زبر الحـــديـ
ـد وكنت من صـم الصـخور
أو كنت معتصما بأعلى الربـ
ـح أو لجـج البحـــــور
لأتت عليـك دوائر المد
نيـــا وكرات الشـهور (٨٠)

صحيح أن الاقتباسات هنا ليست مباشرة من الآيات القرآنية ، ولكن الشاعر بدا دقيق التمثل للمعانى الدينية التى عرض صورا منها فى تحذيره من غرور الدنيا « فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » وفي ذكر التغابن يلتقط المشهد من سورة « التغابن » وفيما التقطه من المشاهد عودة الطرف « أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك »(٨١) وزبر الحديد « آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا »(٨٢) أو الاعتصام بمظاهر الطبيعة « قال سآوى إلى جبل يعصمنى من المـاء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم »(٨٣) .

---

(٨٠) ديوان أبى العتاهية ١٧٠ .
(٨١) سورة النمل ٤٠ . (٨٢) سورة الكهف ٩٦ .
(٨٣) سورة هود ٤٣ .

ويظل مشهد الموت عند أبى العتاهية شديد العمق والتأثير فى نفسه ، عما درج عليه غيره من الشعراء من منطق التصوير الحسى ، وكأن كل ما أفزعهم منه محسوسات المشهد على النحو الذى استوقف أبا نواس فى نفس العصر فى قوله :

فكأن أهلك قد دعوك فلبوا
تسمع وأنت مخشرج الصدر
وكأنهم قد عطروك بما
يتزود الهلكى من العطر
وكأنهم قد قلبوك على
ظهر السرير وظلمة القبر
ياليت شعرى كيف أنت على
ظهر السرير وأنت لا تدرى !
أو ليت شعرى كيف أنت إذا
غسلت بالكافور والسدر ؟
أو ليت شعرى كيف أنت إذا
وضع الحساب صبيحة الحشر ؟(٨٤)

حيث يبدو فيه بعيداً تماما عن ذلك العمق الدينى فى تصور مشهد الموت وتصوير أبى العتاهية ، الأمر الذى قد يرتد إلى ارتباط شاعر كأبى نواس بمحسوسات وجوده ، وبعده عن التصديق بالغيب كغيب على النحو الذى ردده مجاهرا بموقفه وشكوكه :

حياة ثم موت ثم بعث
حديث خرافة يا أم عمرو

أو فى قوله :

ما جاءنا أحد يخبر أنه
فى جنة مذ مات أو فى نار

---

(٨٤) ديوان أبى نواس ٦٠٩ .

وكلها صور تشير إلى ضعف عقيدة أبى نواس ، وعجزه عن القيام بتكاليف دينه ، ومنها الإيمان المطلق بعالم الغيب « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة »(٨٥) .

ولذا لم يتوقف طويلا أمام تفاصيل الحساب ، وأحداث اليوم العسير على النحو الذى ردده زهاد العصر ، ممن تجاوزوا حدود غمرات الموت إلى منطق الإرشاد والنصح وإقرار الحقائق الغيبية على ذلك النحو الذى ردده قول أبى العتاهية :

مالى رأيتك راكبا لهواكا ؟
أظننت أن الله ليس يراكا ؟

مرددا بذلك قوله تعالى « وهو الذى يراك حين تقوم ، وتقلبك فى الساجدين »(٨٦) ليجعل من هذا المدخل الدينى مفتاحا لحواره حول حتمية الموت أيضا :

انظر لنفسك فالمنية حيث ما
وجهت واقفة هناك حذاكا

ومن ثم يرتدى ثوب الناصح المرشد :

خذ من حراكك للسكون بحظه
من قبل أن لا تستطيع حراكا

مرددا بذلك معنى الآية الكريمة (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) أو من الحديث الشريف (خذ من شبابك لهرمك) ليزيد الموقف تفصيلا فى قوله :

وليوم فقرك عدة ضيعتها
والمرء أفقر ما يكون هناكا

---

(٨٥) سورة البقرة ٣ .
(٨٦) سورة الشعراء ٢١٩ .

مرددا المعنى القرآنى حول سلوك الكافر يوم الحساب (ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه)[٨٧] ثم يستمر قائلا :

لتجهزن جهـاز منقطع القـــوى
ولتشحطن عن القريب نواكـــا

ومن ثم يسـخر ممن يطلب الخلود الذى سلبته الخليقة من لدن آدم عليه السلام يوم بعد أن طبح حين استمالته وسوسة إبليس إلى شـجرة الخلد وملك لا يبلى (قال هل أدلك على شـجرة الخلد وملك لا يبلى)[٨٨] ليكتب على البشر بعد ذلك مصيرهم إلى الفناء ، إلا ما ضمنه الله لهم فى الآخرة من خلود تعويضا لهم عن دناءة الدنيا :

يابيتنى . أدرى بأى . وثيقـــة
ترجو الخلود ؟ وما خلقت لذاكـا
حاولت رزقك دون دينك ملحفـــا
والرزق لو لم تبغه لبغاكـــا

مرددا أيضا من المعانى الدينية ما دار حول قضية الأرزاق من الآيات الكريمة « والله يرزق من يشاء بغير حساب »[٨٩] .

« وما ندرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت »[٩٠] ومن قوله عليه الصلاة والسلام « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتعود بطانا » .

ومن هنا تأتى انطلاقة الشاعر لكى يدعو إلى القناعة على النهج الإسـلامى « لئن شكرتم لأزيدنكم » فيقول :

وأراك تلتمس الغنى لتنـاله
وإذا قنعت فقد بلغت غناكـــا

---

(٨٧) سورة الحاقة ٢٨ ــ ٢٩
(٨٨) سورة طـه ١٢٠ .
(٨٩) سورة البقرة ٢١٣
(٩٠) سورة لقمان ٣٢ .

ليضيف إلى الصورة بعد ذلك بعداً مرئيا يعتمد عليه منطق الحياة ويترجم واقعها مما يرد به على موقف أبي نواس وأمثاله :

ترجى خلود العيش حينا وضلة
ولم نر من آبائنا من يخلد

لنا فكرة في أولينا وعبرة
بها يقتدي ذو العقل فيها ويهتدي[٩١]

ثم يكثر تردد مثل هذه المشاهد الغيبية بين الشعراء إزاء قضية الموت والأرزاق وغيرهما ، وإذا بشعراء الزندقة يخوضون غمار هذه المواقف الدينية — في بعض الأحيان — مما قد يعد بالنسبة لهم موضع تذكر ولحظات تأمل ولكنها خاطفة ، وربما ارتبطت بإحساس بعضهم بطبيعة الندم حين يستعد الشاعر منهم ذاكرته الدينية التي فقدها ، والتي قد تبدو منها ملامح مطروحة — على سبيل المثال — في مثل قول بشار :

كيف تبكي لحبس في طلول
من سيقضي لحبس يوم طويل ؟ !

إن في البعث والحساب لشغلا
عن وقوف برسم دار محيل[٩٢]

مرددا بذلك مدلول الحس القرآني « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا »[٩٣] « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه »[٩٤] .

---

(٩١) شعر أبي العتاهية ١٢٥ — ١٢٦ .
(٩٢) ديوان بشار ٤/١٥٢ .
(٩٣) سورة آل عمران ٣٠ .
(٩٤) سورة عبس ٣٤ .

وإذا بذلك الحس الغيبى يزداد عمقا عند بشار فيتدفق أيضا فى قوله فى أبيات له بدا فيها شديد الندم على ماضيه والتوبة عن ذنوبه :

أفنيت عمرك والذنوب تزيد
والكاتبان المحصيان عليك شهيد

كم قلت لست بعائد فى ساعة
ونذرت فيها ثم صرت تعود

حتى متى لا ترعوى عن لذة
وحسابها يوم الحساب شديد

وكأننى بك قد أتتك منيتة
لا شك أن سبيلها مورود (٩٥)

إذ يدير حواره حول الذنوب والملائكة الذين يكتبونها ويحصونها على الإنسان (عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)(٩٦) .

وإذا بالشاعر يدرك من حسه الدينى أن الحساب شديد (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)(٩٧) وأن سبيل المنية لابد مورود وكذلك جهنم (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا)(٩٨) وهى أقوال تتعارض - فى مجملها - مع لحظات المتعة التى عاشها النواسى وبشار فنسى كل منهما فى ظلالها دينه وعقيدته أو تناساه ، وآثر الحس على المعنى ، وكثيرا ما تجاهل ما أكده الإسلام من الحشر والحساب ، وما شغل به أبو العتاهية نفسه فى صوره المكررة .

---

(٩٥) ديوان بشار ١٨٠ .
(٩٦) سورة ق ١٨ .
(٩٧) سورة الحج ٢ .
(٩٨) سورة مريم ٧١ .

يكون الفتى فى نفسه متحـــرزا
فيأتيه أمر الله من حيث لا يدرى
وما هى إلا رقدة غير أنهـــا
تطول على من كان فيها إلى الحشر(٩٩)

وإن كان أبو نواس يحاول تعمق الموقف فى لحظات الندم والرجوع عن لهو المسلم ، أملا فى تصحيح مساره الذى لم يصلح إلا قليلا ، ولكنه فى خضم التأمل يذكر من مشاهد القيامة والغيب أيضا ما طرحه مثـل قوله :

ياســائل الله فزت بالظفـــر
وبالنوال الهنى لا المكـــدر
فارغب إلى الله لا إلى بشر
متنقل فى البلى وفى الغـير
وارغب إلى الله لا إلى جسـد
متنقل من صـبا إلى كبـــر
مالك بالنزهات مشـــــتغلا
أفى يديك الأمان من سقر ؟(١٠٠)

فهو يبدو متأثرا بالنص القرآنى حول مصير المؤمنين الذى أعده الله تعـالى لهم (كلوا واشربوا هنيئـا بما أسـلفتم فى الأيام الخالية)(١٠١) ، (ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة)(١٠٢) ، (سأصليه سـقر)(١٠٣) ، (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعـد

---

(٩٩) شعر أبى العتاهية ١٤٧ .

(١٠٠) ديوان أبى نواس ٦٣٢ ، النزهات : الطرق الصغار غير الجادة تتشعب عنها وهى فارسية معربة (ج نزهة) .

(١٠١) سورة الحاقة ٢٤ . (١٠٢) سورة يونس ٢٦ .

(١٠٣) سورة المدثر ٢٦ .

ضعف قوة)[١٠٤] ولذا يتردد عنده الحديث عن تقوى الله من منطق ذلك الإيمان الغيبي بالآجل والأرزاق المحددة في قدر الله وعلمه :

ألا يا ابن الذين غنوا وبادوا
أما والله ما ذهبوا لتبقى
وما للنفس عنك من مقام
إذا ما استكملت أجلا ورزقا
وما أحد بزاد منك أحظى
ولا أحد بذنبك منك أشقى
ولا لك غير تقوى الله زاد
إذا جعلت إلى اللهوات ترقى[١٠٥]

فيستمد العظة والاعتبار ممن سبقوه إلى ورود حياض المنية ، فكان موتهم رمزا من رموز الفناء البشري المطلق ، ولذا أفاد الشاعر في حواره من الآيات القرآنية أيضا حول قضية الأرزاق والموت ، وكذا في التوقف عند مشهد البعث وقد سئلت كل نفس عما قدمت (علمت نفس ما قدمت وأخرت)[١٠٦] ، (يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم)[١٠٧] .

ولكن صدق أبي نواس في حسه الغيبي والديني لم يكن واضحا في كل أقواله أو حتى معظمها ، بل كانت مجرد لحظات ندم بدت رهنا بظروفه النفسية إثر ارتكاب المعصية ، أو ربطا بما بلغه من الشيب ، مما جعله قريبا من حس الشعراء عموما ممن عرضوا شكواهم من الشيب ، بصرف النظر عن تدينهم من عدمه ، ففي بعض أبيات له يصور أبو نواس توبته إزاء ذلك المشيب قائلا :

---

(١٠٤) سورة الروم ٥٤ .
(١٠٥) الكامل ١٨٨/٤ المحاسن والمساوئ ٣٥٥
(١٠٦) سورة الانفطار ٥
(١٠٧) سورة الشعراء ٨٨

انقضت شرتى فعفت الملاهى
إذ رمى الشيب مفرقى بالدواهى
ونهتنى النهى فملت إلى العد
ل وأشفقت من مقالة ناه
أيها الغافل المقيم على السهو
ولا عذر فى المقام لساه
لا بأعمالنا نطيق خلاصا
يوم تبدو السمات فوق الجباه
غير أنى على الإساءة والتفري
ط راج لحسن عفو الله(١٠٨)

فهو يدرك ما كان من لهوه ، وحقيقة سهوه عن دينه دون عذر يبرر مسلكه مستمدا من الحس القرانى فى صوره (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود)(١٠٩) ورجاءه لعفو الله (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء)(١١٠) (فاعف عنا واغفر لنا وارحمنا)(١١١) .

ولا يظل حديث الشيب وشكواه إلا فى حدود القواسم المشتركة بينه وبين كل الشعراء من غير الزهاد إذا تذكرنا ربطه إياه بصرف الغوانى عنه :

حتى إذا الشيب فاجانى بطلعته
أقبح بطلعة شيب غير مبخوث
عند الغوانى إذا أبصرن طلعته
آذن بالصرم من رد وتشتيت

(١٠٨) ديوان أبى نواس ٦٢١
(١٠٩) سورة الفتح ٢٩
(١١٠) سورة الفتح ١٤٠
(١١١) سورة البقرة ٢٨٦

وأمام هـذا الشيب قد يبدو نادما ـ لا زاهدا ـ على ما أقدم عليـه من المعاصي :

فقد ندمت على ما كان من خطل
ومن إضـاعة مكتـوب المواقيت
أدعوك سبحانك اللهم فاعف كما
عفوت يا ذا العلى عن صاحب الحوت

فلا شك أن مشاهد الحساب بدت قاسما مشتركا بين الزاهـد والتائب من لهوه ، والنادم مؤقتا على سـوء مسلكه ، على اختلاف درجة الصـدق التى انتهى إليها شاعر الخمر عما ذهب إليه الشاعر الزاهد الذى يتردد أمام عينه ويملأ عليه كل حواسـه أينما اتجه ، على نحـو ما أكثر أبو العتاهية من عرضـه وتصويره حتى أسرف فيه فبدا شـديد الاكتئاب :

وموعد كل ذى عمل وسـعى
بما أسـدى غدا دار الثـواب
تثقلت العظـام من الخطـايا
كأنى قد أمنت من العقـــاب
بأية حجـــة احتـج يـوم الـ
ـحساب إذا دعيت إلى الحسـاب ؟
هما أمران يوضح عنهما لى
كأنى حين أنظـر فى كتابى
فإما أن أخلـد فى نعيـم
وإما أن أخلد فى عـذاب(١١٢)

مرددا من آيات القرآن الكريم ما ازدحمت به من مشاهد الخلود للمتقين فى جنة عرضها السموات والأرض ، أو مشـاهد الخلود للكفار والمنافقين فى عمق جهنم والدرك الأسفل من النار .

(١١٢) شعر أبى العتاهية ٣٣ ـ ٣٤

ولعله يردد من صدى هذه المشاهد :

(يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم) •

(يقول هاؤم اقرءوا كتابيه) •

(فمنهم شقى وسعيد) •

وكثيرة هى ملامح الحس الدينى الغيبى عند أبى العتاهية — بحكم زهده — حتى أصبحت قضيته الأولى سلوكا وفكرا وفلسفة حياة ، وكأنه عمد فيها إلى الآيات القرآنية عمدا حتى أصبحت المصدر الوحيد لصوره ، خاصة فى وقفته الطويلة عند مشاهد القيامة :

للـه يوم تقشعر جلودهم
وتشيب منه ذوائب الأطفال

إذ يحاول الاقتراب من مشهد ذلك اليوم الذى (يجعل الولدان شيبا) ليراه بعد ذلك :

يوم ينادى فيه كل مضلل
بمقطعات النار والأغلال

مستوحيا معانى الآيات (يوم ندعو كل أناس بإمامهم)[113] •

(إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب)[114] •

وهنا المصير :

للمتقين هناك نزل كرامة
علت الوجوه بنضرة وجمال

(وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة)[115] •

---

(١١٣) سورة الإسراء ٧١ (١١٤) سورة البقرة ١٦٦
(١١٥) سورة القيامة ٢٣

(وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما)[116] .

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنـات الفردوس نزلا)[117] .

وإذا هؤلاء :

نزولا باكـرم سـيد فأظلهـم
فى دار ملك جـلالة وظـلال

(لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظـلا ظليلا)[118] .
(رضى الله عنهم ورضوا عنه) .

وإذا هو متأثر بحديث رسـول الله ﷺ (حول السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله .. إلى آخر الحديث الشريف ..) .

وبذا بدا القصص الدينى معينا ثرا لا ينضب حين يغيث الشعراء بكل ما قصدوا إلى تصويره وتأكيده أو تعزيزه ، فقد أخذ أبو العتاهية كثيرا من هـذا القصص شواهد على ما يذكره حـول الموت من قبيل تأكيد الموقف من خلال ما وقع للأمم الغابرة التى بادت ولم يبق منها إلا خبرها فى القصص القرآنى على نحو ما سجله قوله العام :

سـل الأيام عن أمم تقضت
سـتخبرك المعالم والرسـوم[119]

ثم ما ذهب إليه يقينا من منطق هـذا القصص القرآنى حين يذكر ما أصـاب « جديس » و « طسم » و « إرم » فى قوله :

ألم تـر أن أقسـام المنـايا
توزع بيننـا قسـما فقسـما

---

(١١٦) سورة طه ١١١ (١١٧) سورة الكهف ١٠٧
(١١٨) سورة النسـاء ٥٧
(١١٩) شعر أبى العتاهية ٣٥٥

سيفنينا الذى أفنى جديسا
وأفنى قلبها إرما وطسما(١٣٠)

وهو حين يتخذ العبرة من تاريخ أمم فانية قد يطيل الصورة ، ويزيد من عرض التفاصيل والمشاهد الجزئية الدقيقة فيها ، وربما بدا أقرب إلى التقرير منه إلى التصوير بحكم المادة المتناولة وأسلوب معالجتها ، فمع عمومية الأداء لا يتوانى عن الإكثار من توجيه النصح والإرشاد ، وتكرار الدعوة إلى التأمل فى كل ما يقول ، على نحو ما عرضه من تأملات دعا الناس إلى الاستغراق فيها معه قائلا :

من أحس لى أهل القبور ومن رأى
من أحسهم لى بين أطباق الثرى

لينفذ من هذا الموقف الكئيب القاتم إلى الاستشهاد بالماضى على وجه التعميم وربما من قبيل التعزى وتسلية النفس بهذه الأخبار :

ولقد مضى القرن الذين عهدتم
لسبيلهم وانتلحقن بمن مضى
ولكم أباد الدهر من متحصن
فى رأس أرعن شاهق صعب الذرى
أين الألى بنوا الحصون وجندوا
فيها الجنود تعززا .. أين الألى ؟
أين الحماة الصابرون حمية
يوم الهياج لحر مجتلب القنا
أفناهم ملك الملوك فأصبحوا
ما منهم أحد يحس ولا يرى (١٣١)

---

(١٣٠) شعر أبى العتاهية ٣٥٨
(١٣١) نفسه ١٣ ــ ١٦

حتى إذا ما وصل إلى مالك الملك عرج على المعجم الإسلامي تعريجا خاصا ليعرض منه بعضا من الصفات الإلهية وسمات الرسالة المحمدية :

وهو الخفى الظاهر الملك الذى
هو لم يزل ملكا على العرش استوى

أخذا من المعانى القرآنية (هو الله الملك القدوس السلام) (هو الظاهر والباطن) .

(الرحمن على العرش استوى)[١٢٢] .

ومردفا ذلك بحديثه عن بعثة النبى عليه السلام وكيف صلى عليه ربه وملائكته ، وجاء برسالة الهدى :

وهو الذى بعث النبى محمدا
صلى الإله على النبى المصطفى

مرددا بذلك معنى قوله تعالى :

(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) وكذا دلالة الآية الكريمة :

(إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) .

ثم يعرض سمات الرسالة على طريق الخير والهداية :

وهو الذى أنجى وأنقذنا به
ـ بعد الضلال ـ من الضلال إلى الهدى

متأثرا بقوله تعالى : (ليخرجكم من الظلمات إلى النور)[١٢٣] .

---

(١٢٢) سورة طه ٥

(١٢٣) سورة البقرة ٢٥٧

ولا يكاد أبو العتاهية يقترب من ختام قصيدته حتى يعاوده حزن عميق ولكنه يدعو دعاء إسلاميا للموتى ممن عرفهم مؤكدا ـ ثانية ـ حتمية الموت على كل البشر كل حسب ما قدر له ويسر من العمر :

كم من أخ لى قد وقفت بقبرة
فدعوته : لله درك من فتى !
أأخى لم يقك المنية إذ أتت
ما كان أطعمك الطبيب وما سقى
أأخى لم تغن التمائم عنك ما
قد كنت أحذره عليك ولا الرقى

مرددا بذلك صورا متشابهة جعلها موضع اعتبار ، وموطن عظة أيضا :

فقبلك داوى الطبيب المريض
فعاش المريض ومات الطبيب

وكان طبيعيا أن يجره حديثه حول المصير وقضية الموت إلى التوقف طويلا عند الرثاء ، باعتباره صورة من نفس المستوى البكائى الحزين ، وفى دائرته اتسع المجال أمام الشاعر ليعكس من حسه الإسلامى ومعجمه كثيرا من الملامح والجزئيات ، وشاع الموقف لدى من الشعراء ممن خاضوا فى رثائياتهم كثيرا من قضايا المصير خارج دائرة الزهاد ، وبعد أبى العتاهية ، على نحو ما ظهر عند أبى تمام حين يطرح صورا إسلامية رائعة يخلعها على القائد المشهور محمد بن حميد الطوسى الذى وجهه المعتصم بالله إلى قتال

الخرمية[١٢٤] ففى رثائه يعرض أبو تمام الموقف الدينى بشكل عام حين يجعله مجاهدا فى سبيل الله :

ألا فى سبيل الله من عطلت له
فجاج سبيل الله وانثغر الثغر

وإذا هو بصدد تصوير البطل وهو يواجه صفوف الأعداء فلا يعرف تخاذلا ولا إدبارا ، بل يتقدم إلى الموت طامعا فيما بعده من جنة الشهداء :

فأثبت فى مستنقع الموت رجله
وقال لها : من تحت اخمصك الحشر

ولذا أفاض الشاعر فى عرض تلك الجوانب الإسلامية للموقف جملة فإذا بالأجر يشخصه أكفانا له ، وإذا به يتخيل ثيابه تبشر بجنة تنتظره :

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى
لها الليل إلا وهى من سندس خضر

(عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق)[١٢٥] .

وإذا هو يجمل فى صورته التى مات عليها مسلما نقيا طاهر الأثواب ، لتنتظره روضة من رياض الجنة تتمنى احتواء جسده الطاهر :

---

(١٢٤) كان الخرمية قد تضخم أمرهم وخطرهم حين تزعمهم بابك الخرمى الذى ادعى أنه إله وتحصن من المسلمين وامتنع عن الخلافة الإسلامية عشرين عاما ، فوجه المعتصم إليه الطوسى لما عرف من شجاعته وصبره ، فتحايل عليه الخرمية وكمنوا له بين الصخور بجيش ضخم انتقض عليه حين اقترب منهم فتشرد فى جنبات الأرض جيشه وأبت نفسه عليه الفرار فظل وحيدا حتى خر صريعا .

(١٢٥) سورة الإنسان ٢١

مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة
غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر

ولم يتوقف الحس الغيبي بأبي تمام عند دائرة الرثاء هـذه بل ازدادت الصورة وضوحا وعمقا لديه حين عرج على عالم الغيب جاعلا منه موضوعا لطرح قضايا الرزق ، والحسـاب ، والنشور ، على النحو الذي يبرزه قوله :

ورزقك لا يعـدوك إلا معجـل
على حاله يوما وإما مؤخـر
ولا حـول محتال ولا وجه مذهب
ولا قـدر يزجيه إلا المقـدر
لقد قدر الأرزاق من ليس عادلا
عن العدل بين الناس فيما يقدر
فلا تأمن الدنيا إذا هي أقبلت
عليك فما زالت تخـون وتدبر
تطهر وألحق ذنبك اليوم توبة
لعلك منه ـ إن تطهرت ـ تطهر
تذكر وفكر الذي أنت صائر
إليه غـدا إن كنت ممن يفكر
فلابد يوما أن تصـير لحفـرة
بأبنائها تطوى إلى يوم ينشر(١٢٦)

فهو يردد صوره حول القدر المقدور ، وحول المقدر سبحانه ، وكيف يصنف الناس في توزيع الأرزاق بين الافاضـة والتقتير والتوسط (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) .

(قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشـاء وتنزع الملك ممن

(١٢٦) ديوان أبي تمام ٤/٥٩٤

تشـــاء وتعز من تشـــاء وتذل من تشـــاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) .

ولذا ينفر الشـــاعر من الاستسلام للدنيـــا ، أو الركون إلى زخرفها ويدعو إلى ضرورة التفكر في المصير ، والانشـــغال بما بعد الموت من النشـــور والحساب والثواب والعقاب .

وتأتي التوبة مجالا يكثر حوله حديث شعراء العصر كرد فعل لمـــا أصاب الحياة العباسية من آثام وفساد أخلاقي ، وتحلل من القيم الإجتماعية والدينية ، مما دفع فريقا من الشعراء إلى إعلان توبته ورجوعه عن الإنزلاق في مدارج اللهو الحضاري ، ومن ثم ظهر على الجانب الآخر من الحياة تيار من الزهد الإسلامي روج له فريق آخر من شـــعراء العصر غير أبي العتاهية .

على أننا لا ينبغي أن نحسن الظن ـــ في كل الأحوال ـــ حول كل ما قيل في توبة بعض الشعراء ، خاصة منهم من أسرف على نفسه في ارتكاب المعاصي كأبي نواس الذي ما عرف سبيلا إلا إلى تحقيق متعه ضاربا صفحا عن التمسك بأي من القيم أو التقاليد ، فإذا به يجاهر بالمعصية ، ويرفع لواء التحلل الأخلاقي ، ويشكك شباب عصره في القيم الدينية ، ويتزعم عصابة المجون التي جعلها محورا لفخره وزعامته ، ولكنه في لحظات من المراجعة النفســـية وحالات الصحوة من سكره وعربدته ـــ ويبدو أنها كانت قليلة في حياته ـــ بدا نادما على ما كان منه ، ومن هنا يتحتم ســـوء الظن بسلوك أبي نواس الذي لم يحســـن زهده ، ومن ثم يصعب ضـــمه إلى فريق الزهاد ليبقى فقط نادما في لحظات المراجعة تلك ، على نحـــو ما رصـــده شعره من مثل قوله :

ما حجتي فيما أتيت ؟ وما
قولي لربي ؟ بل وما عـــذري ..

أن لا أكون قصدت رشدى أو

أقبلت ما استدبرت من أمرى

يا سوأتا مما اكتسبت ويا

أسفى على ما فات من عمرى(١٢٧)

فمثل هذا النغم الحزين يصدر عن الشاعر فى لحظات المشيب التى يبكى من جرائها بصرف النظر عن إسلامه من عدمه ، فكثيرة هى أحاديث الشعراء منذ الجاهلية حول شكوى الشيب وشكوى الزمن الأمر الذى لا يسجل أيا من صور التميز لأبى نواس ، ولا هو يكشف عن شىء من صدقه فى تلك التوبة المتصنعة التى يغلب عليها طابع الافتعال فى فترة متأخرة من حياة الشاعر ، لم يتورع بعدها من ممارسة لذته كما شاء له الهوى وكأنه يستوحى بذلك من النص القرآنى مشهد الكفر يوم يلقى ربه فيبدو نادما آملا أن يعود إلى الدنيا (قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت) أو قول الكافر يوم البعث أيضا (يا ليتنى كنت ترابا) .

من هنا نستطيع الزعم بأن توبة أبى نواس قد افتقدت عنصر الصدق ، فبدت مجرد امتداد لتحسر شعراء الجاهلية على ماضى حياتهم ، مع تعديل خفيف فيما ذهبوا إليه بحكم العصر وانتشار المعجم الإسلامى فيه كجدول من جداول ثقافة الشعراء . ولكن الذى لا يخفى أن أبا نواس قد اقتبس من هذا المعجم الإسلامى كثيرا من ألفاظه وصوره بصرف النظر عن صدقه فى توبته من عدمها ، ذلك أن الحقيقة المؤكدة أنه استوحى منه الكثير على النحو الذى يستعرض فيه ما ينتظره من عذاب فى يوم لا يجد فيه الناس (ملجأ من الله إلا إليه) .

---

(١٢٧) ديوان أبى نواس ٦١٠

فيقول :

أيـنـا مـن لـيس مـنـه مـن مـجـيـر
بعفوك من عـذابك أسـتـجير
أنا العبـد المقـر بكـل ذنب
وأنت السـيـد المولى الغـفـور
فإن عذبتنى فبسـوء فعلـى
وإن تغفر فأنت به جـديـر
أفـر إليك منـك وأين إلا
إليك يفـر منـه المسـتجير(١٢٨)

مرددا بذلك صدى الآيات القرآنية (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم)(١٢٩) وإن كان أبو نواس يتمادى فى حديثه عن العفو الإلهى ، متخذا منه مشجبا يعلق عليه ما يشاء من ذنوب وآثام ، ولعله أخذ فى ذلك بما انتقاه من فلسفة الإرجاء أو العفوية ، التى أسهمت فى انتشار الفساد فى العصر ، وتعليق المعاصى على العفو الإلهى استنادا إلى ما نشرته المرجئة من تأويل للآية الكريمة (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فراح الشعراء يستغلون الموقف لينشروا بين الشباب ما يبيح لهم التحلل من التكاليف الدينية ، والانصراف عن الفضيلة خاصة منهم من بدا رقيق الإسـلام وهى العقيدة سقيم الوجدان الدينى ، فراح يعلق منكر أفعاله على تلك الفلسفة ، محاولا - إذا تاب مؤقتا - أن يصبغ على توبته طابعا دينيا على نحو قول أبى نواس أيضا :

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة
فلقد علمت بأن عفوك أعظم

---

(١٢٨) ديوان أبى نواس ٦١٠

(١٢٩) سورة المائدة ١١٨

إن كان لا يرجوك إلا محسن
فبمن يلوذ ويستجير المجـــرم
أدعوك رب كما أمرت تضرعـــا
فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم
مالى إليك وسيلة إلا الرجـــا
وجميل عفوك ثم أنى مسلم[١٣٠]

فهو يستوحى معانيه من دلالات الآيات القرآنية (ضل من تدعون إلا إياه)[١٣١] .

(وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) .

(وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات)[١٣٢] .

(ادعو ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين)[١٣٣] .

وهو الدعاء الذى أخذ به فى كثير من مواقفه التى اعتذر فيها عن قبح مسلكه وتحسره على ماضيه :

لهف نفسى على ليال وأيـــام
تمليتهن لعبـــا ولهـــــوا
قد أستبانا كل الاســـاءة فاللـــ
ـهم صفحا عنا وغفرا وعفوا[١٣٤]

وتتراوح لوحات التوبة عند أبى نواس بين هـذه المواقف التى يوثر فيها الإيجاز والتركيز ، بين ما عمد فيه إلى الإطالة وطرح

---

(١٣٠) ديوان أبى نواس ٦١٨
(١٣١) سورة الإسراء ٦٧
(١٣٢) سورة الشورى ٢٥ .
(١٣٣) سورة الأعراف ٥٥ .
(١٣٤) ديوان أبى نواس ٥٨٠ .

التفاصيل التي تكشف عن طابع الحزن النفسي ، وعمق الآلام التي يحسها في داخله ، فلا يتوانى في عرض ملامحها كما في قوله :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل
خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولا أن ما يخفى عليه يغيب
لهونا — لعمر الله — حتى تتابعت
ذنوب على آثارهن ذنوب
فيالیت أن الله يغفر ما مضى
ويأذن في توباتنا فنتوب
أقول إذا ضاقت علي مذاهبي
وجلت بقلبي للهموم ندوب
لطول جنايتي وعظم خطيئتي
هلكت ومالي في المتاب نصيب
ويذكرني عفو الكريم عن الورى
فأحيى .. وأرجو عفوه فأنيب
فأخضع في قولي وأغضب سائلا
عسى كاشف البلوى علي يتوب (١٣٥)

فهو يرتدي ثوب المسلم الحق حين يرجع عن خطيئته مدركا أن عليه رقيبا يسجل عليه دقائق أعماله (ما يلفظ من قول إلا عليه رقيب عتيد) . ومرددا أيضا من معاني الآيات الكريمة (لا تأخذه سنة ولا نوم) (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو)(١٣٦) .

(١٣٥) ديوان أبي نواس ٦١٠ .
(١٣٦) سورة الأنعام ٥٩ ...

(وهو الذى يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات)[١٣٧] .
(وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب)[١٣٨] .

ومن هنا بدا تشبث أبى نواس بالمعجم الإسلامى رهنا بما كان من جرائمه وعبثه الدينى طيلة حياته ، فهو الذى ردد من منطق الانصراف عن الدين ومن باب السخرية والتهكم :

بكرت على تلومنى فأجبتها
إنى لأعرف مذهب الأبرار
فدعى الملام فقد أطعت غوايتى
وصرفت معرفتى إلى الإنكار
ورأيت إتيانى اللذاذة والهوى
وتعجلى من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظر عاجل
علمى به رجم من الأخبار
ما جاءنا أحد يخبر أنه
فى جنة مذ مات أو فى نار[١٣٩]

وهو الذى أعاد إلى أذهان شباب العصر حس الجاهلية على حساب الحس الدينى :

ياناظراً فى الدين ما الأمر
لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندى من جميع الذى
تذكر إلا الموت والقبر[١٤٠]

وتفاخر طويلا بزعامته عصابه السوء :

عصابة سوء لا ترى الدهر مثلهم
وإن كنت منهم لا بريئا ولا صفرا

---

(١٣٧) سورة الشورى ٢٥ . (١٣٨) سورة الزمر ٥٤ .
(١٣٩) ديوان أبى نواس ١٣٩
(١٤٠) ديوان أبى نواس ١٤٠

يفاخره بآثامه :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم
وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه
فإذا عصارة كل ذاك آثام

فهذا هو السلوك الطبيعي لأبي نواس ومن خلاله ينبغي أن يصدر الحكم عليه ، أما عن تشبثه بالمعجم الإسلامي في لحظات الندم فقد بدا استثناء لا قاعدة ، وإن بدا فيه أحيانا آملا في الهداية ، إلا أنها لم تتحقق له في كل الأحوال :

حتى متى يا نفس تغترين بالأمل الكذوب ؟
يانفس توبي قبل أن لا تستطيعي أن تتوبي
واستغفري لذنوبك الرحمن غفار الذنوب
إن الحوادث كالرياح عليك دائمة الهبوب
والموت شرع واحد والخلق مختلفو الضروب
والسعي في طلب التقى من خير مكسبة الكسوب

إذ يبدو شديد التحسر على سلوكه وممارسات واقعه ، مما يخلق منه حكيما يطرح القضايا في هذا الشكل العام الذي يرى فيه الحوادث كالرياح والموت شرع واحد ، والسعي في طلب التقى هو الخير كله ، وكأن الشاعر يدين بذلك نفسه ، ويدين ماضيه وحاضره من خلال تلك الحكم التي رصدها في أخريات حياته بعد أن عجز عن مواصلة لهوه ومجونه ، ومن ثم جاءت كثرة حديثه عن هذا الجانب من منطق الشيب والشيخوخة والعجز عن استمرار متع الشباب :

آية نار قدح القادح
وأى جد بلغ المازح ؟
لله در الشيب من واعظ
وناصح لو سمع الناصح

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى
ومنهج الحق له واضح

فاستسم بعينيك إلى فتوة
مهورهن العمل الصالح

لا يجتلى الحوراء من خدرها
إلا امرؤ ميزانه راجح

من اتقى الله فذاك الذى
سيق إليه المتجر الرابح

شمر فما فى الدين أغلوطة
ورج لما أنت له رائح (١٤١)

فهو يبدو قريبا من التقوى ، داعيا إليها ، استجابة منه لصوت الشيب وما فيه من وعظ وإرشاد ونصح ، كشف له عن أباطيل ماضيه وضلاله ، على الرغم من وضوح الحق ظاهرا أمام عينيه مشيرا بأبياته إلى ما قد أفاده أيضا من معانى الآيات القرآنية (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

وما أشار إليه من حور العين من نساء الجنة (وحور عين) ، وكيف كانت مهورهن من صالح الأعمال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) ، (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) ثم ينهى الموقف بعرض ما فى الدين من حقائق ، ونفى أية أغلوطة عنه كاشفا بذلك عن فساد رأيه فى وقائع ماضيه كلها يوم أن جعل حجه إلى غمى وبنا وقطربل حيث حانات الخمر :

---

(١٤١) ديوان أبى نواس ٦١٨

جعلت الحج فى غمى وبؤسى وتفنى قطربل أبداً رباطى
فقل للخمس آخر ملتقانا إذا ما كان ذاك على الصراط

ويومها نهى عن أداء فريضة الله فى البيت الحرام :

لا تأتين بلاد مكة محرماً ولو أن مكة عند باب الدار

ليجعل وصيته الأخيرة أن يدفن فى قطربل بين الحانات والمعاصر :

خليلى بالله لا تحفرا لى القبر إلا بقطربل
خلال المعاصر بين الكنيسة ثم لا تدليانى من السنبل
لعلى أسمع فى حفرتى إذا عصرت خطوة الأرجل

وقياسا على لوحات الندم عند أبى نواس ، انتشرت التوبة بين كثير من شعراء العصر سواء منهم — فى ذلك — من امتلك رصيدا من سيئات الماضى على نهج أبى نواس ونظرائه ، أو من كان منهم أكثر صدقا فى توبته ، فعرضها مشوبة بمنطق الخوف والحذر ، حين يستجمع فى ذاكرته مشاهد القيامة والبعث والحساب ، على نحو ما ردده قول أبى تمام :

ألم يأن تركى لا على ولا ليا
وعزمتى على ما فيه إصلاح حاليا
أصوات بالدنيا وليست تجيبنى
أحاول أن أبقى وكيف بقائيا
وما تبرح الأيام تحذف مدتى
بحذ حساب لا كحذ حسابيا
لتمحو آثارى وتخلق جدتى
وتخلى من ربعى — بكره — مكانيا
كما فعلت قبلى بطيم وجرهم
وآل ثمود بعد عاد بن عاديا
أليس الليالى غاضباتى بمهجتى
كما غضبت قبلى القرون الخواليا ؟

ومسكنني لحدا لدى حفرة بهـا
يطول إلى أخرى الليـالى ثوائيا ؟
كما أسكنت ساما وحاما ويافثا
ونوحا ومن أضحى بمكـة ثاويا
فيالينتى من بعد موتى ومبعثى
أكون رفاتا لا على ولا ليـا
أخاف إلهى ثم أرجو نوالـه
ولكن لخـوفى قاهر لرجائيـا
ولولا رجائى واتكالى على الذى
توحد لى بالصـنع كهلا وناشـيا
لمـا ساغ لى عذب من المـاء بارد
ولا طاب لى عيش ولازلت باكيـا
على إثر ما قد كان منى صبابة
ليـالى فيهـا كنت لله عاصـيا
فإنى جـدير أن أخاف وأتقـى
وإن كنت لم أشرك بذى العرش ثانيا
وأذخر التقوى بمجهود طاقتـى
وأركب فى رشدى خلاف هوائيا (١٤٢)

فإذا هو يفقد الأمل فى الخلود إيمانا منه بما نزلت به العقيدة ، ويؤكد فناءه من خلال اعتبارات يدعمها القصص القرآنى حول مصائر الأقوام التى مضت وبادت ، وحل بها الفناء ، مهما طال أمد العصيان ،

---

(١٤٢) ديوان أبى ثمام ٤/٦٠٠ ــ ٦٠٢ سام وحام ويافث : أبناء نوح عليه السلام • عاد : شعب سكن الأحقاف وأهلكه الله بريح صرصر لبغيه • ثمود : شعب عربى قديم • جرهم : حى من اليمن كان على عهد إسماعيل عليه السلام • طسم : قبيلة من العمالقة أبادها الله كانت تسكن اليمامة •

ومن ذلك ما كان من شـــأن طسم وجرهم وثمود وعاد فى القرون الخالية ، ولذلك راح الشاعر يطرح أمنيته فى أن يكون ترابا بعد موته ومبعثه (ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا) وهو يعيش بذلك قلقا ممزقا مضطربا بين الخوف والرجاء ، ولكن خوفه يكاد يتجاوز رجاءه ، ولذا يطرح مع خوفه ورجائه توكله على الله ، وتوبته عن ليال مضت كان فيها عاصيا ، وبدا الآن خاشعا ، يخشى ربه ويخافه ، ويتقى عذابه وغضبه وعقابه ، مؤكدا أنه لم يشرك به أحدا ولم تسول له بشىء من ذلك نفســـه ، (واعبدوا الله ولا تشركوا به شـــيئا وبالوالدين احســـانا)[١٤٣] •

ثم راح يعرض ما ادخره من التقوى جهد طاقته ، آخذا من الرشـــد ســـبيله ، ومحاولا أن يقضى بـــه على أهـــوائه (لعلهم يرشدون) •

وبذا يبدو طابع الصدق واضحا فى أبيات أبى تمام ، وربما ازداد توكيدا إذا ضممنا إليه ما أشارت إليه ســـيرته وأخباره من ســـلوك طيب يحمـــد له ، فلم يتطرف على نحو ما رأينا فى النهج النواسى ولم يكن زنديقا ولا ملحدا كمـــا انتشر فى عالم المجان والزنادقة ، بل كان على عكس أبى نواس الذى لم يجد فى زندقته سوى ضرب من الظرف الاجتماعى وخفة الظل على حساب عقيدته حين قال :

تزندق مطلنـــا ليقـــول قوم إذا ذكـــروه زنديق ظريف

وبذا تظل الفروق الفردية بين الشاعرين سلوكا وشـــعرا بمثابة إضاءة تكشف الخيوط الدقيقة فى المفارقات السلوكية بينهما حول عالم التوبة من أبواب الزهاد •

ويدير كثير من شـــعراء العصر حواره حـــول المبادىء الإيمانية التى تتعلق بالتوحيد ، وتنزيه الله ســـبحانه وتعالى ، وكأنما راح

---

(١٤٣) سورة النساء ٣٦ •

الشعراء يستعيدون سيرة أسلافهم فى عصر صدر الإسلام ، ممن تبنوا تلك القضايا ، وحاولوا ترسيخها استكمالا لأصول الجهاد الدينى ، والدفاع عن الإسلام ضد مدرسة المشركين من شعراء مكة وحماة وثنيتها .

ولعل مظاهر الفساد التى شاعت بين شباب المجتمع العباسى كانت من الدوافع الرئيسة لتلك المحاولة الاحيائية لنشر مبادىء دينية تتصدى لتيار الزندقة والمجون عند من خرجوا على مبادىء الدين وقيمه ، ولكنا — مع هذا — لا نستطيع الزعم بأن هذا هو الدافع الوحيد فى ميدان الفن الشعرى ، إذ نجد لتلك المبادىء أصداء كثيرة عند كل شعراء العصر حتى الزنادقة منهم ، مما يدل على أن طرحها إنما جاء كرد فعل — بالدرجة الأولى — لتأثير المعجم الإسلامى كتراث رسخ فى ذاكرة كل الشعراء ، فصار قاسما مشتركا بين الواعظ منهم والماجن ، الأمر الذى انعكس — بالطبع — فى صور من الصدق لدى الزهاد والوعاظ ، وكثير من أساليب النفاق الدينى لدى الزنادقة والمجان والمخمورين .

ومع بشار وأبى نواس تتكشف لنا بعض أبعاد هذه الحقيقة التى لم تصدر عن إيمان ويقين كاملين ، بقدر ما انعكست من ممتطق الاضطهاد والكره من قبل الشاعر لأن يكون مولى للعرب ، مما دفعه إلى تلك الصياغة التى تبدو مليئة بالمغالطات على نحو ما كان عائبة بشار حين سجل ولاءه لذى الجلال وقارن بينه وبين ولائه لتميم أو غيرها ، وليس ثمة وجه للمقارنة إلا القصد إلى السخرية إذ عرض الصورة على النحو الذى قال فيه أبياته المشهورة :

أصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم
مولى الغريب فخذ بفضلك وافخر
مولاك أكرم من تميم كلها
أهل الفعال ومن قريش والمشعر

فارجع إلى مولاك غير متداخـــع
سبحان مولاك الأجل الأكبر (١٤٤)

فلو كانت ولاية بشار لله حقا لما تزندق وأعلن أنه على دين كسرى ، ولما شك هو أصل الخليقة وردد منطق إبليس حول تفضيله على آدم وكاد يقدس النار على طاعة عبادها من المجوس من بنى جنســـه .

وتثور قضية الوحدانية على لسان أبى نواس من منطق التأمل العقلى الذى دعا إليه القرآن الكريم ، حيث حض على الإكثار منه وصـــولا إلى المزيد من معرفة الله سبحانه وتعالى والإيمان به ، وتأكيد توحيده ، فيقول أبو نواس :

تأمل فى رياض الأرض وانظـــر
إلى آثـــار ما صـــنع المليـــك
عيـــون من لجـــين شاخصـــات
بأحداق هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شـــاهدات
بأن الله ليس له شريك (١٤٥)

وإن كان يظهر جليا أن أبا نواس إنما أخذ مادة تأمله من واقع حضـــارة العصر مركزا على الجانب المتاخم منها حول « الرياض » ، « عيون اللجين » و « الذهب السبيك » و « قضب الزبرجد » ، فحاول تطويعها لخدمة القضـــية الإيمانية التى تأثر فيهـــا بالمعجم الإســـلامى على معنى قوله تعالى « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم » (١٤٦) .

---

(١٤٤) ديوان بشار ٤/٦٤ (١٤٥) ديوان أبى نواس ٢٧٠
(١٤٦) سورة محمد ١٠

« الذين يتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هـذا باطلا سبحانك »(١٤٧) .

وتتردد هـذه المعانى الإسـلامية فى بيئة المتزندقة فى فترات التوبة والندم التى مرت فى حياة بعض منهم ، وإذا أحاديثهم تأخذ منحى حكميا يتخذ من ذلك الحس الإسلامى سندا فى تأكيد المعنى وتعميمه على نحو ما سـجله بشار فى قوله :

خليلى إن العسر سوف يفيـق
وإن يسـارا فى غـد لخليـق

خليلى إن المـال ليس بنـافع
إذا لم ينل منه أخ وصـديق

وما خاب بين الله والناس عامل
ولكن أخلاق الرجال تضـيق(١٤٨)

فإذا هو يردد حكمه اسـتنادا إلى المعانى القرآنية التى انتشرت فى كثير من الآيات القرآنية الكريمة « ان مع العسر يسرا » .

« يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .

« وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم »(١٤٩) .

« وما كان عطاء ربك محظورا »(١٥٠) .

مع ما أكمل به الشـاعر لوحته من معان بدت لها قيمتها الخاصة ودورها البارز فى رقى الحياة الإنسانية .

---

(١٤٧) سورة آل عمران ١٣١ .
(١٤٨) ديوان بشار ٤/١١٤ .
(١٤٩) سورة الأنفال ٦٠
(١٥٠) سورة الاسراء ٢٠ .

وعلى نفس النهج الحكمى سار النواسى فيما عرضه من موقفه من الكبرياء والغرور ، فراح يدعو إلى التواضع من منطق تقوى الله تعالى قائلا :

حذرتك الكبر لا يعلقك ميسمه
فإنه ملبس نازعته الله

إنى لأمقت نفسى عند نخوتها
فكيف آمن مقت الله إياها ؟

يارأكب الذنب قد شابت مفارقه
أما تخاف من الأيام عقباها ؟ (١٥١)

فهو يردد ما استوعبه من تلك المعانى الإسلامى المطروحة حول السلوك البشرى (ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور) .

كما رصد الكبرياء والعظمة لله وحده لا شريك له فيها (العزيز الجبار المتكبر) .

وإذا بهذا الفريق من الشعراء يبدو شديد الحرص على موقفه المذهبى ، حين ينتمى إلى إحدى الفرق الكلامية التى تلجأ إلى تأويل بعض الآيات القرآنية ، تأكيدا لانجاهها ، ومسايرة لمذهبها فإذا بأبى نواس يأخذ فلسفة الإرجاء — كما عرضت انفا — وإذا ببشار يأخذ بفلسفة الجبرية فى بعض المواقف ، خاصة حين يتعرض للحديث عن كف بصره ، إذ يأخذ المسألة من منظور دينى يكشف فيه عن رضاه بقدره :

وعيرنى الأعداء والعيب فيهم
وليس بعيب أن يقال ضرير

---

(١٥١) ديوان أبى نواس ٦٢٠ .

إذا أبصر المرء المروءة والتقى
فإن عمى العينين ليس يضير
رأيت العمى أجرا وذخرا وعصمة
وإني إلى تلك الثلاث فقير (١٥٢)

فهو يعرض القضية مغلفة بموقف ديني يجعل محوره الأجر والتقى والذخر والعصمة ، مما يقوده إلى سبيل الرشاد في حياته ، وهو سلوك إسلامي قويم تعرضه الآيات القرآنية في كثير منها .

ولم يثبت بشار على حاله في موقفه الجبري ، بل تحول إلى صورة من الغضب والسخط على قدره في موقف آخر يكشف زيف هذا الاتساق المفتعل :

خلقت على ما فيّ غير مخير
هواي ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد
ويقصر علمي أن أنال المغيبا

وعنده أيضا ترد محاولات أخرى كثيرة تشترك مما أفاده من المعجم الإسلامي ، حتى في موضوع الهجاء ، الذي يأخذ فيه بهذا المنحى الديني ، حين يهجو عبد الكريم بن أبي العوجاء قائلا :

قل لعبد الكريم يا ابن أبي العو
جاء بعت الإسلام بالكفر موقا
لا تصلي ولا تصوم فإن ضم
ت فبعض النهار صوماً رقيقا
لا تبالي إذا أصبحت من الخم
ر عتيقاً ألا تكون عتيقا
ليت شعري غداة حليت في الحج
د حنيفا حليت أم زنديقا (١٥٣)

---

(١٥٣) ديوان بشار ٤/١١١ .

فهو يعرض بعبد الكريم الذى قتل على زندقته لما عرف عنه من وضع الأحاديث على رسول الله ﷺ ، فيعرض لما كان من كفره ، وعدم قيامه على العبادات من صوم وصلاة ، وإكثاره من شرب الخمر ، ليتوج الاتهام بعرض زندقته بهذه الصورة التهكمية التى تكاد توهمنا بتدين بشار لولا ما امتلأت به سيرته من أخباره وشعره كزنديق متحامل على العقيدة حتى قال واصل بن عطاء فى حقه « أما لهذا الأعمى من يقتله » .

وفى مقابل هذا الفريق من شعراء الزندقة والمجون عاشت فئة قليلة من شعراء الزهد ، وراحت تتبارى حول الاقتباس من المعجم الإسلامى بشكل بدا فيه الشاعر منهم أكثر صدقا وعمقا ، عما رأينا لدى الفريق الأول ، صحيح أن انتشار المعجم بين الفريقين يظل دالا على عمقه وقدرته على الذيوع واتساع دائرة التأثير فى كل الاتجاهات ، ولكن تظل درجة التأثير والإقتناع بما يقوله الشاعر أمراً متباينا بين الفريقين بصورة واضحة ، فعند شعراء الزهد لنا أن نتوقف عند هذه المؤثرات الإسلامية ولعل أكثرهم تأثرا بها وأكثرهم أيضا نظما حولها أبو العتاهية الذى شغل نفسه بقضية المصير — كما رأينا — فأدار حولها أكثر من حوار دينى طويل راح يغلفه بالقضايا الإيمانية المختلفة ، وفى مقدمتها قضية التوحيد والتنزيه التى أطال عندها الوقوف على نحو قوله موضحا مكانة الخالق سبحانه :

ملك تواضعت الملوك لعزه
وجلاله سبحانه وتعالى
لا شىء منه أدق لطفا إحاطة
بالعالمين ولا أجل جلالا (١٥٤)

مرددا بذلك معانى الآيات الكريمة « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » .

---

(١٥٤) شعر أبى العتاهية وأخباره ٣٠٩ .

« وكان الله بكل شيء محيطا » .

وكثيرة هي تسبيحات أبي العتاهية التي يستغرقه فيها حسه الديني ، فيردد منها مكررا ومصورا درجات اليقين والتنزيه الإلهي :

سبحان من يعطي المنى بخواطر
في النفس لم ينطق بهن لسان
سبحان من لا شيء يحجب علمه
فالسر أجمع عنده إعلان
سبحان من هو لا يزال مسبحا
أبدا وليس لغيره السبحان
سبحان من تجري قضاياه على
ما شاء منها غائب وعيان
سبحان من هو لا يزال ورزقه
للعالمين به عليه ضمان
ملك عزيم لا يفارق عزه
يعصى ويرجى عنده الغفران
ملك له ظهر الفضاء وبطنه
لم تبل جدة ملكه الأزمان
يبلي لكل مسلطن سلطانه
والله لا يبلى له سلطان (١٥٥)

فهو يستوحي كل ملامح التنزيه من الحس القرآني الذي أخذه من معاني الآيات القرآنية (وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون) (١٥٦) (يرزق من يشاء بغير حساب) .

(وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) (١٥٧) .

---

(١٥٥) شعراء أبي العتاهية ٣٧٠ .
(١٥٦) سورة الأنعام ٨٠ . (١٥٧) سورة النور ٣١ .

(يسبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض الملك القدوس)[١٥٨] .

(الحمد لله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض)[١٥٩] .

وعلى نفس النسق يأخذ أبو العتاهية معالم الوحدانية والتنزيه من منطق التأمل والتدبر والتفكر الذى حدا به إلى استنكار معصية الله أو جحود نعمه تعالى قائلا :

أيا عجبـــا كيف يعصى الإلـــ
ـه أم كيف يجحـــده الجاحـــد
وللـــه فى كـــل تحريكـــة
وتســـكينة أبـــدا شـــاهد
وفى كـــل شىء له آيـــــة
تدل على أنه الواحـــد[١٦٠]

إذ لا يزال يردد من معانى الآيات القرآنية ما دعت إليه من تقدير لملكة العقل ، والدعوة المتكررة لإعماله للتدبر فى خلق السموات والأرض (ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين)[١٦١] .

ففى كل صور الخليقة ما يشهد بقدرة الله ويدعو إلى توحيده (أفلا يتفكرون) (أفلا يتذكرون) (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)[١٦٢] (أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم)[١٦٣] .

وكانت ردود الفعل عند أبى العتاهية صادرة عن إيمانه بوحدانية

---

(١٥٨) سورة الجمعة ١ . (١٥٩) سورة سبأ ١ .
(١٦٠) طبقات الشعراء المحدثين (ابن المعتز) ٢٠٧ .
(١٦١) سورة الأنعام ٥٩ . (١٦٢) سورة محمد ٢٤ .
(١٦٣) سورة يس ٨١ .

الله وتنزيهه قبولا لقضائه وقدره في قوله مازجا التوحيد بالايمان بالقضاء :

تعالى الواحد الصمد الجليل
وحاشا أن يكون له عديل
هو الملك العزيز وكل شيء
سواه فهو منتقص ذليل
وما من مذهب إلا إليه
وإن سبيله لهو السبيل
وان له لمنايا ليس يخفى
وإن عطاءه لهو الجزيل
وكل قضائه عدل علينا
وكل بلائه حسن جميل
وكل مفوه أثنى عليه
ليبلغه فمنحسر كليل (١٦٤)

مرددا من حسه القرآني دلالات الآيات (قل هو الله أحد ، الله الصمد)(١٦٥) .

(هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس)(١٦٦) .

(قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني)(١٦٧) .

(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها)(١٦٨) .

(والله يحكم لا معقب لحكمه)(١٦٩) .

---

(١٦٤) ديوان أبي العتاهية ٢٢٠ .
(١٦٥) سورة الاخلاص ١ ، ٢ .
(١٦٦) سورة الحشر ٢٤ . (١٦٧) سورة يوسف ١٠٨ .
(١٦٨) سورة النحل ١٨ . (١٦٩) سورة الرعد ٤١ .

(وإن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم)[١٧٠] .

(إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون)[١٧١] .

ولعل أبا العتاهية بسلوكه الدينى وحرصه على النظم حوله قد جعله لامعا بين شعراء العصر حتى أصبح شعره موضعا لمعارضتهم دون أن يعنى هذا أن كل من عارضوه كانوا من الزهاد ممن كانت لديهم القدرة على كشف سلوكهم وترجمة مبادئهم فى شعرهم ، أما أبو نواس ومن نهج نهجه ، فكانوا فى حاجة إلى هذا الإرشاد وذلك التوجيه ، ولذا حاول بعضهم تقليد أبى العتاهية فى شعره الدينى على ذلك النحو الذى ردد منه أبو نواس :

إلهنا ما أعدلك ... مليك كل من ملك
لبيك إن الحمد لك ... والملك لا شريك لك
ما خاب عبد سألك ... أنت له حيث سلك
لولاك يارب هلك

لبيك إن الحمد لك ... والملك لا شريك لك
كل نبى وملك ... وكل من أهل لك
وكل عبد سألك ... سبح أو لبى فلك
لبيك إن الحمد لك ... والملك لا شريك لك
والله لما أن حلك ... والسابحات فى الفلك
على مجارى المنسلك

لبيك إن الحمد لك ... والملك لا شريك لك
يامخطئا ما أغفلك ... عجل وبادر أجلك
واختم بخير عملك[١٧٣]

---

(١٧٠) سورة النساء ٢٥ . (١٧١) سورة يوسف ٨٧ .
(١٧٢) ديوان أبى نواس ٦٢٣

فهو يردد معانى التلبية التى يأخذها الحجيج وسيلتهم إلى الله سبحانه فى شعائر حجهم ، وإشارة إلى استجابتهم لأداء فرائضه فى مواسم الحج ، فراح الشاعر يصوغها على نهج صياغة أبى العتاهية مقررا من حقائق العقيدة ما أداره حول العدل الإلهى والوحدانية المطلقة ، وإجابة المعبود تعالى للسائلين من عباده ، مستشهدا على الوحدانية بمعالم كونية من مشاهد الليل والنهار والفلك ، متعقبا بذلك معانى كثير من الآيات القرآنية التى تحمل هذه الدلالات جميعها .

كما آثر أبو نواس أن يتنكب طريق الحكماء حين عرض خلاصة رؤيته للناس والدنيا بشكل قربه من عالم الزهد أيضا فى قوله .

وما الناس إلا هالك وابن هالك
وذو نسب فى الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
له عن عدو فى ثياب صديق (١٧٣)

وقد سحب صيغ التوحيد والتنزيه نتاج طبيعى لها يتعلق بشكر أنعم الله ، والتوجه بالسؤال إليه وحده ، دون لجوء إلى أى من البشر ، فكان الإيمان قرينا للشكر عند أبى العتاهية أيضا فى مثل قوله :

ألا إن ربى قوى مجيد
لطيف جليل غنى حميد
تريد من الله إحسانه
فيعطيك أكثر مما تريد
ومن شكر الله لم ينسه
ولم ينقطع عنه منه المزيد.
وما يكفر العرف إلا شقى
وما يشكر الله إلا سعيد (١٧٤)

---

(١٧٣) ديوان أبى نواس ٦٢١ .
(١٧٤) شعر أبى العتاهية ١٠٦ — ١٠٧ .

ولعله بدا بذلك وثيق الصلة بالسلوك الإسلامى القويم بصلته بالآيات القرآنية التى التقط منها معانيه (وما كان عطاء ربك محظورا) (ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غنى حميد)[١٧٥] (لئن شكرتم لأزيدنكم) .

(وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور)[١٧٦] .

وهو موقف وجد مجالا طيبا على ألسنة زهاد العصر ممن رددوا نفس الصور تقريبا على نحو مما ذهب محمود الوراق فى قوله :

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة
على له فى مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله
وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عم سرورها
وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
ونما منهما إلا له فيه نعمة
تضيق بها الأوهام والبر والبحر[١٧٧]

فهو يستمد أصول المسلك من عمق المعانى القرآنية :

(وإذا مسه الشر كان يئوسا)[١٧٨] .

(ضل من تدعون إلا اياه) .

(فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون)[١٧٩] .

(وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) .

---

(١٧٥) سورة لقمان ١٢ . (١٧٦) سورة لقمان ٣٢ .
(١٧٧) كتاب الصناعتين لأبى هلال ٢٣٢ .
(١٧٨) سورة الاسراء ٨٣ .
(١٧٩) سورة البقرة ١٥٢ .

ومن هنا يتخذ الوراق سبيله إلى نشر الزهد في محاولة جادة لإيقاظ كل غافل من غفلته ، وإثارة الروح التأملية للمواقف فى نفسه ، مما يدعمه بما يتناسب معه من القصص القرآنى كما يقول :

ياناظراً يرنو بعينى راقد
ومشاهدا للأمر غير مشاهد
منيت نفسك ضلة وأبحتها
طرق الرجاء وهى غير قواصد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترجى
درك الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدما
منها إلى الدنيا بذنب واحد (١٨٠)

إذ ينطلق من منطق التعقل وتأمل الأمور والمواقف ، آخذا من قصة آدم عليه السلام درجة عالية من العظة والاعتبار ، بمحض خروجه من الجنة لاقترابه من الشجرة التى حرمها عليه الخالق ، حين استجاب لوسوسة إبليس ، وكذا راح الشاعر ينذر أبناء آدم من غفلتهم ، وارتكاب الذنوب والمعاصي ، ثم انتظار العفو والغفران ، وكأنه — بذلك — إنما يسجل رفضا عنيفا يبطل كل ما انتهى إليه القائلون بالإرجاء من القول بالعفو الإلهى ، مما أفسح المجال أمام الشعراء لطرح ما شاءوا من صور الفساد الأخلاقى تحت أمل هذا العفو الإلهى العام الذى أطلقوا حدوده إلى درجة استباحوا فيها ارتكاب كل الآثام فيما دون إعلان الشرك .

ويتوج الشعراء موقفهم الدينى بالتوجه إلى الله سبحانه بسؤالهم إياه سواء منهم من كان زاهدا أو من عرف بمجونه ولهوه ، مما نجد له نظيراً فى قول محمود الوراق أيضا :

---

(١٨٠) الكامل ٤/١٠٦ .

فارغب إلى ملك الملوك ولا تكن
يأذا الضراعة طالبـاً من طالب (١٨١)

أو قول مسلم بن الوليد من أصحاب التيار الآخر (الماجن) :

أقول لمأفون البديهة طائـر
مع الحرص لم يغنم ولم يتحول
سل الناس إنى سائل الله وحده
وصائن عرضى عن فلان وعن فل (١٨٢)

وبذلك كان لقاء الشعراء حول مائدة واحدة كان المدد فيها من المعجم الإسلامى بصوره المختلفة ، صحيح أن درجات الأخذ قد تتفاوت بحكم تفاوت ملكات الشعراء ، ولكن اللقاء قد وقع بحكم قدرة هذا المعجم على تعمق نفوسهم جميعا فى عصر المتناقضات بين زندقة وزهد .

ومع تعدد الآراء والاتجاهات المذهبية ، ومع تنوع المواقف وتناقضها بين الفرق الدينية المختلفة ، راح فريق من الشعراء يرد الأمور الدينية إلى نصابها ردا بذلك على من تمرد عليها ، أو أسرف فى تأويل قضاياها ، خاصة ضد من قالوا بالاعتزال أو الجبرية ، ففى مقابل ما سبق عرضه من هجاء بشار لعبد الكريم على زندقته نجد ردودا على زندقة بشار نفسه ، وتفنيداً لما ذهب إليه من تفضيل النار على الطين ، وإبليس على آدم فى قوله المشهور :

إبليس أفضل من أبيكم آدم
فتنبهوا يامعشر الفجار
النار عنصره وآدم طينة
والطين لا يسمو سمو النار

---

(١٨١) الموازنة ١/٧٣ .
(١٨٢) ديوان مسلم ٢٦ .

أو قوله :

النـــار مشرقة والأرض مظلمـــة
والنـــار معبودة مذ كانت النـــار

مرددا بذلك ما حاول ترسيخه من فساد المذاهب الفارسـية ، وما ذهب إليه المجوس مما أسـهم فى زيادة حس الزندقة عند بشار بشكل صاق به العصر ، وتولى بعض شـعرائه تقنيذ ما ذهب إليه على نحو ما كان من صفوان الأنصارى فى قوله :

زعمت بأن النـــار أكرم عنصرا
وفى الأرض تحيا بالحجارة والزند
ويخلـق فى أرحامهـا وأرومهـا
أعاجيب لا تحصى بخط ولا عقـد
وفى القعر من لج البحار منافع
من اللؤلؤ المكنون والعنبر الورد
كذلك سر الأرض فى البحر كلـه
وفى الغيضة الغناء والجبل الصلد
فذلك تدبير ونفع وحكمـــة
وأوضح برهان على الواحد الفرد

فإذا هو يفحم بشارا ، وينتصر عليه ، من منطلق تأمله وصدق اعتقاده الدينى ، مما يشهد فيه بقصة الخليقة ، وعلاقتها بوحدانية الخالق وإرادته وتدبيره ، وما جعـل فى الأرض من منافع للناس يتأملونها ويتدبرونها وما طرحه فى البحـار أيضا من تلك المنـافع المختلفة ، ومنها اسـتخدام النار لخدمة البشر ، وكيف تحمل الأرض فى باطنها أسرارا لا يعلم خفاياها إلا خالقها سـبحانه ، وبذلك يفحم صـفوان خصـمه من منطق دينى لا يخفى فيه رصـيده من المؤثرات القرآنية :

(وتستخرجون حلية تلبسونها)[184] .

(وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب)[185] .

(وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره)[186] .

(وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله)[187] .

(والجبال أرساها)[188] .

(وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم)[189] .

وعلى هذا المنهج نفسه كان رد على بن الجهم على القاضى أحمد بن أبى دوءاد الذى تزعم الانتصار لمبادىء الاعتزال ، وقد عرضنا له آنفا ، وكذا لقول على هادما مبادئهم :

يا أحمد بن أبى دوءاد دعوة
بعثت إليك جنادلا وحديدا
ما هذه البدع التى سميتها
بالجهل منك العدل والتوحيدا
أفسدت أمر الدين حين وليته
ورميته بأبى الوليد وليدا [190]

وهى أمور تكشف عن طابع الجدل والحوار ، ورصيد التدين الذى مازال كامنا فى البيئة العباسية ، خاصة حين وجد من أهل السنة من يدافع عنها ، ويتولى دحض آراء أصحاب المذاهب التى ابتدعت فى الإسلام بدعا لا أصل لها ، إلا من تقديم العقل على الأدلة النقلية ، والأخذ بالتأويل للآيات القرآنية ، وطرح القضايا من منطلق

---

(١٨٤) سورة فاطر ١٢ .
(١٨٥) سورة الرعد ٤ .
(١٨٦) سورة إبراهيم ٣٢ .
(١٨٧) سورة النحل ١٤ .
(١٨٨) سورة النازعات ٣٢ .
(١٨٩) سورة لقمان ١٠ .
(١٩٠) ديوان على بن الجهم .

الأهواء التى لا تعرف أصـــولا دينية على نحو ما كان فى سلوك بشار ونظرائه من زنادقة البيئة .

ويمكن أن نلحق بهـذا الجانب الدينى ما دار من حوار بعض الشـــعراء حول الرسالة المحمدية ، ودور رسول الله ﷺ فى تبليغها وإرشاد المســلمين وإنذارهم ، صحيح أن الزمن قد بعد نسبيا من عصر البعث والراشدين ، وصحيح أيضا أن الحياة العباســية قد شهدت جيلا جديدا يختلف عن ســلفه الصالح من الصحابة والتابعين فى أمور كثيرة ، ولكن الذى لا يخفى ــ بداية ــ أن معالم التواصل قد استمرت بين هذه الأجيال لتربط بينها ، ومع أن رسول الله ﷺ لم يكن قائما بين المســلمين فى هــذا العصر إلا أن فريقا من الشـــعراء ظل مشــدودا بوجدانه الدينى إلى المــاضى يستلهم منه ويستوحى ، ويعرض الصور حول رســالته عليه السلام ابتداء من الرغبة الجامحة فى أخذ العظة والعبرة من موت نبى الأمة وبشير الإســلام على نحو قول أبى العتاهية ناصحا ومرشدا :

اصــبر لكــل مصــيبة وتجلــد
واعلم بأن المرء ليس مخلـــد

وإذا ذكرت محمــداً ومصـــابه
فاذكر مصابك بالنبى محمـــد (١٩١)

إلى ما طرحه الشـــعراء على نفس الصورة من الإيجاز حول دور رســالته عليه السلام فى إنقاذ الناس من الضلال ، على نحو قول عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير :

وقد أحكــم الله آياتـــــه
وكان الرســول عليها دليـــلا

---

(١٩١) شعر أبى العتاهية ١١١ .

وأوضـــح للمســـلمين الســـبيل
فلا تتبعن سواها ســـبيلا (١٩٢)

وعلى نحو ما صوره أبو العتاهية من اصطفاء الله سبحانه رسوله عليه السلام فى قوله :

وأفضل هدى هدى سمت محمـــد
نبى تنقـــاه الإله لدينـــه
عليه السلام كان فى النصح رحمة
وفى بره بالعالمين ولينـــــه
إمام هدى تنجاب عن وجهه الدجى
كأن الثريا علقت بجبينـــه (١٩٣)

فهو يستقى مادته من الســـيرة العطرة لرسول الله ﷺ ومن وحى الآيات القرآنية التى حددت بعضا من صفاته فأثنى عليه بها مولاه (وإنك لعلى خلق عظيم) •

(بالمؤمنين رؤوف رحيم) •

(ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) •

(وما أرسلناك إلا شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا) •

وإذا بأبى العتاهية لا يتوانى عن البكاء كلما ألحت على ذاكرته الذكرى العطرة خاصـــة حين يقف أمام قبره عليه السلام بالمدينـــة المنورة ، كاشـــفا عما يشيع فى نفسه من معانى البر والتقوى قائلا :

لبيك رسول الله من كان باكيـــا
ولا تنس قبرا بالمدينـــة ثاويا

---

(١٩٢) تأويل مختلف الحديث (لابن قتيبة) ٦٢ •
(١٩٣) شعر أبى العتاهية ١٠٢ •

جزى الله عنا كل خير محمـــدا
فقـــد كان مهديا دليـــلا وهاديا

ولن تسرى الذكرى بمن هو أهـــله
إذا كنت للبر المطهر ناســـيا

أتنسى رســـول الله أفضل من مشى
وآثاره بالمســـجدين كما هيـــا ؟

وكان أبر الناس بالناس كلهـــم
وأكرمهـــم بيتاً وشـــعبا ووواديا

تكدر من بعـــد النبى محمـــد
عليه سلام الله ما كان صافيا (١٩٤)

فهو يسلك أيضا سلوكا دينيا فى صلاته وسلامه على رسول الله ﷺ (إن الله وملائكته يصلون على النبىء ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وســـلموا تسليما) .

ويعرض ما كان من هداية الله سبحانه له (ووجدك ضالا فهدى) وما كان من بره عليه السلام بالناس (بالمؤمنين رؤوف رحيم) وهو ما ينطلق الشـــاعر على أساسه موحدا ومسلما ملتمسا العظة والعبرة من موته عليه السلام :

وكان رســـول الله أفضل من مشى
على الأرض إلا أنه لم يخلـــد

مرددا معنى الآية الكريمة (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم)(١٩٥) .

---

(١٩٤) شعر أبى العتاهية .

(١٩٥) سورة آل عمران ١٤٤ .

(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)[١٩٦] .

ومن العظة يذهب إلى توكيد إيمانه قائلا :

شـــهدت على أن لا نبوة بعـــده
وأن ليس حى بعـده بمخلـــد

مرددا أيضـــا من آيات القرآن الكريم (إن الدين عند الله الإســـلام) (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإســـلام دينا)[١٩٧] .

وقياسا على هـذه المقدمات التى سـجل فيها الشـعراء ثناءهم على رسـول الله ﷺ ، وما كان من دوره فى هداية العالمين راح أبو العتاهية يعرض النتائج من منطلق النصح والإرشاد مما دعاه إلى مخاطبة الناس بما كان من شـأن رسالته عليه السلام وواجباتهم فى الاهتداء بهديه :

يابنى آدم صـونوا دينكـم
ينبغـى للـدين ألا يطـرح
واحمدوا الله الذى أكرمكـم
بنبى قام فيكم فنصـح
بنبى فتـح اللـه بـه
كل خـير نلتمـوه وشرح
مرسـل لو يوزن الناس بـه
فى التقى والبر شـالوا ورجح
فرسول الله أولى بالعلـى
ورسول الله أولى بالمـدح[١٩٨]

---

(١٩٦) سورة الأحزاب ٤٠ . (١٩٧) سورة المائدة ٣
(١٩٨) شعر أبى العتاهية ١٠٠ .

ومع عمومية المعانى الإسلامية التى طرحها الشعراء حول الرسول عليه السلام ورسالته الغراء ؛ توقف بعضهم طويلا عند سيرته ﷺ متأملا ومفصلا ، وعارضا من معجزاته عليه السلام ما يجدد به الذكرى ، ويخلد السيرة العطرة على نحو ما قاله قطرب :

إليك ــ رسول الله ــ منا تحية
وصلى عليك العابد المتهجد
فأنت رسول الله هاد ومهتد
نبى هدى للأنبياء مؤيد
فلا يقبل التوحيد إلا بذكره
ليقرنه عند النداء الموحد
وما جاء يدعونا بغير دلالة
ولكن بآيات تدل وتشهد
وسار إلى البيت المقدس ليلة
مسيرة شهر وارداً ليس يطرد
يخبر بالعير التى فى طريقه
ليوقن أهل الشرك ذاك فيسعدوا
فسوءدده بالله إذ كان وحيه
إليه وهل فوق النبوة سوءدد ؟
فأوحى إليه الله من علمه به
وقد كانت الأصنام إذ ذاك تعبد
فأظهر بالإسلام دعوة صادق .
فضل له قوم وقوم به هدوا
حليم رحيم لين متواضع
سخى حيى عابد متزهد
وكان رسول الله فوق صفاتنا
يقصر فيها من يقول فيجهد (١٩٩)

---

(١٩٩) احياء علوم الدين ٢/٣٨٤ .

فهو يستهل قصيدته باهداء تحيته إلى رسول الله ﷺ مبينا دوره فى هداية البشر (وما أرسلناك إلا هاديا ومبشرا ونذيرا) مستشهدا على ما ذهب إليه بمدائح حسان بن ثابت فى رسول الله عليـــه السلام :

وقد قال حسان — وفى الشعر شاهد —

تجـــدده الأيام يروى وينشـــــد
أغر عليـــه للنبـــوة خاتـــــم
من الله مشـــهور يلوح ويشـــهد
وأعطـــاه من لفظ اســـمه ليجله
فذو العرش محمود وهذا محمـــد

ليتوقف عند اقتران اســـمه بالتوحيد فى الأذان الذى هو شعار المسلمين ، ثم يأخذ فى سرد معالم من معجزات رسول الله عليه السلام ومسيرته إلى المســـجد الأقصى فى حديث الإسراء والمعراج (ســـبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المســـجد الحرام إلى المســـجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا) (٢٠٠) .

إلى ما كان من صدى دعوته وتوزع من الناس إزاءها بين مسلمين ومشركين ، ليخلص من كل تصويره إلى التسليم بعجزه وكل الشعراء عن الإلمـــام بصفاته عليه السلام ، إلا من منطق ذلك الإيجاز الذى أورده فى أسلوب الترصيع فى البيت قبل الأخير ليجعل منه عليـــه السلام القدوة المثلى الذى تشرئب إليها أعناق المســـلمين عجزاً عن التساوى بسلوك صاحبها عليه الســـلام .

وبهذا ظلت المدائح النبوية تشغل شـــعراء العصر ، فالتقطوا من الذكرى الطيبة ما أرادوا به بث روح الهداية والرشاد فى زحام حضارة المجتمع العباسى ومجونه ، فوضعوا أمام خلفائه المثل العليا ، كما وجدوا المتعة فى رصد معالم القدوة الحســـنة فى عرض صفاته

---

(٢٠٠) سورة الإسراء ٢٠٠ .

عليه الإسلام لإحياء سيرة سلف صالح استوقفته طويلا تلك الصفات . فلم تعرف انقطاعا ولا توقفا فى أى من عصور الأدب .

وبذا لم تعرف المؤثرات الإسلامية توقفاً مع العصر العباسى أو غيره بقدر ما وجدت لها امتداداً طيبا على ألسنة شعراء العربية طوال عصور التاريخ الأدبى ، فمع دواوين شعرائها تبرز صور متعددة ومكثفة من تلك المؤثرات — على تنوعها — وكأنها تشهد على استمرار هذا التيار كجدول ثقافى فرض نفسه على كل الشعراء حتى من بدا منهم متهما فى تدينه ، أو من أشارت إليه أصابع الاتهام بضعف فى عقيدته أو شك فى شىء منها ، ولذا كان التوقف عند هؤلاء الأقطاب الكبار فى العصر كفيلا بكشف هذه الحقائق واماطة اللثام عن أبعادها الحقيقية ، وهو ما يؤكد ما انتهى إليه الأمر فى وقفتنا مع شعراء عصر بنى أمية .

ويبدو من الضرورى — بعد هذا التناول النصى — التوقف تفصيلا لتأمل ملامح هذه المؤثرات الإسلامية على النحو الذى عرضه شعراء العصر العباسى بشطريه الأول والثانى ، إذ يظل من الظواهر التى يمكن رصدها بين طبيعة التأثير الإسلامى ونتائجه :

أولا : أن الأخذ من هذا المعجم قد أسهم فى إيجاد صيغة التشابه بين كثير من شعر شعراء العصر ، فإذا بالشاعر يكرر الآخرين وربما كرر نفسه بين قصيدة وأخرى ، ذلك أن هناك معطيات بعينها بدأ الشاعر ترديدها أخذا من القرآن الكريم أو الحديث النبوى الشريف ، أو من السلوك الإسلامى العام ، مع الاعتراف بضرورة وجود فروق فردية تحكم بيئات الشعراء حسب درجة القرب أو البعد عن السلوك الدينى ، خاصة فى ذلك العصر بما شهده من الاضطراب والقلق السياسى .

ثانيا : أن المؤثرات الدينية قد طرحت فى شكل مباشر لدى فريق

من الشعراء خاصة منهم أبناء بيئة الزهد . وعندهم وردت المعانى أكثر كثافه ، وأشد عمقا حتى رسم بعضهم منها لوحات فنية متكاملة ، على النحو الذى أبرزه أبو العتاهية الذى علق فنه التصويرى والتقريرى بمشاهد القيامة حيث أطال فى عرضها ، وأكثر من تفاصيلها على مستوى القصيدة والمقطوعة . وفى مقابل هذه التأثيرات المباشرة وجدت مؤثرات أخرى لم تظهر بنفس الأسلوب ، بل ربما وجدت سبيلها من خلال الدوافع التى حدت بشعراء العصر فى كل البيئات إلى النظم فى موضوعات كشفوا فيها حقيقة مواقفهم ، وطوابع انفعالاتهم على نحو ما كان من أبى تمام فى فتح عمورية أو صلب الافشين ، وعلى نحو ما عرضه الشعراء من صور ولوحات حربية سجلت المعارك ، ووثقت تاريخ العصر ، وأكدت الجانب الدينى فى معاركه فكانت الانتصارات إسلامية ، وكذلك كانت دوافع الخلفاء إليها ، الأمر الذى أدى إلى حرص الشاعر على الإفادة من المعجم الإسلامى دعما لموقفه ، ورغبة منه فى تأكيد ما يذهب إليه على المستويين الانفعالى الذاتى ، والانفعالى الجماهيرى لدى المتلقين .

ثالثا : أن معظم شعراء العصر ممن أفادوا من المعجم الإسلامى قد خاضوا بشعرهم فى موضوعات حربية مع خصوم الدولة من الخارج فى مناطق الثغور بشكل أكثر كثافة مما كان عليه الحال فى عصر بنى أمية . ذلك أن شعراء العصر الأموى قد شغلهم من واقعهم السياسى عداوات الأحزاب ، والصراعات الداخلية بين الفرق السياسية والدينية مما أسهم فى اقحام الشعراء فى معارك جدلية وكلامية ، ولكنه فى هذا العصر — أى العباسى — راح يتسع لتصوير معارك الخلافة العباسية مع الروم ، وكذا تصوير موقف الخليفة ممن يمكن أن يمثل عليه خطرا من قواد جيوشه ، وكلها أمور أفسحت مجالات أكثر رحابة لطرح الكثير من معانى المعجم الإسلامى خضوعا من الشعراء لطابع العصر ، واستجابة لمعطيات واقعه ، وما حتمه من صراعات سياسية على مستوى العلاقات الخارجية مع الأمم

الجاورة ، فقد أدى منطق العداء الحربى إلى تركيز الصور حول مقارنات بين إسلام الدولة العباسية ، وبين وثنية الروم ونصرانيتهم وكفرهم فى كثير من لوحات كبار شعراء العصر خاصة فى روملياتهم •

وقد دفع هذا الموقف الحماسى الشاعر العباسى إلى تحويل كل الأبعاد الحربية للمعارك من هذا الجانب الدينى على مستوى الدوافع التى تحدو بخليفة المسلمين إلى الخروج غازيا ، أو منتقما للكرامة العربية والإسلامية ، وفى كل يبدو مدافعا عن الدين • وكذا على مستوى الحس الانفعالى الذى لا يتورع فيه الشاعر أن يكشف روح التشفى من جانبه ، والرضا بما أصاب جند معسكر الشرك ، الأمر الذى لا يبرر أيضا إلا من هذا المنظور الدينى ، وهو ما تكتمل صورته بشكل تام حين يأتى الشعراء إلى تصوير نتائج تلك الحروب وما كان من حظ الإسلام والمسلمين وتحطيم أركان الشرك وإذلال أهله ودعاته •

رابعا : أن المعانى التى وقع عليها حس شعراء العصر — وقد شخصت فى ذاكرتهم — ارتباطا بهذا المعجم الإسلامى لم تعرف تخصصا موضوعيا ، صحيح أنها وجدت سبيلها إلى الكثرة والكثافة فى بيئة الزهاد وأصحاب القصص الدينى ورجال الوعظ والارشاد وهذا طبيعى ، ولكنها لم تكتف بتلك المجالات فى سيادتها ، بل راحت تفرض نفسها على ألسنة الشعراء منذوى الاتجاهات المختلفة حتى من غير المتدينين منهم إذ شاعت لديهم الزندقة واللهو وجاءت تلك المعانى الإسلامية كعلامات للتوبة أو لحظات الندم المؤقتة التى اصطنعها الشعراء أحيانا كثيرة ، كما جاءت مكثفة فى مدائحهم للخلفاء فى معظم الأحيان ومن ثم لم يعرف المعجم الإسلامى تخصصا بعينه لدى شعراء العصر ، بقدر ما وجد انتشاره وسيادته عامة ، مما يكشف عن حقيقة هامة مؤداها أنه أصبح جزءا من كيانهم الفكرى بحكم نشأتهم جميعا — تقريبا فى ظلال الدين وبين أيدى المفسرين والرواة ، مما طبع عقلية الشاعر بطابع دينى يصعب إغفاله أو التنكر لدوره ، وقد يتخذ

منه سلوكا ، أو ربما ينفر منه ولكنه حتى مع هـذا النفور لم يستطيع إلا أن يدين له بكثير من الولاء ، ويقر بعجزه عن التخلص منه كتراث عميق وعريق ملأ عليه جوانب من كيانه لا يستطيع اسقاطها من حسابه .

خامسا : أن ثمة تأثيراً واسـعا قد ظل سائدا من جراء الانقسام المذهبى بين أصحاب الفرق المختلفة ، فما زالت المعتزلة تجرك بعض من كبار الشعراء بأصولها الخمسة ، وبما لجأت إليه من أدلة عقلية أخذت فيها بمبدأ التأويل ، وكذلك ما بقى من قول أصحاب الجبر برؤيتهم للسلوك الانسانى بناء على تأويلاتهم لآيات قرآنية منتقاة لتأكيد نفس الصنيع الذى أخذ به القدريون والمرجئة ممن شغلوا أنفسهم بإعمال الإرادة البشرية ، أو تعطيلها ، فشغلتهم قضية الجزاء وعلاقتها بطبيعة عمل الانسان . ويظل لافتا للنظر أن كثيرا من شعراء العصر قد راحوا يروجون لفلسفة الإرجاء عجزا منهم عن التخلص من أو شاب الحضارة المـادية الطاغية على البيئة ، فحاولوا نشر القول بالعفو ، ولذا راح شـعراء الزندقة ــ بالذات ــ يعبثون بالقيم والعبادات ويجاهرون بالمعصية ، ويعلقون جرائمهم على القول بالارجاء مما أشاع الكثير من صور الفوضى فى العلاقات الاجتماعية . الا أن هـذا كله لم يؤثر كثيرا فى صدى التراث الدينى التى ظلت له صلابته وقوته فلم يحجب مفجمه عن شعر أبناء هـذا الاتجاه ، إذ مازالت الأصداء الدينية عالقة بأذهان الشعراء ، بحكم ثقافاتهم المتعددة فى ظل الدين والثقـافة التراثية ، وما زال الشاعر منهم يلتقط من أعماق ذاكرته ما يؤكد موضوعه من معانى الآيات أو مواقف الفرق التى ينتمى إليها هـذا وذاك بين ثنايا الأبيات تقريرا وتصويرا ، وما زال أكثر الشعراء يكشف صوره من خلال تلك العناصر الإسـلامية خاصة حين يتقدم مادحا بين يدى خلفاء المسلمين وإن كان بعضهم قد تورط فى التردد حول المذهب الدينى تبعا لظروف الخلافة على المستوى الرسمى ، خاصة حين يستعد الشاعر ليأكل على كل الموائد حتى لو غير مذهبه

على نحو ما حدث من البحترى فى تورطه بين الاعتزال وأهل السنة حين هجاهم قائلا :

يرمون خالفهم بأقبح فعلهم
ويحرفون كلامه المخلوقا

وكأنه يرضى الخليفة الواثق بالقول هنا بخلق القرآن ، ومع عصر المتوكل وانتصار أهل السنة تراه يتحول إلى مذهب الخليفة ويظل شاعره الأول .

سادسا : ظل هذا المعجم الإسلامى قائما على تنوع الأخذ وتعدد صوره مع توحد المصادر واتساع دائرة الافادة منها مما يكشف عن حقيقة أخرى مؤداها أن التحول الاجتماعى الذى أصاب بنيان الحياة العباسية وبدا شديد الخطر عليها لم يستطيع القضاء على التيار الدينى الذى انتشر على ألسنة الشعراء فى كل الموضوعات تقريبا ، صحيح أن درجة الاقتناع بما يقولون قد تتفاوت ولكنهم — على أى حال — لم يستطيعوا أن يديروا ظهورهم لهذا المعجم على الرغم من ازدحام البيئة بالمذاهب الفارسية ومناظرات أهل الملل والنحل ، ممن اتخذوا من الجدل سبيلا الى طرح القيم التى قصدوا إلى نشرها سواء فى ذلك أصحاب الديانات السماوية ، أو أهل المذاهب الفارسية ، ممن قاموا بالدعاية لها أملا فى الارتقاء بها إلى درجة الديانات — وهى ليست كذلك بالطبع — ونشرها بين شباب العصر من قبيل الرغبة فى التثقفى من المسلمين والعرب ، فكان الحس الشعوبى من الدوافع الكبرى للاستمرار فى هذا الاتجاه المضاد للاسلام .

سابعا : أن الطابع الدينى ما زال مسيطرا على الشكل الرسمى للدولة ، وما زال خلفاء بنى العباس شديدى الحرص على اسلامهم ففى مقابل قيام الخليفة بالخطابة الدينية فى المسلمين راح ينشر شرطة الزنادقة التى تتعقبهم ، وتحاول إحباط محاولاتهم للعبث بالدين ،

وتزج بهم فى سجون خاصة لمن تثبت عليه منهم تهمة الزندقة بعد محاكمته من منطق تورطه فى الهجوم على قيم الدين ، أو محاولته نشر مذاهب فارسية قديمة على حساب القيم الاسلامية على طريقة مطيع بن إياس حين أعلن فى محاكمته أنه لا يؤمن إلا بما عاينه أو عاين مثله ، وكأنه يصرح بزندقته التى علمها ابنته حتى تصورتها دينا حين زج بها إلى المحاكمة فقالت هذا دين علمنيه أبى .

والحقيقة التى تحمد للخلافة العباسية أنها سارت — فى معظم الأحوال — فى خط مستقيم — إلى حد ما — فى هذا الاتجاه بعكس الخط المائل الذى ارتضته من جانب الموالى حين أصابوا من عروبة الدولة الكثير ، فجعلوا العربية مصدرا لسخريتهم وتهكمهم من العرب وتحقيرهم العصبية العربية ظلما وبهتانا ، وبذا راح بعضهم يطرح من صور الحضارة المادية فى الجنس الفارسى ما أساء إلى عروبة الدولة العباسية حتى دفع الموقف الجاحظ إلى وصفها بأنها دولة « عربية فارسية » ففى مقابل إنصات خليفة كالمهدى إلى شتائم بشار فى حق العرب والعروبة نجده لا يتوانى عن تعقب بشار ورصد سلوكه الغزلى الفاحش فراح ينهاه عن الاستمرار فيه ، وأخذه بالشدة كما أخذ — بنفس الشدة — من بدت زندقته من شعراء العصر ، وإن كانت الحقيقة التاريخية تظل عاجزة عن تصوير خلاص العصر من الزنادقة ، ذاك أن تعقب قلة منهم لم يكن كافيا للقضاء على صور الفساد التى نشروها بين كثير من شباب العصر .

ثامنا : أن تيار الذاكرة الفاعلة ما زال يجتذب بعض شعراء البيئة الحضارية ، حتى يكاد يعزلهم — مؤقتا — عن حس الحضارة المترفة ، فما زال بعض الشعراء شديد التمسك بالماضى والتنقيب فيه عن أخبار القدوة الحسنة والسلف الصالح من قبيل الاعتزاز بالسير التاريخية وما التصق بها من حس دينى قويم قوم السلوك وهذبه وعدله ، ووضع الأسوة الطيبة أمام الأجيال التالية ، وربما استهدف

شاعر العصر منه وضع القدوة أمام الحاكم فى حركة إحياء رائعة لسلوك دينى يشيع وسط تيارات الترف والحضارة ، وينحصر نجاحه فى معيشته بينها لا القضاء عليها ، وربما ذهب جانب من هـذه التيارات فى تسجيل الحنين وإسـقاط حالات من الوجد على الجانب الدينى فى شخص رسـول الله ﷺ ، وهو موقف استغله بعض الشعراء بخبث شديد على الصعيد السياسى ، على نحو ما اصطنعه بشار من عرضه للطابع المشاركة الفارسية فى الانقلاب العباسى جاعلا الغضبة الفارسية من أجل رسول الله ﷺ والدين الإسلامى :

حتى رددنا الملك فى أهل النبى العـربى
نغضب لله وللإسـلا م أسرى الغضـب

متجاهلا أن الحكم لم يخرج من إطار العروبة ، وموهما بأن غضبة الفرس كانت من أجل الإسـلام ، وكأن الإسـلام كان فى انتظارهم ليدافعوا عنه وهم أساس الزندقة المذهبية ولكن أكثر المواقف التى أدارها الشعراء حوارا وتصويرا جاء حول سيرة رسـول الله ﷺ ، وهى مواقف سارت فى ذلك الاتجاه من الوجد والحنين والاقتداء فى مواطن الذكريات ، خاصة ما شـاع لدى بيئة النساك ، والوعاظ ، والقصـاص والزهاد ممن اتخذوا من سـيرته عليه السـلام مادة دينية طيبة أشاعوا فيها من الحس الاسلامى صورا مختلفة أرضت وجدانهم ووجدان شـباب العصر معهم .

تاسعا : أن التاريخ الإسـلامى ظل معينا طيبا لا ينضب أمام الشعراء ينهلون من أحداث ماضيه منذ عصر المبعث خاصة أن التواصل التاريخى مازال قائما يكشـفه ذلك التشابه بين الأحداث الجسام التى وقعت بين المسلمين والروم ، مما دفعت إلى وجود امتداد لحـركة الجهاد الإسلامى التى وضع أصولها الرعيل الأول قبل الانقسـام الداخلى الذى شهدته الدولة الأموية ، وبدأ تزاحم الشـعراء على هـذه المـادة التاريخية بمثابة دعم دينى من طراز متميز للصور الحربية

التى عرضوها بما يكفى لكشف السياسة الدينية للخليفة العباسى خاصة مع الروم وحماية مناطق الثغور .

عاشرا : أن محتوى القصيدة العباسية كان أكثر قدرة على احتواء الكثير من معالم المعجم الإسلامى ، ولذا فان التحول الذى أصابه بدا أشد وضوحا عما أصاب الشكل الفنى للقصيدة ، وعلى أية حال فإن شعراء العصر قد أخذوا من التراث القديم شكله فأثبتوا له الولاء ، وكذلك أضافوا من المعجم الإسلامى ما سجل انتماءهم إلى تراثهم الدينى بنفس الدرجة من العمق والعراقة ، بدليل ما رأيناه من حرص بعضهم على استقصاء المعانى الدينية التى استوعبتها ذاكرته عبر المصادر المختلفة ، على نحو ما بدا من تركيز على معانى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والعبادات والشعائر مما يوحى بمدى الثقافة التى التقطها الشاعر وتوقف عنها طويلا من تلك المصادر الدينية .

ولم يكد الشاعر العباسى يترك فرصة لاثبات ولائه لمذهب ما إلا وطرح جوانب من فكره وأساليب معالجة هذا الفكر على نحو ما رأيناه فى سنية على بن الجهم وما يتراءى عكسها فى جدل ابن الرومى وقد كشف تأثره بالاعتزال سواء فيما طرحه من مادة فى شعره ، أو ما تأثر به فى منهج الصياغة ولغة الاستقصاء والإطالة التى لم نر لها نظيرا فى القصيدة العربية قبله ، حتى تحولت إلى ظاهرة تعم ديوانه ، ويتسم بها شعره .

* * *

الفصل الرابع

فى شعر الحروب الصليبية

١ ــ معارضات روميات العباسيين ٠

٢ ــ دائرة الفضيلة الإسلامية ٠

٣ ــ إحياء تاريخ للجهاد الإسلامى ٠

٤ ــ الزهد والتصوف ٠

وتواصل حلقات التاريخ الحربى للمسلمين مسيرتها ، وتزداد حاجتهم إلى الجهاد الدينى ، كما تشتد إليه دوافعهم خاصة حين تهدد مقدساتهم بححافل الغزو الصليبى ، وإذا باليوم يعيد ما شهده الأمس من تلك السير الحربية على مستوى الدوافع ، وضرورة خروج المسلم مدافعا عن دينه وأرضه وعرضه ، وفى موازاة ما التمسناه سريعا من أحداث التاريخ بين العرب والروم فى العصر العباسى ، وما عكسته الصراعات وصور النزاع التى لم تكد تنتهى أو تهدأ الا من خلال معارك وحروب دامية طال أمدها ، بسبب استمرار المحاولات العدوانية من قبل الروم أملا فى انتهاك حرمات المسلمين ، كان ما جاءت الحروب الصليبية مما زاد من حجم هذه الضرورات وتضخم فى تاريخها شأن تلك الدوافع ، فانبرى شعراء الاسلام يستلهمون المعجم الدينى فى الدفاع عن قداسة دينهم وأراضيهم ، وكأنهم حين أداروا وجوههم للتاريخ وجدوا فيه رصيدا طيبا يتعرض لنفس الاتجاهات التى ذهبوا إليها ، ومن ثم كان للشاعر مثل أبى تمام أثره ومكانته فيما صاغه شعراء العصر من شعر حول قداسة الحرب من خلال الطابع الدينى الذى شاع فيها ، فالتحمت الصور التراثية بين تأثير أدبى واسلامى لم يجد شعراء العصر حرجا فى كشف تأثرهم به على نحو ما نظمه ابن القيسرانى فى بائيته التى لم يخف فيها إعجابه الصريح بمنهج أبى تمام فى بائيته المشهورة حول فتح عمورية ، ويقول فى مطلعها على نفس المستوى الاستهلالى الذى عرضه أبو تمام ، وإن حوره ليتسق مع طبيعة الموقف :

هذى العزائم لا ما تدعى القضب

وذى المكارم لا ما قالت الكتب[1]

---

(١) كتاب الروضتين ١/٥٩

وهـذه الهمم اللاتى متى خطبت
تعثرت حولها الأشـعار والخطب

وفيها يتوقف طويلا عن تصوير المعركة وكشف أبعادها :

أغرت سـيوفك بالإفرنج راجفـة
فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشـهم منهـا بقاصـمة
أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
غضـبت للدين حتى لـم يفتك رضى
وكان دين الهدى مرضاته الغضب
طهرت أرض الأعادى من دمائهم
طهـارة كل سـيف عندها جنب
حتى استطار شرار الزند فارحـة
فالحرب تضرم والآجال تحتطب
والخيل من تحت قتلاهـا تقر لهـا
قوائم خانهن الركض والخبب
والنقع فوق صقال البيض منعقد
كما اسـتقل دخان تحتـه لهب
والنبـل كالوبل هطـال وليس له
سوى القسى وأيد فوقها سـحب
خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم
فاستسلموا وهى لا نبع ولا غرب
كذاك من لم يوق الله مهجتـه
لاقى العدى والقنا فى كفه قصب
فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب
يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
وائذن لموجك فى تطهير ساحله
فإنمـا أنت بحـر لجـه النجب

إذ يبدو الشاعر وقد زاوج فى مطلعه بين فلسفة أبى تمام وفلسفة المتنبى حين جمع بين منطق القوة وسداد الرأى وقوة الهمم والعزائم ، فرفض ما قالت الكتب على نحو ما رفضه أبو تمام من كتب التنجيم ، مع مزيد من تعميم الصورة عند ابن القيسرانى الذى أخذ أيضا بما انتهى إليه أبو الطيب فى التركيز على سداد الرأى والحزم :

الرأى قبل شجاعة الشجعان
هو أول وهى المحل الثانى
فاذا هما اجتمعا لنفس مرة
بلغت من العلياء كل مكان

ولكن الشاعر — مع ذلك — يتلمس خطى أبى تمام فيأخذ بنفس المنحنى التصويرى لجوءا إلى التشخيص واعتمادا على الإكثار منه ، وتصورا للأبعاد الدينية التى يسقط فيها الصليب سقوط عمود الشرك عند أبى تمام :

حتى تركت عمود الشرك منقعرا
ولم تعرج على الأوتاد والطنب

جاعلا غضبة القائد من منطلق غيرته على دينه على النحو الذى سجله أبو تمام للمعتصم :

تدبير معتصم بالله منتقم
فى الله مرتقب فى الله مرتغب

وفى تصويره للطهر والجنابة تعلقا بالسيف ما زال متشبثا بصورة أبى تمام التى خلعها — تشخيصا — على يوم عمورية :

تصرح الدهر تصريح الغمام لها
عن يوم هيجاء منها طاهر جنب

ومشهد الدخان واللهب يكاد يردد فيه ما صوره أبو تمام من حريق المدينة وكيف انقلبت فيها نواميس الكون :

حتى كأن جلابيب الدجى رغبت
عن لونهـا أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفـــة
وظلمة من دخان فى ضحى شحب

ومن نفس المنظور يأتى مشهد النبع والغرب على نفس النهج البدوى الذى كنى به أبو تمام عن تفاهة أقوال المنجمين ورفض الإعتداد بها مطلقا لأنها « ليست بنبع إذا عدت ولا غرب » .

كما يلتقط مشهد المدح الحربى التى ضخم فيه أبو تمام مكانة المعتصم بالله حتى جعله جيشا بنفسه وحدها ، فكذلك كان حال القائد المسلم حيث بدا بحرا لجبا يخيف خصومه ، بل لعله التقط المشهد من أبى تمام أيضـا حين رفض أموال تيوفيل ، أو ثقة الشـاعر من ذلك الرفض إذا ما عرضت عليه :

غدا يصرف بالأموال جريتهـــا
فعزه البحـر ذو التيـار والحدب

فمما لا شك فيه أن المعجم الإسـلامى قد بدا عاملا مشتركا قرب بين الشـاعرين على مستوى المنطق الانفعـالى ، وطبيعة الدوافع والتغنى الصادق بالفتح ، والتركيز على حركة الجهاد الدينى ضد الشرك وأهله ، الأمر الذى جعل الموقف الفنى يبدو مكررا بينهما ، وربما كانت المشابهة بين الحروب دافعا هاما إلى هذا التكرار الذى نجد له أكثر من نظير على نحـو ما ظهر عند الشـهاب محمود الحلبى من وحى عمورية أبى تمام أيضا ، حيث صور اسـتيلاء الأشرف خليل على مدينة عكـا :

الحمـد لله ذلت دولة الصـلب
وعز بالترك دين المصطفى العربى

ما بعد عكا وقد هدت قواعدهـا
فى البحر للشرك عند الله من أرب
لم يبق من بعدها للكفر إذ خربت
فى البر والبحر ما ينجى سوى الهرب
يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت
به الفتوح وما قد خط فى الكتب
أغضبت عباد عيسى إذ أبدتهـم
لله أى رضى فى ذلك الغضب
وأشرف المصطفى الهادى البشير على
ما أسلف الأشرف السلطان من قرب
فانهض إلى الأرض فالدنيا بأجمعها
مدت اليك نواحيها بلا تعب (٣)

فهو يصوغ معجمه الدينى من تلك المـادة المزدوجة بين حمده لله ودين المصطفى العربى ورضى الله تعالى وإشراف الهادى البشير وإشراقه الدنيا المسـلمة ، فى مقابل المشهد المناقض لكل هذا لدى أهل الشرك والكفر وغضب عباد عيسى وما ألصـقه بهم من المفرار وما استوقفه من فتح عكا وقد هدت قواعدها .

وحين تستوقفه حصانة المدينة وصلابتها يكشف مكانتها الأولى قبل الفتح على نهج مكانة عمورية عند أبى تمـام فى لوحاته التى رسمها لها قبل الحريق ، ثم فى أثناء الحريق وبعده ، فعلى هذه الأبعاد الزمنية المتنوعة تبدو عكا فى ماضى حصانتها قلعـة قوية أسوارها وساحتها إلى أن تزاحمت عليها المجانيق والنبل من كل جانب :

سـوران بر وبحر حول سـاحتها
دارا وأدناهما أنأى من القطب

(٣) كنز الدرر ٨/٣١٥ .

خرقاء أمنع سوريها وأحصـــنه
قلب الكماة وأقواه على الندب
مثل الغمامة تهدى من صواعقهـا
بالنبل أضعاف ما تهدى من السحب
كأنمـا كل برج حـوله فلـــك
من المجانيق ترمى الأرض بالشهب

ثم يركز عدسته على طبيعة الحصار وما بيثه فى وجدان المسلمين من حس القوة والمنعـة :

وجئتهـا بجيوش كالسـيول علـى
أمثالهـا بين آجام من القصـب
وحطتهـا بالمجانيق التـى وقفت
أمام أسوارها فى جحفل لجب
ورضتها بنقوب ذللت سـهما
منهـا وأبدت محيـاها بلا نقب

وكأن الشـاعر يتوقف متأملا معجمه ، منتقيا منه ما يتسق مع إيجابيات الفتح باعتباره فتحا دينيا أيضا أسعد المسـلمين جميعا ، فراح يرصد الدين عزته ، ذاكرا رسوله الله ﷺ فهو « المصطفى والهادى البشير » ومضخما من حجم الفتح ومكانته على نهج « فتح الفتوح » عنـد أبى تمام ، وعارضا من ملامح المشركين وديارهم ما أصابهم من الذل والانهزام والخراب على أيدى جند المسلمين . ولا يخفى ما اقتفاه الشـاعر من أثر أبى تمام فى هـذه اللوحات المتنوعة وكأنه وضع ملامح الصورة بين عينيه ليتتبع الخطى ، فيرسم على منوالها نسيجا للفتح ، بدا دينيا وحربيا معا ، من منطلق ذلك العرض الدقيق لحصانة المدينة ، ثم تصوير ما أصابها على أيدى المسلمين من دمار وإبادة .

ويظل واضحا حرص شعراء المسلمين على تصوير أحداث الحروب الصليبية صدوراً عن روح دينية خالصة ، أسهمت فى جذب فريق الشعراء إلى سيرة السلف الصالح من قبيل الفخر بعزة الإسلام ، حين ترتفع راياته ، وتتحطم فى مقابلها رايات الشرك ، وتتهاوى أعمدته ، وتتدهور أسسه ، وكأن الشاعر العربى يبدو آنذاك شديد الاعتزاز بالماضى يلتمس من خلاله الأشباه والحماس بل ربما أدار معظم فخره من حوله ، باعتباره من أغلى ممتلكاته على الصعيدين الدينى والأدبى معا :

(١) فعلى الصعيد الدينى يبدو التبارى قائما بين الشعراء فى إبراز لوحات الجهاد الإسلامى ، مفعمة بالمعانى والصور والألفاظ التى استوحاها الشاعر المسلم من حسه الدينى ، بحكم استيعابه له من ناحية ، وبحكم طبيعة الدوافع الدينية للمسلمين عامة للذود عن بلادهم ودينهم من ناحية أخرى •

(٢) وعلى الصعيد الأدبى راح الشعراء يلتقطون من مشاهد الأدب العربى وصوره ولوحاته ، ما يتسق مع طبيعة المواقف الحربية الجديدة ، فوقعت أعين الشعراء على انتصارات رائعة للعرب المسلمين ، حققوا فيها جل طموحات أبناء المجتمع الإسلامى فى حروبه العاتية مع مدرسة الشرك ، وكأنما وجد الشعراء فى بائية أبى تمام فى فتح عمورية على يد الخليفة المعتصم بالله نموذجا رائعا يستحق التوقف والتأمل ، بل يستحق التقليد والمحاكاة ، مما أسهم فى انتشاره بينهم كقاسم مشترك علوا منه ونهلوا بلا وجل أو حرج ، وكأنما أدركوا ذلك التواصل التاريخى الدقيق بين الانتصارات الإسلامية ، وتوقفوا طويلا عند دوافع ابطال المسلمين إلى خوض حروبها ،إذ تبدت هذه الانتصارات رموزا أبدية لانتصار الدين الإسلامى ، مهما تعددت العصور ، واختلفت القيادات ، أو تعددت أسماء القادة أو الخلفاء أو الفاتحين •

وعلى هدى من هـذه الأسس أدرك شـعراء الجهاد حقيقـة دورهم من خلال شديد اعتزاز بتراثهم العريق ، فكانت للمعارضات الشـعرية وجاهتها أخذا من لوحات المـاضى بما يزيد من جمـال الحاضر ورونق صوره ، ربطا بين كل الملامح الإيجابية لمـا هم ـ أى الشعراء ـ بصدده من تلك الأحداث الكبار • على أن بائية أبى تمام لم تكن المصدر الوحيد لالهام شـعراء جيل الحروب الصليبية أو غيره ، بل تعددت لديهم المصـادر ولمعت عندهم من صور الحروب ما سجلها وزاد من توثيقها تاريخيا ، فأتت جدة المعالجة بارزة فى التعامل الفنى مع موضوعات تقليدية على نحو ما هو معروف فى فن المدح • على أن شاعر العصر لم يقف جامدا عند حدود الدوائر المدحية من المنظور التقليدى ، بقدر ما حرص على عرض كثير من القيم الإسـلامية التى تعطى الموقف عمقا دينيا وأبعادا جديدة متميزة ، وإن بدا الشـاعر فيها حريصا على إثبات ولائه لأقدم الصور التراثية من حيث الشكل الفنى للقصيدة ، ولهذا النموذج الفنى صور كثيرة تغص بهـا دواوين شـعراء العصر من مشهوريهم ومغموريهم على السواء ، ولذا يبدو الاختيار هنا لمجرد إثبات هـذه الحقيقة التى طمح فيها شاعر العصر إلى اثبات ولائه للتراث العربى بوجه عام ، وأفاد فيها من التراث الإسـلامى بوجه خاص ، يقول ابن عينية مادحا الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل مستهلا مدحته بقوله :

جعل العتاب إلى الصـدود توصلا
ريم رمى فأصاب منى المقتـلا

ليستعرض من المعجم الإسلامى ما عرضه بين ثنايا الأبيات قائلا :

يا أيهـا الملك الذى إنعـامه
لم يبق فى الدنيـا فقيرا مرسلا
لقـد اتقيت الله حق تقـاته
ونهجت للنـاس الطريق الأمثـلا

وعدلت حتى لم تجد متظلما
وأخفت حتى صاحب الذئب الطلا
ورفعت للدين الحنيف منارة
فعلا وكنت بنصره متكفلا
حاشاك لدين أنت فيه مظفر
أن يستباح حماه أو أن يخذلا
فالله يخلف في بقائك عادة
ذنبا ويعطيك البقاء الأطولا (٤)

فالشاعر يرصد في شخص الملك من القيم والفضائل الإسلامية ما يطرحه من منطق العدل والورع والتقوى والذود عن دينه ، ورفع منارته وضمان نصره ثم يدعو له دعاء إسلاميا خالصا يكاد يقتبس من الآيات القرآنية التي تنادي عرضه للصيرورة من قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون »(٥) أو قوله تعالى « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »(٦) .

« وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »(٧) .

وأصبح من الأهمية بمكان لدى شاعر العصر أن ينطلق من هذا المنظور الديني الذي يتسق مع طابع الجهاد ، ففي موضوع المدح أيضا يعرض العماد الأصفهاني قوله في الملك المظفر :

أخفت أهل الشرك حتى الذعر منهم
يرى قبل الولادة في الجنين
وكنت لعسكر الإسلام كهفا
أوى منه إلى حصن حصين

---

(٤) كتاب ابن عنبة ٩/١٣ .
(٥) سورة آل عمران ١٠٢ .
(٦) سورة محمد ٧ .
(٧) سورة النساء ٥٨ .

وأنت ثبت دون الدين تحمـــى
حمـــاه أوان ولى كل دين (٨)

فإذا بالصورة تنضح بالمعانى الدينية التى تثبت فى أعماق الممدوح، فإذا هو يثبت أركان دينه ، وكأنه الكهف الذى يأوى إليه عســكر الإســلام وجنده ، وقد بث الخوف والفزع فى نفوس المشركين ، حتى أصاب منهم الأجنة فى بطون أمهاتها على ذلك النحو الذى صوره أبو نواس فى مدحه للخليفة العباسى الأمين قائلا :

وأخفت أهل الشرك حتى إنــه
لتخافك النطف التى لم تخلــق

أو كأنه يلتقط الصورة مما عرضه أبو تمام من صور المفــارقة بين واقع الشرك ، وقد هزم وبين انتصار الإســلام فى قوله عن المعتصــم بالله :

حتى تركت عمود الشرك منقعــرا
ولم تعرج على الأوتاد والطنب

أو قوله والخطاب ليوم عمورية ونتائج المعركة :

أبقيت جد بنى الإسلام فى صعد
والمشركين ودار الشرك فى صبب

وهو نفس الإطار الذى التزمه العماد الأصــفهانى فى قوله مصورا انتصارات صلاح الدين :

أحيا الهدى وأمات الشرك صارمه
لقد تجلى الهدى والشرك منجاب

---

(٨) كتاب الروضتين لشهاب الدين المقدسى المعروف بأبى شامة نشر دار الجيل ــ بيروت د٠ت ١/٢٧٣ ٠

بفتحه القدس الإسلام قد فتحت
فصفق في قمع طاغية الإشراك أبواب (٩)

بل ربما أخذت الصورة عمقا تاريخيا يرتد بالشاعر إلى انتصارات المسلمين الأول ، منذ عصر النبوة يوم أن حطموا عبادة الأوثان في مكة :

نفي من ايقدس صليانا كما نفيت
من بيت مكة ازلام وانصاب

وعلى نحو ما شهدته قصيدة المدح من حرص الشعراء على المعجم الإسلامي برز موقفهم في فن الرثاء ، فكان الحس الإسلامي مسيطرا على مرثية الأصفهاني لنور الدين على نحو قوله :

اندين في ظلم لعينه نوره
والدهر في غم لفقد أميره
فليندب الإسلام حامي أهله
والشام حافظ ملكه وثغوره
من ينصر الإسلام في غزواته
فلقد أصيب بركنه وظهيره
من للفرنج ومن لأسر ملوكها
من للهدي يبقى مكان أسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها
من للجهاد ومن لحفظ أموره
أنت الذي أحييت شرع محمد
وقضيت بعد وفاته بنشوره
كم قد أقمت من الشريعة معلما
هو منذ غيبت معرض لدثوره

(٩) كتاب الروضتين ١/٢٧٣ .

كم قد أمرت بحفر خندق معقـل
حتى سكنت اللحد في محفوره [١٠]

فهو يقيم صورته المرثائية على مصطلحات دينية قوامها الإسلام والدين والهدى والجهاد والشرع والشريعة ليجعل منها جميعا رصيدا طيبـا لمدوحه .

وفي موازاة هـذا السلوك الديني الذي يجد سبيله عبر موضوعي المدح والرثاء يبدو تقيض الموقف في صيغ الهجاء التي رددها شعراء العصر ، فلم يزعجهم من خصومهم شيء قدر اخلالهم بالعهود ونقضهم المواثيق ، كمـا عرف عن الصليبيين من خلال قول الشـاعر كاشفا موقفهم وهاجيا إياهم :

نقضوا هدنة الصـلاح بجهـل
بعـد تأكيـدها بحسن الوفـاء
ولقـوا بغيهم بما كان فيـه
من فسـاد يجلهم واعتـداء
لا حمى الله شـملهم من شـتات
بمواض تفـوق حـد المضـاء
فجزاء الكفـور قتل وأسـر
وجـزاء الشـكور خير الجـزاء
فلرب العبـاد حمـد وشـكر
دائم مع تواصل النعمـاء [١١]

ومع هـذا الرصيد من الصور الدينية التي اقتحمت الموضوعات التقليدية الموروثة ، نظم شـعراء العصر لوحات فنية جديدة في موضوعات بدت أشد قربا وارتباطا بإيقاع العصر ، وأكثر مواكبـة للأحداث الكبار التي شـهدها ، فكانت وثائق تاريخية لها أهميتهـا ومكانتها في التاريخين السياسي والأدبي على السواء .

---

(١٠) كتاب الروضتين ٢/٢٤٤ .
(١١) ذيل تاريخ دمشق ٣٤٢ .

وكان مما قيل فى هذه الموضوعات ما بدا فيه شعراء العصر شديدى الحرص على استنهاض المسلمين واستنفارهم للجهاد والرد على الصليبيين ، وكانت مساهمة اللسان من الأهمية بمكان كوسيلة لاعداد القوة والاستعداد لذلك الجهاد المقدس وتحريك همة القائد على ذلك النحو الذى عرضه ابن الخياط لعضب الدولة زعيم الجيوش فى دمشق من قوله :

وانى لهد إليك القري
ض يطوى على النصح والنصح يهدى

إلى كم وقد زخر المشركو
ن بسيل يهال له السيل سدا

بنو الشرك لا ينكرون الفسا
د ولا يعرفون مع الجور قصدا[١٢]

فهو يرتدى ثوب الناصح المرشد مقدما نصحه وإرشاده فى تلك الصيغ المهذبة التى يؤكد فيها أن النصح لا يفرض فرضا بل يبدى إهداء ، وإذا هو يكشف عما عرف عن المشركين من فجور وضلال وفساد خلق وجور لا يعرف إلى العدل أو الصلاح سبيلا .

وهو هنا يتجاوز موقف الأخطل أمام عبد الملك فى عصر بنى أمية حين صرح بنصحه له وللبيت الأموى وكأنه يمن عليه وعليهم فى رائيته المشهورة :

بنى أمية إنى ناصح لكم
فلا يبيتن فيكم آمنا زفر

بنى أمية قد ناضلت دونكم
أبناء قوم هم آووا وهم نصروا

(١٢) النجوم الزاهرة ٥/١٥١ .

ولم يتوقف هذا الاستنهاض عند حدود المواقف الفردية التي تتعلق بقائد أو أمير ، بل قد تطرح على المسلمين جميعا خاصة حين يشتد عبث المشركين بمقدسات الإسلام على ذلك النحو الذي قال فيه بعض شعراء العصر على غرار ما ذكرناه آنفاً :

أحل الكفر بالإسلام ضيما
يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح
وسيف قاطع وذم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليبا
ومسلمة لها حرم سليب
وكم من مسجد جعلوه ديرا
على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق
وتحريق المصاحف فيه طيب
أمور لو تأملهن طفل
لطفل في عوارضه المشيب
أتسبي المسلمات بكل ثغر
وعيش المسلمين إذا يطيب
أما لله والإسلام حق
يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوي البصائر حيث كانوا
اجيبوا الله ويحكم اجيبوا(١٣)

فالشاعر يسجل أبعاد أحزانه التي تعمقته وسيطرت على كيانه وأسقمت وجدانه ليطرح تلك الأحزان على المسلمين ، لا ليتباكوا

---

(١٣) النجوم الزاهرة ٥/١٥١

بسبب منها ، بل ليسهموا فى إنقاذ الإسلام مما أحاط به من مخالب الكفر الذى إستباح المحرمات فضاعت حقوق المسلمين وأوشك حماهم أن يستباح بين قتل وسلب ونهب ، بل أوشك الشرك أن يجور على مقدساتهم ليحول مساجدهم إلى أديرة تنصب فيها صلبانهم ، على نحو ما يقترفونه من محرمات دينية من أكل لحم الخنزير ، وإحراق مصاحف المسلمين ، إلى غير ذلك من جرائم بشعة تجعل الولدان شيبا من هول ما يرونه من سبى نساء مسلمات ، الأمر الذى يترجمه الشاعر فى خلاصة ما طرحه استنهاضا للمسلمين لكى يذودوا عن حق الإسلام عليهم ، وليجيبوا داعى الله انتصارا لدينه ودفاعا عن مقدساته .

هو استنفار بعيد إلى الأذهان ما عرضه ابن الرومى فى مرثيته المشهورة حول أحداث الزنج التى دمرت مدينة البصرة ومطلعها :

ذاد عن مقلتى لذيذ المنام
شغلها عنه بالدموع السجام

ولعل ادراك الشاعر المسلم لحجم الخطب على هذا النحو هو ما حفزه إلى إضافة الجديد فى لوحاته المدحية التى التقى فيها هذا الحرص على الإسلام ببقية الصفات المثالية فى شخص الممدوح ، بل تصدرها هذا الموقف على النحو الذى قال فيه ابن منير الطرابلسى مادحا نور الدين بقصيدة أثنى فيها عليه لدوره فى نصرة الدين وإعادة زهوه وقوته إليه :

ردت على الإسلام عصر شبابه
وتبأته من دونه وثباته

سبغت على الإسلام بيضن جحوله
واختال فى أوضاحها جبهاته

تحكم الصليب على ضلالة عوده
فتفرقت أيدى سبا خشباته(١٤)

وإذا بغضبة نور الدين تتجاوز ذلك المستوى الانفعالى الذى يتجاوز ذلك الخصومات ، إلا ما مس منها دينه فينبرى عنه مدافعاً وذائداً على نحو ما برز من جوانب شخصية نور الدين على لسان ابن القيسرانى فى قوله :

غضبت للدين حتى لم يفتك رضى
وكان دين الهدى مرضاته الغضب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسباً
من الملوك فنون الدين محتسب

ولعل من أكثر هذه الصور الحربية إشراقاً فى هذا المجال ما عرضه شعراء العصر حول انتصارات المسلمين على الصليبيين ، وما شاع فى هذه الانتصارات من طابع دينى دفع الشعراء إلى كثرة الاقتباس من المعجم القرآنى ، والاستعانة بالصور الدينية على النحو الذى تردد فى كل فتح أو انتصار على حدة ، وكان انتصار صلاح الدين فى حطين من أكبر حوافز الشعراء إلى النظم فقد اهتزت فيهم الوجدان الدينى ، وتدفقت الملكة الإبداعية لتصوير نشوة النصر وهزيمة الشرك على ذلك النحو الذى نراه يرد على لسان أبى الحسن الجعرانى نقيب الأشراف بالديار المصرية فى « حطين » ، وابتهاجه بالقدس :

أترى مناما ما بعينى أبصر
القدس تفتح والفرنجة تكسر
وملوكهم فى القيد مصفود ولم
يرقبل ذاك لهم ملوك تؤسر

---

(١٤) كتاب الروضتين ١/٦٠ .

قد جاء نصر الله والفتح الذى
وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فتح الشآم وطهر القدس الذى
هو فى القيامة للأنام المحشر
ماك غدا الإسلام من عجب به
يختال والدنيا به تتبختر
نثر ونظم طعنه وضرابه
فالرمح ينظم والمهند يبتر
حيث الرقاب خواضع حيث العيو
ن خواشع حيث الجباه تعفر

فما كان فتح القدس إلا فتحا دينيا استبشر به المسلمون جميعا ، وإذا بالشاعر يستوقفه ما كان من سورة النصر « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » ، وإذا هو تستغرقه قوة الانتصار فيذكر ما بعد القيامة من حشر ونشر ، كاشفا بذلك عن صدق حسه الغيبى الذى يعد من أرقى صور الإيمان فى هذا المعجم الإسلامى ، إلى جانب ما رصده من شعائر الإسلام من خطب الجمع والمنابر التى يرتقيها خطباء الإسلام كصورة من هذه الشعائر .

وعلى نفس النسق يسير نفس الشاعر حول نفس الانتصار فى قوله :

جند السماء لهذا الملك أعوان
من شك فيه فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما نحكيه فى زمن
وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذى الفتوح فتوح الأنبياء وما
لها سوى الشكر بالأفعال أثمان

أضحت ملوك الفرنج الحيد فى يـده
صيدا وما ضعفوا يوما ولا هانوا
تسعون عاما بلاد الله تصرخ وال
إســـلام أنصاره صـــم وعميـــان
للناصر ادخرت هذى الفتوح وما
سمت لهم همم الأملاك مذ دانوا

فهو يستعيد بذلك السير الإســـلامية من لدن تاريخ الغزوات الإســـلامية فى عصر النبوة ، يوم أن كانت الملائكة تتنزل من قبل الله تعالى لتساعد جند المسلمين وتعينهم فى قتال المشركين ، ولذا لم يتورع الشـــاعر عن عرض صور هـــذه الفتوح فى صورة جعلها شـــبيهة بغزوات الأنبياء ، وهزائم الشرك وأهله من ملوك الطغيان والفســـاد ، وبعدها يرصد الأبعاد الزمنية لتأريخ الهزيمة ، وتصوير المرارة التى راحت فيها بلاد الله والإســـلام تصرخ ؛ وكأن المســـلمين قد عموا وصموا ، إلى أن قيض لها الله من شخص صلاح الدين قائدا فذا يحقق نصر الإســـلام على يديه . وراح الشـــعراء يتبارون ويجتهدون حول الأخذ من كل صور المعجم الإســـلامى إزاء الجروب المقدسة ، أو الآيات القرآنية التى جعلها مصدرا لأخذه ، بل أخذوا من قصص القرآن الكريم ما عرضوه بين ثنايا قصائدهم على النحو الذى عرضه الحكيم الجليانى حين وصف الإفرنج بعد اســـتيلاء صلاح الدين على بيت المقدس فى قوله :

وياضحى السبت ما للقوم قد سبتوا
تهودوا أم بكأس الطعم قد سكروا
ويا ضريح شعيب ما لهم جثمـــوا
كمدين أم تقوا رجفا بما كفـــروا

كاشفا بذلك عن جانب من قصص اليهود ، وما ليوم السبت فى

ديانتهم من أثر خاص (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه)[١٥] ، كما يلتقط من قصة شعيب (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول)[١٦]

والذى لا شك فيه أن شعراء الحروب الصليبية قد تزاحموا على هذا المعجم فكثرت لديهم منه المعانى والصور وتزاحمت الأفكار على أذهانهم بحكم ظروف المواقف القتالية وما طبعت به من صبغة دينية ، أساسها الصدق والاخلاص فى الجهاد ، مما دفع الشعراء إلى تسجيل الانتصارات بنفس الصدق والعمق والحماس والانفعال ، على النحو الذى عرضه أيضا العماد فى فتح بيت المقدس :

جنودك أملاك السماء وظنهم
أعاديك جنا فى المعارك أو انسا
فكيف مكنت المشركين رؤوسهم
ورأيك فى الاحسان أن تطلق المكسا
كسرتهم إذ صح عزمك فيهم
ونكستهم من بعد إعلامهم نكسا
بواقعة رجت بها أرض جيشهم
ومارت كما بست جبالهم بسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها
وألبستها الدين الذى كشف اللبسا
جرى بالذى تهوى القضاء وظاهرت
ملائكة الرحمن أجنادك الحمسا

فهو يقيم الصورة على أساس من نفس التصور الدينى التاريخى من وجود مدد إلاهى تقوم به ملائكة الرحمن ممن لا يستطيع المشركون التعرف على هويتهم ، فما هم بإنس ولا جن ، ولا عهد للكفار بمعرفتهم ، ومن ثم يدير الشاعر فخره بما كان من الانتصار الذى

---

(١٦) سورة هود ٩١ . (١٥) سورة النحل ١٢٤ .

كشف الحق حين نزع لباس الكفر عن المقدس وألبسها ثوبا قشيبا يعكس اعتزازه القويم الذى كشف اللبس عن البشرية كلها حين أبان لها سبيل الهداية والرشاد « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا »(١٧) .

« إن الدين عند الله الإسلام »(١٨) .

أضف إلى هذا ما التقطه الشاعر من تلك الصور التى انتشرت فى الآيات القرآنية الكريمة « إذا رجت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا »(١٩) .

وهكذا ترددت أصداء المؤثر الإسلامى فى جنبات الساحة الشعرية فى مواقف القتال فكان الشعر وسيلة اعلامية جيدة لتسجيل الانتصارات وبيان ما فيها من ذلك الحس الدينى الذى جعل من المعجم الإسلامى قاسما مشتركا بين معظم شعراء العصر ، فى مختلف عصور الأدب التى عرضت لها ، فإذا بالبهاء زهير يستوقفه مشهد انتصار الملك الكامل على الإفرنج عند المنصورة فينبرى مترجما موقفه قائلا :(٢٠)

بك اهتز عطف الدين فى حلل النصر
وردت على أعقابها ملة الكفر
صبرت إلى أن أنزل الله نصره
لذلك قد أحمدت عاقبة الصبر
وليلة نفر للعدو كأنها
بكثرة من أرديته ليلة النحر
وبالليلة قد شرف الله قدرها
ولا غرو أن سميتها ليلة القدر

---

(١٧) سورة الاسراء ٧٢ .
(١٨) سورة آل عمران ٩
(١٩) سورة الواقعة ٤ — ٥ .
(٢٠) ديوان البهاء زهير ٩٩ .

سدديت بسبيل البر والبحر عنهم
بسابحة دهم وسابحة غر
أساطيل ليست في أساطير من مضى
بكل غراب راح أقنص من صقر
وجيش كمثل الليل هولا وهيبة
وإن زانه ماضيه من أنجم زهر

أضف إلى هذا أيضا من نفس المنظور الإسلامى ما عرج عليه الشاعر من تأثره بقصة موسى عليه السلام والخضر وهو بصدد عرض صورة الملك الكامل :

أياديه بيض في الورى موسوية
ولكنها تسعى على قدم الخضر
ومن أجله أضحى المقطم شامخا
يناقش حتى طور سيناء في القدر

وهو ما يتجاوزه إلى تصوير الملائكة والملأ الأعلى :

فيا ملكا سامى الملائك رفعة
ففي الملأ الأعلى لك أطيب الذكر

ودنا تلح عليه صورة رسول الله ﷺ ، وكأنما تواردت خواطره حول معراجه عليه السلام :

فقل لرسول الله أن سميه
حمى بيضة الإسلام من نوب الدهر

كما يلح عليه الحنين إلى مكة ويبدو سعيدا باسعادها بأنباء النصر :

فمن بلغ هذا الهناء لمكة
ويشرب تهنيه إلى صاحب القبر

وسرعان ما يستطرد إلى تصوير السلوك الدينى لممدوحه والذى أدى به إلى حتمية هـذا النصر ، فكان عبدا زاهدا كثير التقى والصلاة :

ورد على المحـراب منها صـلاته
وكم بات مشتاقا إلى الشـفع والوتر
وباتت جنود الله فوق ضوامـر
بأوضاحها تغنى السراة عن الفجر
فما زلت حتى أيد الله حـزبه
وأشرق وجه الأرض جذلان بالنصر
فرويت منهم ظامىء البيض والقنا
وأشبعت منهم طاوى الذئب والنسر
وجاءت ملوك الأرض نحوك خضعـا
تجرر أذيال المهانة والصـغر
أتوا ملكا فوق السـحاب محله
فمن جوده ذاك السحاب الذى يسرى
فمن عليهـم بالأمان تكـرما
على الرغم من بيض الصوارم والسمر
كفى الله « دمياط » المخاوف انهـا
لمن قبلة الإسـلام فى موضع النحر
وما طاب ماء النيل الا لأنه
يحل محل الريق من ذلك الثغر[٣١]

فإذا هو يستهل الصورة بتشخيص رصد فيه للدين مشهدا وقد اهتز فى حلل النصر ، فى موازاة ما أصاب عالم الكفر من ارتداد أهله على أعقابهم خاسرين ، وهو يرد النصر إلى الله سبحانه الذى أنزله على عبده لمـا كان من صبره وتجلده ، وإذا هو يستعين بمشهد فرآنى حول عرض صورة تلك الليلة حيث جعلها شبيهة بليلة القدر ،

فى ارتفاع المكانة ، وعلو الشأن من المنظور الدينى ، وما كان ذلك إلا لأن الجند هم جند الله الذين يدافعون عن دينه ، يؤيدهم الله سبحانه لأنهم حزبه « إلا أن حزب الله هم المفلحون » .

ومع كثرة الانتصارات الإسلامية كثرت الصور الحربية ، وازداد فيها عمق الحس الدينى ، وبدا أساسه استيعاب الشعراء للمعجم الإسلامى ، وحرصهم على الصدور عنه فى شعرهم ، على ذلك النحو الذى أداروه حول الحروب المقدسة ، وفيها استهدفوا — كما استهدف الجند — الانتصار للإسلام ، والدفاع عن عقيدة المسلمين فى محاولات بطولية رائعة لاسترداد أراضيهم المقدسة . فعلى نفس النسق نجد ما قاله أمين الدولة محمد بن عبد الله المعروف بسبط بن التعاويذى بمناسبة انتصار صلاح الدين على الصليبيين فى موقعة مرج عيون سنة ٥٧٥ هـ :

ونهضت للإسلام نهضة صادق الـ
عزمات ترأب من ثراه وتشعب
وغضبت للدين الحنيف ولم تزل
فى الله ترضى منذ كنت وتغضب
غادرت أهل البغى بين مجدل
لقى الحمام وخائف يترقب(٢٢)

وعلى نفس النهج نتبين ما كان من ابن القيسرانى فى تصويره انتصار نور الدين فى أنطاكية قبل ذلك سنة ٥٤٤ هـ من طموحه إلى تطهير المسجد الأقصى وإشاراته المتكررة إلى ذلك وانتظاره الملهوف له :

فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب
يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
واذن لموجك فى تطهير ساحله
فإنما أنت بحر لجه لجب(٢٣)

---

(٢٢) كتاب الروضتين ١/٥٩ . (٢٣) نفسه ١/٥٩

وكذا ما ردده الشهاب محمود الحلبي في استيلاء الأشرف خليل على عكا سنة ٦٨٩ :

ما بعد عكا وقد لانت عريكتها
لديك شيء تلاقيه على تعب
فانهض إلى الأرض فالدنيا بأجمعها
مدت إليك نواصيها بلا نصب

ومن التاريخ الإسلامي أشرقت صور كثيرة حرص شعراء العصر على إحيائها كلما عن لهم موقف نصر للإسلام ، ففي انتصار نور الدين على الإفرنج في موقعة دلوك سنة ٥٤٠ انبرى أحد الشعراء المسلمين مسجلا وقع الفتح على نفسه ، وعلى نفوس المسلمين مستلهما روح التاريخ الإسلامي :

أعدت بعصرك هذا الأنيق فتوح النبي وأعصارها
وكان مهاجرها نابعيك وأنصار رأيك أنصارها
فجددت إسلام سلمانها وعمر جدك عمارها

وكثيرا ما قرن الشعراء الانتصار بتدين ممدوحيهم ، فكان المعجم الإسلامي هنا مقياس الحكم ، ومحور الموقف الفني ، لتحديد طبيعة الانتصارات ، تناغما مع ذلك الطابع الديني الذي يطرح منه العماد صورة في قوله في نور الدين حين أخذ قلعة « منبج » من صاحبها ابن جسنان سنة ٥٦٣ هـ :

فانهض إلى البيت المقدس غازيا
وعلى طرابلس ونابلس عج
قد سرت في الإسلام أحسن سيرة
مأثورة وسلكت أوضح منهج
وجميع ما استقريت من سنن الهدى
جددت منه كل رسم مبهج

---

(٢٤) كتاب الروضتين ١/٧٣ ، معجم الأدباء ٧/١٣ .

وكأن طرح الانتصار هنا لم يكن إلا قرينا للسيرة الحسنة التى فسار عليها الممنوح فى دينه ، والذود عنه وسلوك المنهج القويم على سنن الهدى الموروثة عن رسـول الله ﷺ .

وهكـذا بدا التبارى الفنى ظاهرة عامة لدى الشعراء حـول استحضار تلك المعانى والقيم الاسلامية ، وعرضها فى موضوعات الشعر المتنوعة ، فى عصر بدت فيه المعارك دينية بالدرجة الأولى ، كما احتدت فيه الصراعات شديدة حول الإسـلام وأراضيه المقدسة ، وبين أهل الصليب ، وما جاءوا به من وسائل التخريب والدمار ، ومن ثم كانت الفضائل الاسلامية فى الممدوحين من أهم متطلبات المرحلة . ومن أخطـر ما يستلزمه الموقف القتالى ، بحكم الدوافع والسلوك والإعداد ، على ذلك النحو الذى عرضنا له آنفا فى لوحة المديح ، وما عرض له ابن القيسرانى — أيضـا — فى ذلك المزج بين المدح وتصوير انتصار تاج الدين بورى عند دمشق فى قوله :

قوت الجياد وحصنت البلاد وأمن ت العباد فأنت الحل والحـرم

وفقت فى الجيش والاعـلام خافقـة
بالنصر كل قنـاة فوقها علـم
وسست جندك والرحمن يكلـؤه
سياسـة ما يعفى أثرها نـدم
والنصر دان وخيـل الله مقبلة
ترجو الشهادة فى الهيجا وتغتنم
فغـادروا أكثر القربان وانجفلوا
وخلفوا أكبر الصلبان وانهزموا
هدى العزائم لاما تدعى القضب
وذى المكارم لاما قالت الكتب
وهـذه الهمم اللات متى خطبت
تعثرت خلفها الأشعار والخطب

صافحت يا ابن عماد الدين ذروتهـا
براحة للمساعى دونهـا تعب
عمت فتوحك بالعدوى معاقلهـا
كأن تسليم هذا عند ذا جرب (٢٥)

وقوله :

ولو لم يبشر فى عسكر من جنده
لكان من نفسه عسكر لجب

فمع عرض هـذه الفضائل الاسلامية يتردد حرص ابن القسرانى وغيره على الإفادة الصريحة من التاريخ الإسلامى ، فإذا هو نفسه يذكر يوم بدر وملائكة الرحمن ، وهو بصدد مدح عماد الدين :

لله أية وقعة بدرية
نصرت صحائبهـا بأيمن صاحب

وأمدكم جيش الملائك نصرة
بكتائب محشوثة بكتائب(٢٦)

ففى اللوحة الأولى يجعل مقومات المشهد قائمة على ما ذكره من الحل والحرم ، والرحمن ، والشهادة وخيل الله ، كأصول الصورة الدينية التى يتقدم فيها الممدوح فى قيادة جنده وخيوله التى تتبارى إلى الاستشهاد فى ساحة الموت ، وما تنبثق عنه سياسته من حزم وتدبير وعزائم وهمم كانت نتيجتها تحقق ذلك النصر الدينى الذى يرفع من مكانة ممدوحة حتى لكأنه بمفرده جيش لجب .

وفى اللوحة الثانية يستمر فى ترديد ما تعاوره الشعراء فى لوحاتهم المدحية حول منطق السبق والتفرد أحيانا ، حين يرصد لكل ممدوح على حدة ، ولكنه هنا يبدو قرينا لدعوة الجهاد والفخر

(٢٥) كتاب الروضتين ١/٣٨
(٢٦) كتاب الروضتين ١/٥٨

بما كان من تلبية هـذا الصوت الدينى الذى ردده أسامة بن منقذ فى مدحه لنور الدين أيضا :

أسمعت دعوة الجهـاد فلبا ها مليك بالمكرمات خليـق
مله عن جهاده الكفر والعد ل وفعل الخيرات شغل يعوق[٢٧]

ومن ثم بدت مبالغات الشـعراء ممزوجة بهذا الحس الدينى كدافع للخروج ، وحافز للاستمرار حتى النصر ، ووسيله للاستبشار على المنهج الذى ردده كثير من الشعراء ومنه ما قيل فى صلاح الدين فى صـور مباشرة :

يا ناصر الإسـلام حين تخـاذلت
عنـه الملوك ومظهـر الايمـان
بك قد أعز الله حـزب جنوده
وأذل حزب الكفـر والطغيان
لمـا رأيت الناس قد أغواهـم ال
شـيطان بالالحـاد والعصـيان :
جردت سـيفك فى العدى لا رغبة
فى الملك بـل فى طاعة الرحمـن
فضربتهم ضرب الغرائب واضعـا
بالسيف ما رفعوا من الصلبان
وغضبت لله الذى أعطاك فصـ
ـل الحكـم غضـبة ثائر حـرّان
فقتلت من صـدق الوغى ووسمت من
من نجى الفرار بذلة وهـوان

وهو نفس المنهج التصويرى الذى يتكرر حول صلاح الدين أيضا:

---

(٢٧) كتاب الروضتين ١/١١٧

لازلت ما ملك الإسـلام فى نعم
قرينها للسـعدان : النصر والظفـر
تردى الأعادى وتستصفى ممالكهم
وعونك الماضيان : الصيف والقـدر
وجاد غيث ندالك المسـلمين فمن
سـحابه المغنيان : الدر والبـدر
وسرت سيرة عدل فى الأنام كما
قضى به الصادقان : الشرع والسـور

صحيح أنه عمد فيها إلى الصيغة بدا فيها حرصـه على التانية وأسلوب الاجمال والتفصيل ، ولكنه لم يخرج بها عن تلك الحدود الدينية التى صور فيها طبيعة ملك صلاح الدين وما يأتيه من نصر إلهى ، وما يسير عليه من نهج قويم فى نشر العدل بين رعاياه إلى ما يعرضـه الشاعر من دعائه الدينى للقائد .

وفى هـذا الخضم التصويرى لا يتوقف الشاعر عند حـدود عرض الصور بل يبحث فى المعجم الاسلامى عن رصيد قرآنى قد يأخذ منـه ما يزيد الصورة وضوحا ويدعمها دعما على نحو ما قاله ابن سـناء الملك من وحى التأريخ الاسلامى أيضا فى غزوة بدر ومن وحى الآية الكريمة (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)[٢٨] .

ليقول :

ما هـذه الرمية معهـودة بالقوس إذ ترمى عن الأسـهم
وهى التى فى يوم بدر جرت لمـا رمى الله بها من رمى[٢٩]

على أن المواقف الفنية للشـعراء لم تعرف سبيلا للتوقف أو

(٢٨) خريدة القصر (قسم شعراء الشام) جـ١/٥٣٢
(٢٩) سورة الأنفال آية ١٧

الانحصار فى دائرة المدح والثناء على قواد المسلمين ، بل تجاوزتها إلى تلك اليقظة التى بدا فيها الشاعر مترقبا كل خطوة فى الجهاد قد تشد من أزر الدين وتسعد المسلمين ، أو تسبب لهم حزنا وكآبة على نحو ما كان من الملك المعظم عيسى صاحب دمشق حين خرب بيت المقدس خشية استيلاء الفرنج عليه مما أثار سخط المسلمين ونقمتهم ودفع بعض الشعراء الى ذم فعله على نحو مما قاله شهاب الدين أبو يوسف يعقوب بن المجاور مستلهما الطابع الدينى فى الموقف(٣٠).

أعينى لا ترقى من العبرات
صلى فى البكا الآصال بالبكرات

لعل سيول الدمع يطفىء فيضها
توقد ما فى القلب من جمرات

ويا قلب أسعر نار وجدك كلما
خبت بادكار يبعث الحسرات

ويا فم بح بالشجو منك لعله
يروح ما ألقى من الكربات

على المسجد الأقصى الذى جل قدره
على موطن الإخبات والصلوات

على منزل الأملاك والوحى والهدى
على مشهد الأبدال والبدلات

على سلم المعراج والصخرة التى
أنافت بما فى الأرض من صخرات

على القبلة الأولى التى اتجهت لها
صلاة البرايا فى اختلاف جهات

وما زال فيه للنبيين معبد

---

(٣٠) ديوان ابن سناء الملك ٢٩٢

يوالون فى أرجائه السجدات
لتبك على القدس البلاد بأسرها
وتعلن بالأحزان والترحات
لتبك عليها مكة فهى أختها
وتشكو الذى لاقت إلى عرفات
لتبك على ما حل بالقدس طيبة
وتشرحه فى أكرم الحجرات
لقد شتتوا عنها جماعة أهلها
وكل اجتماع مؤذن بشتات[٣١]

إذ يشكل الشاعر أبياته من خلال رصد بكائى يشتد فيه حزنه وأساه ومخاوفه على الإسلام ومقدساته فيذكر الأقصى ويحن إلى مكانته الدينية بين الإخبات والصلوات ، ويستكمل المشاهد بالوحى والهدى ومعراج رسول الله ﷺ ، والصخرة ، والقبلة الأولى ومعابد الأنبياء والمسجدات ، والشعائر المقدسة فى مكة وعرفات مما يطرح من خلاله الشاعر حنينه ولهفته ومخاوفه إزاءها .

وتبقى من الملاحظات الواضحة حول المؤثرات الإسلامية فى هذه الفترة ما غلب عليها من الطابع الحربى مما أدى بالشعراء إلى عدم الحرج فى المعارضة الشعرية ، وهى معارضة أساسها الحس الدينى مع قدر واضح من الاستقصاء للدوافع والانفعالات ونتائج الحروب، وتتراوح تلك المعارضة على مستوى القصيدة بين الاطالة والقصر مع وضوح التأثر لدى الشعراء بالحس الاسلامى العام مع ، غلبة الطابع الحماسى والحربى مما وجد سبيله إلى الانتشار فى كل الموضوعات مملا أفسح مجالات طيبة لبروز الطابع الذاتى أيضا من قبل الشعراء .

---

(٣١) كتاب الروضتين ٢/٢٠٥

وتتبلور خلاصة القول فى هذا الجانب الحربى فيما طرحه لنا من صورة البطل الإسلامى الذى ينطلق من عالم الفضائل الدينية ، ليجدد صورة البطولات الأول منذ عصر صدر الإسلام ، كما جدد فتوحاته على نحو ما جمعه ابن منير الطرابلسى فى تصوير عماد الدين وقد فتح مدينة الرها ، فراح يشيد بالفتح والبطل من خلال الإسلام والمسلمين من مثل قوله :

صفات مجدك لفظ جل معناه
فلا استرد الذى أعطاكه الله
يا صارما بيمين الله قائمه
وفى أعالى أعادى الله حداه
قل للأعادى : ألا موتوا به كمدا
فالله خيبكم ، والله أعطاه
ملك تنام عن الفحشاء همته
تقى ، وتسهر للمعروف عيناه
على المنابر من أبنائه أرج
مقطوبة بفتيق المسك رياه
فتح أعاد على الإسلام بهجته
فافتر مبسمه واهتز عطفاه
يهذى بمعتصم بالله فتكته
حديثها نسخ الماضى وأنساه
مشمرا وبنو الإسلام فى شغل
عن بدء غرس لهم أثمار عقباه
يا محيى العدل إذ قامت نوادبه
وعامر الجود لما مح مغناه
يا نعمة الله يستصفى المزيد بها
للشاكرين ويستثنى صفاياه
أبقاك للدين والدنيا تحوطهما
من لم يتوجك هذا التاج إلا ه

فهو يضع أمامنا صورة البطل الإسلامى فى قوته وعنفه وبأسه مما يميت أعداءه إلى جانب تقواه وتجنبه الفواحش وسهره المعروف وإحيائه العدل مما يدفع بالشاعر إلى تسجيل فخر المسلميه به حين يعرج على ما أحرزه من فتوحات ليختم حواره بالدعاء الدينى له .

ويتردد لهذا المشهد البطولى نظير يعرضه ابن القسيرانى على درجة من التركيز والإيجاز حين يقول فى تسجيل انتصارات نور الدين محمود من خلال ملامح بطولته التى ترفعه إلى مصاف كبار القادة وأئمة الإسلام وخلفائه وأوليائه وأتقيائه فى قوله :

ذو الجهادين : من عدو ونفس
فهو طول الحياة فى هيجاء

قد هديت الملوك للعدل لما
سرت فى الناس سيرة الخلفاء

قاسما ما ملكت فى الناس حتى
لقسمت التقى على الأتقياء

أنت حينا تقاس بالأسد الور
د وحينا تعد فى الأولياء

رأفة فى شهامة وعفاف
فى اقتدار وسطوة فى حياء

وجمال ممنطق بجلال
وكمال متوج ببهاء

أعجب الناس منك أنك فى الحر
ب شهاب الكتيبة الشهباء

وكأن السيوف من عزمك الما
ضى أفادت ما عندها من مضاء

ولعمرى لو استطاع فداك الـ
قوم بالأمهات والآباء

إذا يبدو البطل لديه نموذجا يحتذى على المستوى الدينى فهو يجاهد عدوه كما يجاهد نفسه فلا تراه إلا بطلا محاربا فى ميادين القتال ، أو ميادين الشهوات ؛ حتى ليبدو هاديا لكل الملوك حين استعاد سير الخلفاء وملك ناصية التقى والورع إلى جانب الشجاعة والبأس والفصاحة والجلال والكمال حتى استحق أن يختم أبياته فيه بأن يجعل القوم له فداء .

فإذا خرجنا من دائرة الحروب والبطولات ظل صدى المؤثر الدينى شديد التردد لدى شعراء العصر بحكم الموضوعات الأخرى التى نظما على نحو ما أنتجته قرائحهم ، وتنافسوا فيه فى مدائحهم لرسول الله ﷺ على طريقة البوصيرى فى هزيمته الطويلة وقد تجاوزت أربعمائة وستين بيتا استهلها بأبياته المشهورة شهرة القصيدة كلها :

كيف ترقى رقيك الأنبياء
يا سماء ما طاولتها سماء

لم يساووك فى علاك وقد حا
ل سنا منك دونهم وسناء

إنما مثلوا صفاتك للنا
س كما مثل النجوم الماء

إلى جانب غيرها من مدائحه المشهورة على منهج لاميته فى معارضته بانت سعاد وغيرها لديه ولدى غيره من شعراء المدح النبوى ، مما اتسق مع شاعر المجتمع الإسلامى بعنف المعركة بين الإسلام وأهل الكفر فاندفع الشعراء بهذا الحنين إلى المعجم الإسلامى فى المدائح النبوية يجدون فيه ملاذهم ومادتهم الروحية ، ففيها يجدون فرحة النصر كما يجدون النجدة من مخاوف الهزيمة أو الاستنجاد من صورتها المفزعة التى تعرضها الصورة القاتمة حين يرسمها الشاعر :

أحـل الكفـر بالاسـلام ضـيما
يطـول عليـه للدين النحيب
فحق ضـائع وحمى مبـاح
وسـيف قاطـع ودم صبيب
وكم من مسـلم أمسى سليبا
ومسـلمة لهـا حـرم سـليب
وكـم من مسـجد جعلوه ديرا
على محـرابه نصـب الصليب
دم الخنزير فيـه لهـم خلوق
وتحـريق المصاحف فيـه طيب
أمـور لو تأملهـن طفـل
لطفـل فى عوارضـه المشيب
أتسـبى المسلمات بكـل ثغـر
وعيش المسـلمين إذا يطيب
أما لله والإسـلام حـق
يدافع عنه شـبان وشيب
فقل لذوى البصـائر حيث كانوا
أجيبـوا الله ويحكم أجيبـوا

ففى مثل هـذا الواقع الأليم ترى المسلمين يضرعون إلى الله لتفريج الكرب حتى إذا ما تحقق النصر برزت لديهم صور الشـكر التى رسمها الشعراء وجميعها بدت انطلاقا من المعجم الإسـلامى استكمالا لمعركة الإسـلام مع الكفر وارتباطا بها .

ومن هنا تحول العصر إلى عصر للمدائح النبوية والمعارضـات فى هـذا الإطار الدينى ، حتى لتنتظم فيها دواوين كاملة على نحو ما صنع شـهاب الدين محمود فى « أهنى المنائح وأسنى المدائح » و « بشرى اللبيب بذكر الحبيب » لابن سيد الناس العمرى ، وغالبا

ما سارت هـذه الدواوين على لغة التخصص فى المدائح بما يشيع فيها من الوعظ والارشاد الدينى ممزوجا بالتعريض بالديانات الأخرى لينطلق المـادح إلى الفخر بالأمة الإسلامية ومدح أبطالها إلى جانب تخصيص المديح بشخص رسـول الله ﷺ وتناول معجزاته وإسرائه ومعراجه وجهاده فى سبيل دينه على منهج شـهاب الدين محمود فى قوله :

حملتك آمنة الحصـان فلم تجـد
عبئـا كعبء الحاملات ثقيـلا

وولـدت مختونـا وذلك آيـة
لا تقبـل التأويل والتعليـلا

ورأت لك الأحبـار والرهبـان فى
التوراة وصـفا طابق الإنجيـلا

واستبشروا بك إذا ظهرت وبشروا
إلا قليـلا حرفـوا ما قيـلا

واسترضعتك حليمة فرأت من الـ
ـبركات ما أغنى أخا وخليـلا

ويمين وجهك صد خالقك العـدا
عن بيت كعبته ورد الفيـلا

ولقد رأى الغلمان جبريل الذى
شـق الفؤاد ورده مغسـولا

ونشـأت يستسقى بغرتك الحيـا
وفضلت بالصدق الورى تفضيلا

ورأى بجير ركب مكة فوقهم
ظل الغمـامة يشـبه الإكليـلا

وأضافهم ليرى الغمامة فوق من
نشـأت ويسـبر وضعه المنقولا

ورآك والأشجار حولك سجدا
لك حيث ملت تفيأت تمييلا
وجلاك أوصافا وشاهد خاتما
لك شم فاز بلثمه تقبيلا
وأسر للعم الجليل بأن لا
بن أخيك شأنا فى الوجود جليلا
فاحذر عليه من اليهود فإنهم
إن يقدروا يوما عليه اغتيلا

وإلى جانب هذه الكثافة فى حس الشاعر إزاء المعجم الإسلامى تنطلق مادة الصوفية قريبا منه أيضا خاصة حين يزداد انتشار فرق الصوفية وقد اهتم بهم صلاح الدين حين أنشأ لهم الزوايا والخوانق فكثرت لديهم المؤثرات من قبل محيى الدين بن عربى وظهر بمصر آنذاك ابن الفارض ، كما ظهر ابن الكيزانى وكان شاعرا صوفيا بمصر شغله التحدث عن الحب الإلهى على طريقة رابعة العدوية وهو الاتجاه الذى تردد فى شعر ذى النون المصرى ، وفيه برزت العاطفة الدينة واضحة ، كما بدت قريبة من المعجم الإسلامى طالما ظلت قريبة من عالم الزهاد على نحو الحث على الزهد وضرورة مجاهدة النفس فى قول الشاعر :

جهاد النفس مفترض فخذها
بآداب القناعة والزهادة
فإن جنحت لذلك واستجابت
وخالفت الهوى فهو الإرادة
وإن جمحت بها الشهوات فاكبح
شكيمتها بمعمعة العبادة
عساك تحلها درج المعالى
وترفعها إلى رتب السعادة

أو الدعـوة الدائمة إلى الورع وتقـوى الله فى ذلك السلوك الدينى القـويم :

النفس أكـرم موضـعا من أن تدنس بالذنـوب
ما لـذة الدنيـا لـهـا ثمنـا وإن مزجت بطيب
فاسـبق إلى إعـداد زا دك هجمـة الأجـل القـريب
والـق الإله علـى التقـى والخـوف مزرور الجيـوب

ويظل الفرق فاصلا بين هـذه المعانى فى عالم الزهاد والمتصوفة وبين انصراف الصوفية إلى مصطلحاتهم الخاصـة التى مثلت معجما لها متميزا شغلتهم فيه وحـدة الوجود ، أو العاطفة المعلقة بالرمز والاشارة أو نظرية النور المحمدى أو فكرة الإمام والقطب أو العلم الباطن أو القول بالنبوة الروحية أو الأدوار أو المشاهدة الإلهيـة أو الفناء والاتحاد مع الذات الإلهية ، إلى غير ذلك مما يمس معجم الصوفية بكل سماته وملامحه الخاصـة .

وبذا يظل الطابع الغالب على المعجم الإسلامى إلى عصر الحروب الصليبية بارزا من خلال تلك العاطفة الدينية المشبوهة وهى تعكس مشاعر المسلمين إزاء الأحداث الكبار من حولهم وتصورها من خلال المادة الإسلامية التى تمتد إلى معانى الآيات القرآنية الكريمة إلى القصص القرآنى وغير ذلك من منطق الحس الإسلامى العام الذى تدفق فى نفوس شـعراء العصر جميعا إزاء معركة الإسـلام مع الشرك .

* * *

خاتمة

ويظل خط التطور واضحا بما يسم المعجم الإسلامى فى كل عصر على حدة بسمات محددة مثلت طابعا خاصا به ، وقاسما مشتركا بين شعرائه لتظل هذه الملامح فى مجملها بمثابة رصد لتطور حركة الفكر فى المجتمع العربى منذ بدت بسيطة غير مذهبية ، فكانت إزاء وضوح المصدر وبيانه دعوة إلى نشر العقيدة والدفاع عنها ، وتسجيل غزوات رسول الله ﷺ ، وتوظيف الموضوعات التقليدية بما يخدم الدعوة فى أبواب الهجاء أو الرثاء أو المدح أو ما أضيف إليها من موضوعات جديدة فى اطار الذهد والدعوة إلى الإسلام والوعظ والارشاد ، إذ تظل دواوين شعراء العصر شاهدا أمينا على كثافة التأثير من هذه الزاوية وهو ما انعكس بدوره فى طبيعة الإفادة من المادة الإسلامية بلا مواراة ولا تحول ، فإذا بالشاعر ينزع مباشرة إلى مصدره القرآنى أو الحديثى لينتزع منه معنى يضمنه شعره أو اقتباسا يتناوله ، أو يتخذ من السنة الفعلية مادة يزين بها شعره ويتخذها محورا من محاور معجمه .

أضف إلى هذا أن معجم هذا الجيل بدا مرهونا بسلوك معين لم يشأ الشاعر المسلم تجاوزه فكان يرهن فلسفة لسانه برد العدوان لا المبادأة به ، وكأنه حين يهدد ويتوعد فهو يتمنى فى أعماقه ألا تفتح نيران المعركة بينه وبين خصومه على لغة حسان فى قوله فى خاتم هجائيته الهمزية لأبى سفيان :

لسانى صارم لا عيب فيه ... وبحرى لا تكدره الدلاء

أما وأن المعركة الهجائية قد تقع من خلال الخصم البادىء بالعدوان ، فلا يبقى ثمة مجال للتردد للشاعر المسلم الذى التزم فى حدود الخلق الإسلامى بهذا الرد وذلك التنبى للموقف الدينى

حتى لو بدا هجائيا على الضرورة طالما افتقد عنصر المبادأة وهو ما رصده قول حسان أيضا لأبى سفيان وكأنه يحمله تبعه ما سيلقاه من هجائه خاصة أنه لا ينظر ثوابا عليه ولا شكورا إلا من خالقه لا من ممدوحه ﷺ :

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

وبذا بدت الروح الإسلامية واضحة وضوح الأحكام الشرعية ، صافية صفاء المصدر الذى نأى بها عن الفلسفة أو التعقيد أو الصراع والانقسام الذى طغى على فكر الشعراء فى عصر بنى أمية . وهو ما مثل ضربا من الإضافة والتغاير يتسق مع إيقاع العصر الجديد، إذ بدا المعجم شديد الاتساق بفكر الشاعر ومنهج تعبيره ولغة عصره التى شهدت قسمة واضحة إلى ثمان من الفرق على المستويين الدينى والسياسى ، وكلا الاتجاهين يأخذ من المعجم الإسلامى بما يعنى بحاجاته من الإقناع والبراهين ، ولا تكاد كلمة سياسى هنا تحجب شيئا من حجم المؤثر الإسلامى الذى سعى شعراء الأحزاب إلى توظيفه فى الإقناع بنظريات أحزابهم على نحو ما صنع شعراء السنية أو الخوارج أو الزيدين ، إلى جانب شعراء الحزب الأموى الحاكم .

وتعكس الصورة التعددية المتصارعة الفكر أبعادها على جماليات الصياغة لدى الشعراء إذ يبدو المعجم الإسلامى شديد الدلالة على رغبة الشاعر فى اجتذاب جمهوره وإقناعه والسيطرة على مشاعره ، فى مقابل ذلك الالتزام الحضارى الذى يشبع من خلاله حسه التجديدى الذى يصور انعكاسات الحياة الجديدة على مشاعره ووجدانه من ناحية ، وعلى فكره وعقله من ناحية أخرى .

وهنا تتقارب صورة المعجم ومادته مع معجم شعراء عصر صدر الإسلام و تختلف عنها أيضا ، إذ لا يكاد التقارب يتجاوز وحدة

المصادر التى ينهل منها الشعراء ، حتى إذا ما شغلوا بإيقاع الحياة الجديدة طوعوا المادة الموروثة إلى حيث يشاءون ، وأولوا الآيات القرآنية بما يتسق والمذهب أو النظرية التى ينتمون إليها على أى من المستويات السياسية أو الدينية ، وكان هذا منطق الشاعر الشيعى مثلا أو الزبيرى فى التزامه بقضايا حزبه ، وكذا شاعر الفرقة الدينية سواء أنطلق من عباءة فرقته صراحة ، أو توقف بشعره عند مجرد التأثر بأفكارها بين أرجاء وجبر واعتزال وقدرية ، إذ تظل السمات الفارقة بين الشعراء واردة حول تناولهم لهذا الفكر المذهبى فى الترويج له كفكر ، وبين توظيفه المعتمد فى خدمة النظرية السياسية خاصة من عمد من شعراء الخلافة إلى الترويج لمذهب الجبرية لا لمجرد اقتناعه به ، أو تبرير مسلكه ، بل لتبرير حتمية الحكم فى البيت الحاكم وشخص الخليفة الممدوح ، وهو ضرب من التأويل المقصود لذاته من قبل الشاعر دعما لموقفه أو لنظريته السياسية.

من هنا غلب على المعجم الإسلامى لدى الشعراء هذا الاتجاه إلى ضروب من زحام المادة ، تعكس — بدورها — زحام الفكر ، وصيغ الجدل ، وصراعات المذاهب ، وتنافر الأفكار ، وانقسام الشعراء ، بل حتى انقسام الشاعر الواحد على نفسه ، وربما الاعتراف بذلك على طريقة شعراء الشيعة فى الأخذ بالتقية أمام السلطان ، أو حتى تحول بعض الشعراء بين المذاهب إذا أخذنا بتحول كثير حينا إلى بلاط الخلافة رغم تشيعه ، وكذا عبيد الله بن قيس الرقيات إلى الخليفة رغم زبيريته ، أو تحول الفرزدق حينا إلى التشيع على الرغم من أمويته السياسية .

وبذا يبدو المعجم الإسلامى بمثابة كشف دقيق عن إيقاع الحياة الأموية سواء فيما تعلق بالاضافات التى صنعها الشعراء حول الموضوعات القديمة حتى تحول شعر المدح إلى مدح وسياسة أو إلى شعر سياسى ، وتحول الهجاء إلى نقائض وتحول الغزل من مجرد

مقدمات إلى قصائد كاملة ودواوين متخصصة فيه لا تكاد تتجاوزه ، ومعها تتدفع عناصر التجديد بما يشف عن طبيعة الحياة الأموية حضاريا وسياسيا وفكريا وهو ما احتواه تحول المعجم لدى الشعراء .

وإذا بمنطقة التكفير والاتهام الدينى تتزاحم وتتكثف فى قصائد الشعراء فى ظل الصراعات الدامية بين الفرق السياسية أو الدينية ، وإذا هذه الكثافة تزداد دلالة وعمقا مع تبلور مدرسة الزهد الإسلامى التى برع زعماؤها فى التأصيل لها حتى انقسم عليهم فريق من تلاميذهم على نحو ما كان من موقف واصل بن عطاء من مجلس الحسن البصرى وبداية تبلور مذهب المعتزلة .

وتبدو سمة المرونة والتطور أساساً فى رؤية هذا المعجم على مدار تطور الحركة الأدبية ذاتها ، فإذا بشعراء العصر العباسى ينهلون منه فى أطر أخرى متميزة تميز العصر ذاته ، خاصة منه ما عرض فى إطار الحروب والمعارك على مناطق الثغور الإسلامية والتى أحالها الشعراء إلى صراعات بين الإسلام والشرك ، وحولها حقق الشعراء كثافة ملحوظة للمادة الإسلامية المطروحة فى شعرهم ، صحيح أن المصادر ظلت متشابهة لا خلاف فى ذلك — فالشعائر هى الشعائر ، والعبادات هى العبادات ، ولكن توظيف المادة المتضمنة هو الذى سيتحول فى أصول المعالجة بما يكفى لتغطية الأحداث الجسام على المستوى السياسى فى صراع المسلمين مع الروم بصفة خاصة ، وكأنه التوظيف البديل لصراعات الأحزاب فى الجيل السابق . فإذا ما انتقلت إلى المستوى الفكرى والدينى نراءت لنا أصداء المعالجة مختلفة لدى الشعراء حول مواكبة تيارات الحضارة بما يكفى للترويج لمذهب ما فى ظلالها ، على غرار ما كان لدى المرجئة بصفة خاصة حين أحالوا مذهبهم إلى صورة اجتماعية أخلاقية أكثر من استمراريتها فى إطارها الدينى ، فقد تحول أصحاب المذهب به إلى إباحة ضروب من الفوضى الأخلاقية تحت مسمى

الإرجاء أو العفوية أو تأويل الآيات القرآنية ؛ ومن هنا كثر أتباعه من الشعراء ، وهم أكثر فئات المجتمع ميلا إلى هذا الانحلال الأخلاقي الذى أشبعوا من خلاله تجاربهم تصويرا وعرضا .

ونبقى اللغة الحماسية أساسا بارزا فى حركة الشعر ، أو حتى فى تصانيف الشعراء فى الحماسات بمثابة سمة جديدة تطرح نفسها على العصر وشعرائه ومعجمه جميعا ، وهى اللغة المنقولة بعد ذلك بحكم التأثر وامتداد الفن إلى شعراء الحروب الصليبية من عارضوا الشعراء العباسيين طبقا لتشابه الأطر الحربية فى المعارك التى طال مداها وتعددت أبياتها بين المجتمع الإسلامى فى مصر والشام وبين الصليبيين ، الأمر الذى انعكس فى معجم الشعراء آنذاك المعاصر ، وامتد تأثيرها فيما بعده لدى شعراء المدائح الأموية بصفة خاصة .

* * *

مصـــــادر ومراجـــع

١ ــ الآمدى : الموازنة بين الطائيين ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٠

٢ ــ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧

٣ ــ الأخطل : شعر الأخطل ، تحقيق فخر الدين قباوة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٩

٤ ــ أسامة بن منقذ : ديوانه تحقيق أحمد أحمد بدوى وحامد عبد الحميد ، نشر وزارة المعارف ، مصر ١٩٥٣

٥ ــ البحترى : ديوانه تحقيق حسن كامل الصيرفى ، المعارف ، القاهرة ١٩٧٢

٦ ــ بشار بن برد :ديوانه شرح محمد الطاهر بن عاشور ، لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٥٠

٧ ــ البغدادى : الفرق بين الفرق ، القاهرة ١٣٢٨هـ .

٨ ــ البهاء زهير : ديوانه ، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم وطاهر الجبلاوى ، دار المعارف ، القاهرة

٩ ــ أبو تمام : ديوانه ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف ، القاهرة .

١٠ ــ الثعالبى : يتيمة الدهر ت محمد مفيد قميحة ، دار الكتب ، بيروت ١٩٨٣

١١ ــ الجاحظ : البيان والتبين ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٧٥

١٢ ــ جزيرة : ديوانه ، تحقيق نعمان طــه ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩

١٣ ــ جميل : ديوانه تحقيق حسين نصار ، نهضة مصر ١٩٦٧

١٤ ــ حسان بن ثابت : ديوانه تحقيق سيد حنفى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣

١٥ ــ الحطيئة : ديوانه ، تحقيق نعمان طــه ، القاهرة ١٩٥٨

١٦ ــ الخالديان : الأشباه والنظائر من أشــعار المتقدمين فى الجاهلية والمخضرمين ت محمد السيد يوسف ، لجنة التأليف ١٩٥٨

١٧ ــ ابن خلدون : المقــدمة ، دار القلم ــ بيروت ١٩٨٦

١٨ ــ الراعى النميرى : ديوانه ، جمع وتحقيق رانيهرت فايبرت بيروت ١٩٨٠

١٩ ــ ابن الساعاتى : ديوانه ، تحقيق ونشر أنيس المقدسى ، بيروت ، الجامعة الأمريكية ١٩٣٨

٢٠ ــ ابن سناء الملك : ديوانه ، تحقيق محمد إبراهيم نصر ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٦٩

٢١ ــ السيد الحميرى : ديوانه ، دار صادر ــ بيروت .

٢٢ ــ الشريف الرضى : ديوانه ، دار صادر ــ بيروت .

٢٣ ــ الشهرستانى : الملل والنحل ، تخريج محمد بن فتح الله بدران ، الأنجلو المصرية ١٩٥٦

٢٤ ــ أبو الشيص : ديوانه ، دار صادر ــ بيروت .

٢٥ ــ الصنوبرى : ديوانه ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت .

٢٦ ــ ،لطرماح : ديوانه ، تحقيق كرنكو ــ لندن ١٩٢٧

٢٧ ــ عبد الله رواحة : ديوانه ، د • ت •

٢٨ ــ ابن عبــد ربه : العقد الفريد ت محمــد مفيد قميحة ، دار الكتب ١٩٨٧

٢٩ ــ أبو العتاهية : ديوانه ، دار الكتب العلمية ــ بيروت •

٣٠ ــ أبو على القالى : الأمالى ، مراجعة لجنة إحياء التراث ، دار الآفاق ١٩٨٧

٣١ ــ العماد الأصفهانى : خريدة القصر وجريدة أهل العصر ، تحقيق أحمــد أمين وآخرين ، لجنــة التأليف والترجمــة والنشر ، القاهرة ١٩٥٢

٣٢ ــ عمر بن أبى ربيعة : ديوان عمر ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميــد ، دار الأندلس •

٣٣ ــ الفرزدق : ديوانه ، جمع وتعليق عبد الله الأنصارى ، المكتبة التجارية ١٩٣٦ •

٣٤ ــ ابن قتيبة : عيون الأخبــار ، دار الكتب العلميــة ، بيروت ١٩٨٦

٣٥ ــ ابن قتيبة : تاريخ الخلفــاء أو السـياسة والإمامة ، مؤسسة الوفاء •

٣٦ ــ ابن قيس الرقيات : ديوانه ، تحقيق محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت •

٣٧ ــ كثير بن أحمد الخزاعى : ديوانه ، نشر بيرس ــ الجزائر •

٣٨ ــ كعب بن مالك الأنصارى : ديوانه ، د • ت •

٣٩ ــ الكميت بن زيد الأسدى : الهاشميات ، نشر هورفنتز ، ليــدن ١٩٠٨

٤٠ ــ المبرد : الكامل فى اللغــة والأدب ، تحقيق محمــد أبى الفضل إبراهيم والسيد شحاته ، نهضة مصر ، القاهرة .

٤١ ــ المتنبى : ديوانه ، تحقيق عبد الرحمن البرقوقى ــ بيروت ١٩٧٠

٤٢ ــ مروان بن أبى حفصة : ديوانه ، د . ت .

٤٣ ــ المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق يوسف داغر ، بيروت ١٩٧٣

٤٤ ــ مسلم بن الوليد : ديوانه تحقيق سامى الدهان ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩

٤٥ ــ المقدسى : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، دار الجيل ، بيروت د.ت .

٤٦ ــ نصر بن مزاحم : وقعة صفين ، دار إحياء الكتب العربية ، الحلبى ، القاهــة ١٣٦٥ هـ .

٤٧ ــ أبو نواس : ديوانه تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى ، بيروت ١٩٥٣

٤٨ ــ ابن هشام : السيرة النبوية ، تقديم طــه عبد الرؤوف ســعد ، مطبعة ابن شقرون .

٤٩ ــ أبو هلال العسكرى : ديوان المعانى ، القدسى ، القاهرة .

٥٠ ــ ياقوت : معجم الأدباء ، بيروت ١٩٨٦

٥١ ــ د/إبراهيم عبد الرحمن وعفت الشرقاوى : دراســات عربية (الشعر ، القصة ، التاريخ) مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٧٧

٥٢ ــ د/أبو الوفا التفتازانى : مدخل إلى التصوف الإسلامى ، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٨٨

٥٣ ـ د/أحمد أحمد بدوى : الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ، نهضة مصر ١٩٧٩

٥٤ ـ د/أحمد أحمد بدوى : البحترى ، دار المعارف القاهرة ١٩٧٠

٥٥ ـ أحمد أمين : الصعلكة والفتوة فى الإسلام ـ المعارف .

٥٦ ـ أحمد أمين : فيض الخاطر ، النهضة المصرية ، د . ت

٥٧ ـ د/بهى الدين زيان : الغزالى ولمحات الحياة الفكرية الإسلامية ، نهضة مصر ١٩٨٥

٥٨ ـ أبو الحسن الندوى : السيرة النبوية ، دار الشروق ١٩٨٣

٥٩ ـ د/خليل شرف الدين : أبو العتاهية ، دار مكتبة الهلال . بيروت .

٦٠ ـ د/سعود محمد عبد الجابر : شعر الزبرقان بن بدر وعمرو ابن الأهتم ، مؤسسة الرسالة ١٩٨٧

٦١ ـ د/سعيد حسين منصور : حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية والإسلام ، دار القلم ، الكويت ١٩٨١

٦٢ ـ د/سهيل زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر ، بيروت ١٩٧٣

٦٣ ـ د/السيد تقى الدين : الأدب والحضارة ، نهضة مصر ، الفجالة .

٦٤ ـ د/السيد عبد القادر عويضة : أثر الإسلام فى الشعر فى عصر الرسول والراشدين ، مطبعة الأمانة ١٩٨٧

٦٥ ـ د/زكى مبارك : المدائح النبوية فى الأدب العربى ، الشعب ١٩٧١

٦٦ ــ د/زكى المحاسنى : شعر الحرب فى أدب العرب ، دار المعارف ١٩٧٠

٦٧ ــ عباس العقاد : مجموعة أعلام الشعر ، دار الكتاب العربى ــ بيروت ١٩٧٠

٦٨ ــ عباس العقاد : الحسن بن هانىء ، الهلال .

٦٩ ــ د/عبد الستار السيد متولى : أدب الزهد فى العصر العباسى ، نشأته وتطوره وأشهر رجاله ، الهيئة المصرية العامة ١٩٨٤

٧٠ ــ د/عبد الرحمن إبراهيم : دور الشعر فى معركة الدعوة الإسلامية أيام الرسول ﷺ ، الشركة الوطنية للنشر ، الجزائر .

٧١ ــ د/عبد العليم حفنى : الشعراء المخضرمون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .

٧٢ ــ د/عبد المنعم أحمد يونس : كعب بن مالك الأنصارى ، الأمانة ١٩٨٦

٧٣ ــ د/فلهوزن : تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية ، ترجمة محمد عبد الهادى أبى ريدة ، سلسلة الألف كتاب ، القاهرة .

٧٤ ــ كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ت نبيه فارس ومنير البعلبكى ، دار العلم ١٩٤٨

٧٥ ــ كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ت عبد الحليم النجار ، المعارف .

٧٦ ــ محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر الأيوبى ، دار المعارف ١٩٦٨

٧٧ ــ د/مؤيد فاضل ملا رشيد : شبهات حول العصر العباسى الأول ، دار الوفاء ١٩٨٦

٧٨ ــ د/محمد زكى العشماوى : موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى ، النهضة العربية ــ بيروت ١٩٨١

٧٩ ــ د/محمد سيد كيلانى : الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى فى مصر والشام طرابلس ــ ١٩٨٤

٨٠ ــ محمد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

٨١ ــ د/محمد عبد العزيز الكفراوى : أسطورة الزهد عند أبى العتاهية ، نهضة مصر ١٩٧٢

٨٢ ــ د/محمد على الهرفى : شعر الجهاد فى الحروب الصليبية فى بلاد الشام ، الشركة المتحدة للتوزيع ، سوريا .

٨٤ ــ د/محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، دار الفكر ، القاهرة .

٨٥ ــ محمد محمود على : الإسلام والحضارة العربية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٩

٨٦ ــ د/محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الإسلام ، الهيئة المصرية ١٩٧٠

٨٧ ــ د/محمد مصطفى حلمى : ابن الفارض سلطان العاشقين ، المؤسسة المصرية ١٩٦٣

٨٨ ــ د/ نورى القيسى : شعراء إسلاميون ، النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١

* * *

فهرس

الصفحة

مقـــدمة ٥

الفصل الأول : المؤثرات الدينية فى شعر صدر الإسلام ١١

مصادر التأثير ومقوماته ــ فى عصر الرسول ــ فى عصر الراشدين ، ســمات المعجم فى هذا العصر

الفصل الثانى : فى عصر بنى أميــة ٤٩

التنوع والتجديد ــ المعجم وسياسة العصر

مصادر المــادة ــ خصائص المعجم

الفصل الثالث : فى العصر العباسى ١٢٩

اتجاهات الحياة العباسية ــ روميات الشعراء

التاريخ الإسلامى ــ المذاهب الفكرية

الزهد والتصوف ــ سمات المعجم

الفصل الرابع : فى شعر الحروب الصليبية ٢٣١

معارضات روميات العباسيين ــ دائرة الفضيلة الإسلامية

إحياء تاريخ الجهاد الإسلامى ــ الزهد والتصوف

خاتمـــة ٢٧٠

مصـــادر ومراجع ٢٧٥

فهـــرس ٢٨٥

رقم الايداع بدار الكتب ٤٩٨٣/١٩٨٩